بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة رواد التعاون

٤

تاريخ رواد روتشديل



سلسلة رواد التعاون
٤

تاريخ رواد روتشديل

دكتور كمال حمدي أبو الخير





صـــورة جـــورج جيحوب هولى اوك ابـــرز المؤرخين
الذين عاصروا رواد روتشديل عن قرب ، وكاتب سـيرتهم

المحتويات

صفحة

مدخل الى سـيرة الرواد



بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنى أن أقدم لأول مرة للناطقين باللغة العربية المهتمين بالدراسات التعاونية الكتاب الرابع من سلسلة رواد التعاون وموضوعه « تاريخ رواد روتشديل » ··· مشيرا الى أن كاتب سيرتهم هو جورج جيكوب هولى أوك أبرز من عاصرهم عن قرب من الكتاب والباحثين والمؤرخين ، وقد أوضح فى مقدمة كتابه أنه كان قد إتخذ كافة الإجراءات لنشر سيرة الرواد فى صورة مقـالات متتابعة فى جريدة الديلى نيـوز Daily News ، غير أن إندلاع الثورة فى الهند فى عام ١٨٥٧ حال دون إتمام فصولها ، الأمر الذى دفعه فى هذا التاريخ الى نشرها فى صـورة كتاب تحت عنـوان « العون الذاتى بواسطة الجماهير » ، فساعد ذلك على ذيوعها وإنتشارها ، حيث تلقفها المهتمون بشئون الإجتماع ودور النشر بالترحيب ، ومنهم مستر « هوراس جريلى Horace Greeley » محرر جريدة نيويورك تريبون الذى كان أول من أصدر طبعة منه خـارج إنجلترا ، ثم تلاه « فرناندو جاريدو Fernando Garrido » النـاشر الأسـبانى ، ثم قـام « بروفسـور أ· تالانديير A. Talandier » بترجمة الكتاب الى الفرنسية فى البروجرية دى ليون ، وأعلن أن هذه الترجمة أعطت دفعة للحركة التعاونية فى ليون · كما أن الكاتب الصحفى مسيو ايلى ركلس Elie Reclus كتب قصة خيالية بعنوان « الرجل الأعمى والرجل الكسيح » وضمن هذه القصة الكثير من القيم التى إستمدها من سيرة الرواد ، وإهتمت الحركات التعاونية فى فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا وروسيا وأمريكا واستراليا ، وغيرها من دول العالم بإصدار ترجمة لهذه السيرة بلغة قومها ·

ومن بين ما يوضح أثر هذه السيرة ما قاله مستر وليم كوبر أحـد رواد روتشديل البارزين فى رسالة له الى جريدة الديلى نيوز فى ديسمبر عام ١٨٦٣ حيث قال « أنه من بين ٣٣٢ جمعية قائمة وقتئذ ، فإن ٢٥١ جمعية منها يدينون فى إنشائها لكتاب العون الذاتى ، وأنه سمع من كثيرين من المنتمين لهذه الجمعيات أن نجاحها يرجع الى قراءتهم وتفهمهم لما ورد فى هذا الكتاب ·

ويقول جورج جيكوب هولى أوك أنه قد يبدو للتعاونيين المعاصرين الذين يعرفون كم تدين الحركة فى تطورها ورخاءها الحالى للجيل الجديد من

المؤيدين ، أن الجيل السابق يعطى أكثر مما يستحق من الفضل ، لكن هذا الجيل السابق هو الذى حركها ورسم الخطوط التى سارت عليها وما هذه الصفحات إلا تاريخ واقعى غير متحيز كما يرى القارىء ، ولو لم يوجد الرسل الأوائل المتحمسين الذين سافروا فى زمن السوء ووعظوا واستشهدوا لما وجدت المسيحية ، ولو لم يجاهد ستيفنسون ويفكر ويكد ويدبر من أجل السكة الحديدية وسط رأسماليين جاهلين وجمهور غير صديق لكنا ننظر الى السكة الحديدية اليوم باعتبارها جنون ميكانيكى لا غير ، وإذا لم نكرم هؤلاء الأوائل الذين بدأوا الحركة لكان ذلك ظلم عظيم ، وإذا لم نعترف بمزايا خلفائهم لكان هذا ضلالا ، وقد حدث أن كان هذا الأمر مسألة حقيقية تاريخية وهى أن التعاون انبثق من نظريات اجتماعية شهيرة نشأت فى أوائل القرن التاسع عشر وجاء التعاونيون الشجعان العمليون فوضعوا النظام موضع التنفيذ ورسموا طريقهم وكيفية عملهم من أجل التعاون ووقفوا بجانبه ودافعوا عنه ضد عالم من العداء حتى أخذ الآخرون يتقبلونه بل ويعتنقونه ٠ وكانوا فى كل ذلك يستلهمون أفكار المنظرين العظام الذين سبقوهم ٠

ويهمنى أن أوضح للقراء أن هناك الكثير من المنظرين الذين سبقوا رواد روتشديل ، من بينهم مثلا روبرت أوين (١٧٧١ ــ ١٨٥٨) الذى أطلق عليه الكثير من المفكرين « مؤسس الاشتراكيــة والحركة التعاونيــة البريطانية » وأفردنا لسيرته الكتاب الأول فى سلسلة الرواد ، فقد عبر عن اعتقاده بأن الجنس البشرى وقتئذ على وشك أن يدخل عصرا جديدا من الرخاء والوفرة نتيجة للأساليب العلمية والفنية الجديدة التى يمكن تطبيقها فى كل من الزراعة والصناعة ، وكان يرى أن سيطرة الثروة والشرور الناجمة عن الرغبة فى اقتناء المال وتقديسه قد آن لها أن تزول ، ومن هذا الفهم اقترح نظاما جديدا وعمل على تطبيقه ، ويتلخص هذا النظام فى إقامة مستعمرات تعاونية تقوم على الإكتفاء الذاتى ، بحيث يتوافر فى إدارتها مكافأة رأس المال وأن يتم تقييم السلع على أساس ما تضمنته من ساعات العمل المبذولة فى انجازها ٠

ومن بين المنظرين السابقين أيضا سان سيمون (١٧٦٠ ــ ١٨٢٥) الذى كان يعتقد أن الظروف التى كانت سائدة وقتئذ فى حاجة الى أن تدفع الجنس البشرى الى إحــداث تغيير تطورى جديد يكون له من قوة التأثير مثل ما أحدثته رسالة المسيحية ، وأن هذا التغيير ينبغى أن يستند الى العلم الذى يمكنهم من التخطيط لمستقبلهم فى نطاق وحدة المعرفة التى تدفع الفرد الى الإيمان بالنظام واعتباره أهم الأسس للتنظيم الاجتماعى العلمى ، وكان يدرك تماما أن التنمية الاقتصادية ليست هى كل ما يحتاجه الإنسان ٠٠٠ بل إنه يكرر ويؤكد أن للفنون والعلوم الأخلاقية دور جوهرى وأساسى فى

إعداد وتربية الإنسان ليكون عضوا سليما وفعالا فى بناء المجتمع ، وأن المجتمع سيظل فى حاجة قصوى الى التوجيه الروحى الذى لابد من ايجاده فى جماع المعرفة العلمية ·

ومن بين المنظرين شارل فورييه (١٧٧٢ ــ ١٨٣٧) الذى نادى بفلسفة جديدة تقوم على التخطيط الاقتصادى والاجتماعى بدلا من النظام الذى يطلق على نفسه « الحرية الاقتصـادية والاجتماعيـة » ، بينما هى فى الحقيقة حرية الفئات القادرة على استغلال الفئات غير القادرة ، وكان من رأى شارل فورييه دفع مكافآت خاصة مقابل المهارة والمسئولية والقدرة الإدارية ، وأن يسمح أيضا بدفع فائدة على رأس المال المستثمر الذى يستخدم فى تنمية المجتمعات التعاونية التى نادى بها ، وكان يؤمن أن الإنسان بطبيعته وفطرته يرغب فى أن يحصل على الأجر أو المكافأة التى تتناسب مع ما يبذله من جهد ، وأن عدم الأخذ بهذه القاعدة يعتبر من اكبر الأخطاء التى قد يقع فيها أى نظام اجتماعى أو اقتصادى ، ولذلك نادى بالقيام بحملات تعليمية مستمرة تستهدف غرس المفاهيم التى ينادى بها فى أذهان الناس حتى يتفهموها وتكون لها جاذبيتها فى عقولهم وقلوبهم ، وحينئذ يكونوا على استعداد للعمل بها ·

وفى الحقيقة فان المجال هنا لا يتسع لذكر العديد من رواد التعاون الذين أثرو الفكر التعاونى بآرائهم وتجاربهم بالاضافة الى رواد روتشديل ، ومنهم مثلا دكتور وليم كنج الذى أفردنا لسيرته الكتاب الثانى فى سلسلة رواد التعاون ·

غير أن المقام يقتضينى أن أشير الى كتابات « جون ستيوارت ميـل John Stuart Mill » (١٨٠٦ ــ ١٨٧٣) الاقتصـــادى البريطانى الذى كانت له العديد من المؤلفات التى تركت بصماتها على الفكر التعاونى ، والتى منها « الحرية الفردية » و « حقوق الأقلية » و « الحاجة الى الضـمير الجماهيرى » و « مفهوم المنفعة » و « مبادىء الاقتصاد السياسى » ··· وهذا الكتاب الأخير صدر فى عام ١٨٤٨ وأوضح فيه دور التعاون فى النظام الاقتصادى ، معبرا فى كتاباته عن اعتقاده بإمكانية تعديل توزيع الثروة دون أى مساس بقوانين إنتاج الثروة ، وربط العدالة بالمصلحة العامة ، وتقديم الواجب على المنفعة الذاتية فى ضوء نصوص القانون ·

هؤلاء الرواد وغيرهم كثيرون كان لهم فضلهم وأثرهم على تجربة رواد روتشديل الذين أقاموا نظاما جديدا للتعاون ينشد الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، وجودة الإنتاج وعدالة التوزيع واقتسام الفائض عن طريق

عائد المعاملات ، ويستند الى عضوية واعية مستنيرة تعمل معا بغض النظر عن اللون أو الجنس أو العقيدة ، بروح من الود والاخاء والنقاء وانكار الذات وتغليب صالح الجماعة ووضع هذا الصالح فوق كل اعتبار ، مع تاكيد مفهوم أن الفرد فى خدمة الجماعة ... وأن الجماعة فى خدمة الفرد ..وان وحدة المصالح الاجتماعية والاقتصادية مشتركة بين الأثنين .

اننى أرجو أن أوجه النظر الى التطبيق العملى لرواد روتشديل ، حيث أن سيرتهم العلمية والعملية توضح أنه كلما فتحت جمعية روتشديل فرعا جديدا، تفتح معه « قاعة أنباء » جديدة ، « قاعة مفتوحة » دائما تزيد العضو اطلاعا وحكمة فى العقل دون أن تزيده فقرا فى المال ، فالمعرفة اقتصاد وبصيرة وحكم صائب ، وفى ذلك يقول مستر كوبر « حيث لا توجد قاعات أنباء ولا مكتبات ولا أهداف تثقيفية تتصل بالحانوت التعاونى فلابد أن يذهب أذكياء العمال الى مكان آخر مادامت الجمعية التعاونية لا تفى بحاجاته ، أما الجمعيات الحكيمة التى تقدم قاعات الأنباء فلابد أن تجتذب أولئك الذين يبحثون عن غذاء للفهم والعقل ، وتجتذب المكتبات وقاعات الأنبـاء فى روتشديل وأولدهام وبيرى وغيرها من الجمعيات فئة من الأعضاء لا تجتذبها الأرباح النقدية وحدها » .

لقد أثبتت روتشديل أنه يمكن تثقيف الناس وتعليمهم التوفير وحسن البصيرة ، وهذا أمر جديد وخطير فى الطبيعة البشرية للطبقة العاملة فى ذلك الوقت ، وقد يتفوق البعض على الرواد ماديا وعدديا وهذا شىء حسن ، لكن هذا البعض لا يمكن أن يتفوق عليهم فى الفضل الذى يتعلق بإيمانهم بالتعاون عندما كان المؤمنون به قلة ، وفيما يتعلق بالشجاعة حين كان الآخرون فى حضيض اليأس .

ويرجع الفضل كله الى تلك القاعدة الذهبية فى تقسيم الأرباح التى خصصت نسـبة من صافى الربح للأغراض الثقافيـة مما نهض بجمعية روتشديل وجعلتها تسـمو فى كافة الجمعيات الأخرى التى اتخذت منها مثالا حكيما ذا قيمة ثمينة ، واكسبتها أصدقاء كثيرين وشهرة واسعة ، وجنبتها أن يغلب عليها الحمقى أو الجهلاء من الأعضاء الذين كان حريا بهم أن يدمروا هذا الجانب الثقافى بدعوى أن الفكر لا يجدى ماداموا هم أنفسهم لا فكر لهم ولا يدرون له معنى ، فيظنون أن الربح يكفى بلا معرفة ولا يعرفون أن لا ربح يتحقق بغير معرفة لا فى المتاجر التعاونية ولا أى مكان آخر ، فقد استخدموا الفوائد الناشئة عن صندوق التعليم الخاص فى مساعدة الفصول الدراسية لمنفعة اسر الأعضاء ، وفى بعض السنوات

كانت تلقى على الأعضاء محاضرات تضيف الى معلوماتهم ، وجاء فى التقاويم الأخيرة هذا الإعلان : « فصول فى العلوم والفنون واللغة الفرنسية ، افتتحت اللجنة التعليمية هذه الفصول عام ١٨٧٣ وظلت مستمرة بنجاح منذ ذلك الحين ، ويتولى مدرسون قديرون تعليم المواد التالية : الرياضية ، الرسم الهندسى والميكانيكى ، الميكانيكا النظرية ، الفسيولوجيا ، علم النبات ، المغناطيسية والكهرباء ، الكيمياء غير العضوية ، الرسم النظرى ورسم النماذج الهندسية والفراغية ، الصوت والضوء والحرارة ، اللغة الفرنسية ، وينبغى أن يستفيد كل أبناء وبنات الأعضاء من هذه الفصول » ٠

كما أرجو أن أوجه النظر الى ما أوضحه مستر وليم كوبر فى أجهزة الإعلام البريطانية فى عام ١٩٦١ بشأن أسلوب عمل الجمعيات حيث قال :

أرجو أن أحيط قرائكم علما بأن مبادىء تعاونيى روتشديل هى :

أولا : عدم البحث فى الآراء الدينية لأولئك الذين يقدمون طلبات للإنضمام الى جمعيتنا أو الى أى من مختلف الجمعيات التعاونية فى بلدتنا ٠

ثانيا : إن تنوع الفروق السياسية والدينية فيما بين الأعضاء الذين يشكلون جمعياتنا ينبغى أن يمنعنا من أن نسمح بحدوث أى شىء فى مجالسنا أو ممارساتنا من شأنه تأويله لصالح أى شخص أو طائفة أو رأى ٠

إن هناك الكثير من المواقف المشرفة فى تاريخ الرواد ، والتى منها مواقفهم ضد التفرقة العنصرية على الصعيد العالمى ، ويكشف عن ذلك انه لما قامت حرب الرقيق فى أمريكا ، فان هذه الحرب أثرت على عمال النسيج ، وحاول البعض إثارتهم بأسم المصلحة المادية ، غير انه لم يستطع أى مثير للخواطر ولا مهيج أن يدفع بالتعاونيين لينضموا اليه فى أى اضطراب للضغط على الحكومة للتدخل الى جانب الجنوب حتى يأتى القطن الى لانكاشير ويوركشاير ، وكان حريا بأسبوع واحد من الاضطرابات أن يقلب الموازين ضد الرقيق ، وهكذا نظرت الأمة باعجاب وفخر الى العمال الانجليز فى صمتهم الكريم الوقور الصبور ، وكانت النصيحة التى قدمها الرواد موجهة الى « تعاونيى روتشديل والأمة » ، وكانت تلك المرة الأولى التى استخدموا فيها نفوذهم الذى اكتسبوه بحق ليتحدثوا بهذه الطريقة الى العالم الخارجى ٠

وختاما ، اننى أوجه نظر الباحثين والدارسين والمهتمين بالتعاون الى الرجوع الى محاضر وسجلات رواد جمعية روتشديل ، فمما لا شك فيه أن دراسة سجل المحاضر فى المرحلة المبكرة من امتع الدراسات التى تعطى الدارس

فكرة عن نوعيــة القوم الذين عبروا بالحركة مراحل كفاحها الأولى ، لقد أحاطت بهم روح من الاخلاص الحقيقى التى وجدت تعبيرا صادقا ومبينا عنها فى سجلات مختصرة ، فنجد مثلا فى أحد المحاضر قرارا يقول : « يعفى كوبر الصراف من طحن البن ! ٠٠ » فأى جمع غريب من الواجبات هذا ؟ وكيف يظن به الآن ؟ وتصور الصراف الذكى فى أحد حوانيتنا الكبيرة وهو يأخذ دوره فى طحن البن ! لكن يبدو أن هؤلاء الرجال كان عليهم أن يؤدوا مهمة الكاتب وعضو اللجنة وطاحن البن والبائع فى الحانوت معا ٠٠ وانى أتساءل هل إذا تطلبت الظروف أنجد الجيــل الجديد من التعاونيين مساويا لهؤلاء ؟

لقد حقق التعاونيون الأوائل بروتشديل معجزة معنوية كبرى تتلخص فى معرفتهم كيف يختلفون دون أن يتفرقوا ، وينفعلون دون أن ينشقوا ، ويكرهون أحيانا لكنهم يتماسكون معا دائما ٠٠ لقد قابلوا أشخاصا يتنفسون العداء ، والفرقة ، وعدم الثقة ٠٠٠ نبراتهم قاسية وغاضبة دائما يدعون أنهم وحدهم المتكلمون باسم الديمقراطية كما يزعمون ، والحكماء ، ولا يستطيع أن يقف أمامهم إلا حكماء وأقوياء ، وقد فهم رواد روتشديل طبيعة هؤلاء فهما جيدا فقابلوهم وتحملوهم وعملوا معهم واعتبروهم عقبة فى سبيل التقدم يجب معالجتها وتجاوزها بكلمة طيبة أو ابتسامة مرحة ، وردوا عليها بالعمل لا بالكلام كما دحض ديوجينس زينو ، فحين قال زينو لا حركة هناك ٠٠٠ أجابه ديوجينس بأن تحرك ، وعندما أشار نقاد السوء الى الفشل ٠٠٠ رد عليهم التعاونيون فى روتشديل بالنجاح ٠

وإننى أتساءل ٠٠٠ هل نحن التعاونيون العرب نسير على خطى الرواد ؟

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق التعاونيين فى مصر ، وعالمنا العربى المعاصر فى السير على طريقهم ٠٠ طريق العلم ٠٠ طريق الأخلاق ٠٠ طريق القيم الروحية ٠٠ طريق النجاح ٠٠ والله الموفق ٠

دكتور/كمال حمدى أبو الخير

الفصل الأول

الجهود الأولى ونوعية الرجال الذين قاموا بهـا

THE FIRST EFFORTS, AND THE KIND OF PEOPLE WHO MADE THEM

لابـد أن الطبيعة البشرية فى روتشديل كانت تختلف عنهـــا فى غيرها من الأماكن ، ولابـد انه كانت فى هذه المنطقة الغربية من لانكشاير نوع خاص من العمـــال ، فلا يمكن تعليـل ما حـدث بأى ســبب آخـر خلاف ذلك ، لأنهم أستطاعوا أن يتقنوا فن العمل معـا والبقاء معـا بشكل لم يعهد فى أى طائفة من العمال ببريطانيا العظمى ، وقد تصرفوا طبقا لنصيحة سير روبرت بيل التى لا تنسى فاتجهوا الى أن « يأخذوا شئونهم الخاصة فى أيديهم » وأكثر من هـذا فقد ابقوها فى أيديهم ٠

وليست الطبقة العاملة على ثراء كبير فى فضـيلة الثقـة بالنفس ولا الثقة المتبادلة مع الزملاء ، ولا تعتبر الأعمال التجارية من مراكزها الحصينة٠ ولا فن انشاء المشروع الكبير والتحكم فى كل تعقيداته من فنونهـا ، وما أكثر ما عرضت عليـه فكرة التجمع معـا وجربت معهـم وما أكثر ما فشلت فشلا ذريعا ، ولم يستطع مستر روبرت أوين أن يحقق لهم نصف ما نواه ، بـل ان « الاشتراكيين المسيحيين » وفيهم الخطيب المفـوه الذى يلهمهم والأستاذ الصاعد الذىيرشدهم ، وذو العقلية القانونية والعقلية التجارية لم يستطيعوا أن يصنعوا الكثير من أجل التجمع ولم الشمل ، وحتى كيس آلهـة الحظ لم يستطع شيئا (١) ، وما كادوا يخلعون نابا واحدا من أنياب تنين المنافسـة وبدلا من اصابة تلك الحيـة الخطيرة يبـدو أنهم زادوا من حيويتها واقنعوا البرلمانيين من الاقتصاديين السياسيين بأن الكفاح التنافسى هو المبدأ الوحيد الخالد والفعال فى المجتمع ، صحيحأن التقارير تأتينا من حين لآخر أن أمريكا صنعت شيئا فى سبيل التجميع فبعيدا فى الغابات الخلفية سمعنا عن قبيلة ثنائية الأصل من سلالة غامضة من الألمان والأمريكان يعرفها الناس باسـم

---

(١) لابد أن نعلن خلافنا فى هذا الصدد ، فقد فشلوا لأنهم اعتمدوا على كيس الحظ **Purse of Fortunatus** ففى فرنســا بقيت جميــع « الجمعيـــات العماليـــة » التى رفضت قبول أموال من الحكومة عام١٨٤٨بينما اختفتمن تبلتهذه الأموال ، فالتضحية والاعتماد على النفس هما سر النجاح هنا كما فى كل المشروعات الأخرى ـ محـــرر ديلى نيوز ٠

شيكرز(١) Shakers قيل انهـا أمسكت بثور التعاون السمين وأنها ثريـة فى القمح والزيت والنبيذ ، وقيل أيضـا ربما تكريما لهم ، أنهم كرماء أيضا بالأيتام واللقطـاء الذين يجمعونهم ويربونهم بـرا وكرما ، غير أن الشيكرز كانت لهم عقيدة ضيقة ولا زوجات لهم فهم يكرهون الزواج والتساؤل الحر ، لكن فى الدائرة الانتخابية التى كان يمثلها حتى عهد قريب مسـتر ادوارد ميـول Edward Miall توجد حرية فكر – والفتاة التى قد تغرى الكبار مرة أخرى – وأطفال متوردو الخدود بريون كنبات شيطانى وكثيرون كالنبات كثيرة الازدهار وفى ظل الظروف غير المواتية والحرجـة من الزواج والفكر المستقل زاول بعض الرجال العاملين فى روتشديل فـن المساعدة الذاتيـة وإبقاء « الذئب بعيدا عن الباب » ، فهذا الحيوان الذى يفترض أنه أبيـد فى أيـام ايثلبرت Ethelbert مازال يظهر فى مدننـا المزدحمة ويمكن أن يظهر فى أى يوم على أعراف الحضارة ·

وفى نهاية عام١٨٤٣وفى يوم من الأيام الرطبة المظلمة الثقيلةالمؤذية غير المريحة التى لا يمكن أن يحبها أى فرنسى ، مثل الأيام التى تأتى فى نوفمبر حين يستنفد كل ضـوء النهار وتكف الشمس عن كل محاولة لإرسال الضوء إما يأسا أو نفورا ، اجتمع عـدد قليل من عمال النسيج الفقـراء المتعطلين الذين نفـد طعامهم تقريبـا والذين كرهوا الأحوال الاجتماعية السائدة ليروا ماذا يمكنهم عمله لتحسين أحـوالهم الصناعية ، لكن أصحاب الصـناعة لهم رأسـمال وأصحاب الحوانيت لديهم مخزون ، فكيف ينجحون هم وقـد فقدوا الاثنين ؟ هل يتجهون للاستفادة من قانون الفقـراء ؟ ليصبحوا بذلك عالة ، أم للهجرة ؟ وهذا كالنفى لجريمة لم يرتكبوها بل لأنهم ولدوا فقراء ، ماذا يصنعون ؟ سيبدأون معركة الحيـاة لحسابهم الخاص ، سـيخلفون التجار وأصحاب المصانع والرأسماليين جميعا ، وبلا خبرة ولا علم ولا مال

---

(١) ورد فى « موسـوعة وقاموس لاروس » أن الشيكرز هم جمـاعة ظهرت فى انجلترا فى عام ١٧٤٧ ، وهاجر مؤسسوها الى أمريكا بعد انفصالهم عن الكويكرز ، وكونوا هناك طائفة دينية أمريكية اشتراكية تعرف بطائفة الهزازين لأن حركات الجسد تشكل جـزءا من العبادة عنـدها ، وقد اشتق اسـمهم من اللفظ الانجليزى Shake بمعنى يهتز ، بسببانجذابهم الدينى الصوفى ، وكانتتعيش هذه الطائفة عيشة جماعية فى تبتل ورهبنة ، ولم يبق من تابعيهم فى منتصف القرن العشرين إلا عدد قليل جـدا لا يتجاوز بضع عشرات ·

سيتحولون تجـار وصناعيين ، وأديرت قائمة الاشتراك ولن تحفل البورصة كثيرا بالنتيجـة ، وأقبل نحو عشرة من هؤلاء الرأسماليين الصغار النابتين على دفع اشتراك أسبوعى قدره بنسان لكل منهم ، وهو مبلغ لم يكن يعرف أى روتشيلدى منهم كيف يدفعه ، وبعد اثنين وخمسين « دعـوة » لهـؤلاء المساهين العظام لم يكن فى بنكهم ما يكفى لشراء غرارة من القرطم ، لكـن هؤلاء الفقراء يملكون الآن مصانعهم الخاصة ومستودعاتهم ومحل بقـالة يتعامل فى ٧٦٫٠٠٠ ج ك نقـدا فى العام ، وجـاء فى تقريرهم الربع سنوى الأخير الذى ننشره هنـا أن المبيعات النقـدية بلغت ١٩٫٣٨٩ ج ك أى أن الحصيلة الأسبوعية ١٤٠٠ ج ك فى الأسبوع ٠

وهكذا فان أصل مخزن روتشديل الذى برز على جميع المخازن التعاونية المنشأة فى بريطانيا العظمى يرجع الى تلك الجهود غير الناجحة التى بذلهـا بعض النساجين لتحسين أجورهم ٠ وفى قرب نهاية عام ١٨٤٣ انتعشـت صناعة الفانيـلا Flannel كانت إحدى الصـناعات الرئيسـية فى روتشديل وفى تلك اللحظة المواتية ، قرر النساجون وكانوا من أقل العمـال أجورا أن يطلبوا سـلفة مقدمة من أجورهم ، ورأوا أن أرباب العمل يمكنهم تقديم تلك السلفة عندئذ فقـد كانوا من أحسن الناس حالا وقد وافقوا عندما عرضت عليهم المسألة ولكن كل واحد منهم علق موافقته على موافقة جيرانه ، فكيف يمكن إقناع الجيران وكيف يمكن الحصول على موافقة جماعيه ؟ كان الأمر سهلا نظريا لكنه أبعد عن السهوله عمليا ، فليس أصحاب العمل مهذبين دائما وليس العمال خبراء فى التكتيك دائما ٠ ولا يتفاوض النساجون مع أرباب العمل بالمراسلات بل الطريقة المعتادة هى المقابلة الشخصية حيث يقتحم الخادم ويعانى المخدوم الذى لا يحب مثل هذا النوع من المحادثات لأن المطالبة بدفع الأجـر مقدما قد لا يسـعه إجابتها وقد يتعرض للدمار الكامل والسريع اذا أجابها بمجرد أن تنزل بالعمال نازلة ، لكن منشأة أو منشأتين لهما من الأريحية ما سيظل العمـال يذكرونها قررتا دفع أجور عمالهما مقدما كاجـراء عملى تيسيرا للأمور وعلى سبيل التجربة وتقديما لمثـال قد يحتذيه أصحاب العمل الآخرين ، أما اذا لم تسفر التجربة عن إتفاق عام فمن السهل الرجوع فيه ، وعقدت لجنة الحرف التى طلبت تعجيل دفع الأجور نيابة عن نساجى قماش الفانيـلا مشاورات كبرى بطريقتها المتواضعة لبحث « الطرق والوسائل » ، فالصناع الانجليز ليسوا متأخرين ولم تشتهر الطبقة العاملة أبـدا بنجاحاتها

جمعية رواد روتشديل ـ الحساب النقدى ـ ديسمبر ١٨٥٧

الايـــــرادات

البيان	جك	شلن	بنس
الى النقدية رصيد سبتمبر	٣٣١١	١٤	١
الى النقدية مدفوع من جمعية كورن ميل	١٠٠٠	ـ	ـ
الى النقدية تبرعات	٧	٥	ـ
الى النقدية مساهمات	٥١٠	٤	٥ر٣
الى النقدية مقابل بضائع	١٩٣٨٩	ـ	ـ
الى النقدية خصومات	٢٢٥	٨	ـ
	٢٤٤٤٣	١١	٥ر٦

المصـــروفات

البيان	جك	شلن	بنس	جك	شلن	بنس
من النقدية ثمن بضائع				١٩٤٨٣	ـ	٣
من النقدية اجور	٢٤٣	٦	٥ر٨			
من النقدية ايجارات	٣٤	١٠	٣			
من النقدية مصروفات عمومية واصلاحات	٦٢	١٦	٥ر٨			
من النقدية نقل	١٥٢	٧	٨			
من النقدية مرتب أمين الصندوق	٢	١٠	ـ			
من النقدية مصروفات نثرية	١	ـ	ـ			
من النقدية فوائد	١٨	١٦	٨			
من النقدية تأمين	١	١٥	ـ			
من النقدية صندوق المبانى	٦	ـ	ـ			
				٦٢٣	٣	ـ
من النقدية مسحوبات الأعضاء				٢٠٢٧	١٣	٧
من النقدية الرصيد				٢٣٠٩	١٤	٥ر٨
				٢٤٤٤٣	١١	٥ر٦

الدبلوماسية ، أما خطة العمل التى تبنتها لجنتنا هذه فلم تتضمن مهارات ولا حذقا ، فبعد كمية من الخطب تكفى لإنقاذ الأمة ، اتفق على أن يطالب أصحاب العمل واحدا بعد الآخر بدفع الأجور مقدما فاذا رفض صاحب العمل كان على النساجين العاملين لديه أن « يضربوا » أو « يمتنعوا » ويعول الآخرون هؤلاء المضربين أو الممتنعين باشتراكات قدرها بنسين أسبوعيا يدفعها كل عامل ممن ظلوا يعملون ، وهى خطة قد ينقصها الكياسة لكنها تمتاز بالوضوح وسرعة الاجراء ، وان كانت غير جذابة لاصحاب العمل فهى بالتأكيد أقل جاذبية للعمال ، فان مسز جونز التى تعول ستة أطفال أو مسز سميث التى تعول عشرة أطفال لن يسر إحداهما أن تدفع بنسين كما هو محتمل أن يطلب منها خاصة وأنها جربت شيئا كهذا من قبل ولم يسمع منها أحد انها أثنت عليه ٠

وكانت الخطوة التالية تنفيذ الخطة ، ولا شك أن وفدا من أصحاب العمل يخاطب الزملاء من أصحاب العمل قد يكون أنسب وأكثر احتراما ، لكن مثل هذه الطريقة كانت غير ممكنة كما هو واضح ، ويستطيع وفد من أصحاب العمل أن ينجز مع أصحاب العمل فى يوم واحد مالا يستطيع أن ينجزه وفد من جميع العمال فى شهر ، لكن لا يمكن أن نتوقع هذه الطريقة ٠٠٠ بل ان وفدا من العمال بدا شيئا شيقا وأكثر مغامرة بالنسبة لهذه السفارة ٠

وفى الزمن الغابر كان وفد العمال نوعا من الأمل المفقود أو المجازفة ، وهى مجازفة أكثر ضياعا فى مجال الصناعة منه فى مجال الحرب ، لأن المتطوعين لمهمة حربية اذا نجحوا نالوا الشهرة وانقذوا أنفسهم أما المتطوعين فى وفد عمالى فغالبا ما يضحى بهم أو يظلوا دائما وفى المستقبل رجالا تحوم حولهم الشبهات ، وفى الحرب يحترم الجيشان المتقاتلان « المجازفة » لكن المجازف فى المنازعات الصناعية يتعرض فيما بعد لانتقام أصحاب المصانع الذين لا يحترمونه ولا يقدرون مجازفته ، ونستطيع القول فى حياد تام مقررين بمقدار ما فى الحقيقة من حزن أن من يشترك فى وفد عمالى يتعرض دائما لسوء ظن من يعمل لديهم ، فهم لا يثقون فيه أبدا ، ويتألف الوفد العمالى عادة من عمال أذكياء ذوى نشاط ، لكن أصحاب العمل يسمونهم بالطبع « افراد ساخطين مثيرين للمتاعب » ، dissatisfied, troublesome fellows .

ولابـد لأعضـاء الوفـد العمـالى من أن يتغيبـوا عن العمـل أثنـاء قيامهم بمهمتهم فى الوفـد ، وعندئذ يتعرضـون للـوم باعتبـار أنهم يعيشون على أجور زملائهم العمال وأنهم يحبون العمل فى الوفود العماليـة أكثر من حبهم لعملهم الأصلى ، وهو حق أحيانا ، فوا أسفاه على عضو الوفد العمالى انه يعانى حظا عصيبا فقد ترك خدمة صاحب عمل واحد ليخـدم ألفـا ، وقد دخل فى خدمة زملاء نصفهم على الأقل ينتقدون سلوكه بقسوة لا تقل على قسوة انتقاد أصحاب العمل له ، ويحقدون عليه أن يأخذ أجـره منهم حقـدا أشـد من حقد أصحاب العمل ، وعندما تنتهى مهمة الوفد ويريد العودة الى عمله الأصلى لا يجد عملا ، ففى أثناء غيابه يعمل رئيسه (مأمورا) على أن يشغل مكانه ثم لا يبدى أى عجلة أو اهتمام بأن يبحث له عن عمـل بديل ، فيضطر للذهاب الى مصنع آخر لكنه لا يجد أحدا يريده فيذهب المسكين الى المناطق المجاورة ولكن سمعته تسبقه الى هناك ، لكنه قد يجد أن زملاءه العمال وقد أصبح ملاحظا فى مصنع ، وقد يرضى هذا بأن يمنحه عملا بعيدا عن محل اقامته ويضطر الى أن يمشى خمسة أو ستة أميال بعد العمل ليعود الى منزله فيتناول عشاءه ثم يعود الى العمل بالمصنع فى السادسة من صباح اليوم التالى ، ثم أخيرا ينقل أسرته قريبا من محل عمـله الجديد ولكن يبلغ آذان رب العمل الجديد أنه لديه عامل كان يتزعم نقابة العمال ، ويحسب رب العمل كم كلفه دفع الأجر مقدما ويرى أن العامل الذى تسرب الى مصنعه كان السـبب فى ذلك فيذهب اليه ويفصله ، ويعود العامل فى الاسبوع التـالى ليدور دورته السابقة مرة أخرى ، وهكذا بعد قليل يجـد أنه أصبح فى حالة « التعطل دائما » فلا عجب أن يرى زوجته التى هى أكثر من يعـانى بسبب تزايد أعباء الأسرة وتناقص الموارد تلومه لانه هدم نفسه وأفقر أسرته « بأعماله النقابية » ، ولأنه يتحرك يوميا باحثا عن العمل فقـد يتعرض « لمعاملات » بعض زملائه القدامى ، وقد يحدث « شغب » فى محل عام فيجد نفسـه بطريقة أو بأخرى مشتركا فيه ، والقضيه فى حـد ذاتها مما يصرف النظر عنـه فى الظروف العادية ، لكن المحكمة التى تنظرها مشكلة فى معظمهـا من أصحاب الاعمال ، والسجين التعس معروف لدى أحـد القضاة على الأقل بأنه انسـان « مثير للمتاعب » وليس من الواضح تماما أنه المذنب فى هذه الحالة ، لكن القاضى يرى أن من المحتمل جدا أن يكون مذنبا فيعامله بالشك و « يحكم عليه » أو « يعيده للسجن » ، ويتضح أن المساهم الرئيسى فى جريدة « ميلـدام كرونكل Mildam Chronicle » هو أحد أصحاب المصانع ،

فيلمح للصحفى المختص بشىء فى هذا الصدد ، ويظهر فى اليوم التالى خبر لــه مغزى تحت عنوان مثل « توم ســبندل الشرير فى مأزق » وينتشر الخبر بين الزملاء السابقين ، وفى الأسبوع التالى يكتب المحرر مقالا عن نوعيــة القادة الذين يسلم لهم العمال المخدوعون أنفسهم ، وهكذا تصبح القضية ضد سبندل المسكين ولا مفر ، وهكذا يمضى توم سبندل ٠٠ ! ٠٠ واذا قضى مدة طويلة فى السجن فقد مضت أسرته أيضا ، وتطرد زوجته من مسكنها لعجزها عن دفع الايجار وتذهب الى الأبرشية طالبة العون لأطفالها وهنــاك تجــد أن المسئولين عن الاغاثة لا ينظرون لزوجها نظرة فيها أى عطف أو احترام ، ثم يعود توم أخيرا لكن جميع من فى قدرتهم مساعدته يعتبرونه « شخصا لا قيمة له » و « انسانا مثيرا للمتاعب » ، ويصبح مصيره فى المستقبل غامضا ، ولا يستطيع أن يجد لقمة عيش إلا ببعض مساعدات من هنا أو هناك أو بالعمل أحيانا عندما يشتد الطلب على الأيدى العاملة ، وكان لكاتب هذه الســطور فرصة المشاركة المتواضعة فى استضافة كثير من هؤلاء واستمع طوال الليل اليهم وهــم يروون القصة القديمة ، لكنهم وهم مضروبين ومنهكين وفقراء لم يفقدوا شجاعتهم ولو أن قوتهم قد ذهبت ثم يخيم عليهم يأس قاتل من تحسن الأحوال ومجىء أيام أحسن فيسوقهم هذا اليأس أقرب فأقرب الى قبورهم ، وهاجر بعض هؤلاء بعد أن أصابهم الدمار ٠٠ وهناك فى الأراضى البعيدة ، فى مستنقعات المسيسيبى وأكواخ بنديجو وأراضى كاليفورنيا يسترجعون ذكريات الأيام الخالية بما فيها من صراعات لا ثمرة لها ، تلك الصراعات التى أخرجتهم مفلسين وثقال القلوب من مصانع ومناجم أوطانهم الاولى ، ويهبط عليهم فى الارض الجديدة التى يسكنونها الآن حلم غريب وتبتعد أذهانهم عن غابات الصنوبر والنيران الليلية والمسدسات ، لتتجه الى قراهم القديمــة والبلدان المختنقة بالدخان والرتابة الملوثة بالسناج التى قضوا فيها حياتهم المبكرة ، وانقلب بعض أعضاء الوفود العمالية التى تحدثنا عنها الى أصحاب حوانيت صغار أو صحفيين صغار ، وأنشأوا لأنفســهم مستعينين ببضعة شلنات من جيرانهم أو بمدخراتهم الخاصة الضئيلة مشروعات صغيرة تنمــو إن كانوا محظوظين ، وعندئذ ينسبون كل حظهم الحسن الى ذلك اليوم الذى كلفهــم فقــد أعمالهم ٠

الفصل الثانى

تشكيل وفد لمفاوضة أصحاب العمل
مناقشات كبرى فى برلمان نساجى الفانيلا

APPOINTMENT OF A DEPUTATION TO THE MASTERS. — GREAT DEBATE IN THE FLANNEL WEAVERS' PARLIAMENT

كل ما تقدم سيعين القارىء على فهم الآمال والمخاوف التى تعتمل فى لجنـة نساجى الفانيلا فى روتشديل عنـدما عينت وفدها لمفاوضة أصحاب الأعمال ، فمـا أن قيل : « من سيذهب » ؟ حتى صمتت شفاه أعلى الخطباء صوتا ، وخمدت توا الصيحات التى تقول « لن نستسلم أبدا » . « سـنرى ما اذا كان أرباب العمل سيسيرون فى طريقهم الى الأبد » وغيرها وغيرها ، فمنذ خمس دقائق فقط كان الجميع متحمسين وظاهرين ومتقدمين .. أما الآن فقـد تقهقر الجميع ولا أحـد الى الأمام ، تماما كما فى القصة القديمة حين اتفق الفئران على تعليق الجرس فى رقبة القط ولكن من الذى سيعلق الجرس؟ ووجد برلمان الفئران بحكمتـه الجماعية أن هذا السؤال مثير لأشد الحيرة ، **هل رأى القارىء اجتماعا سياسيا شعبيا تناقش فيه مسألة كبرى من مسائل القوة الحزبية ؟ وكيف تتسم الخطب بلهجة التحدى ؟ وإلى أى مدى من الكفاح يذهب الحماس ؟ عندئذ تبـدو الوطنية وقد شمرت عن سواعدها ، .. وتخال الوطن وكأنه سينقذ هذه الليلة ، وفجأة يقـوم شخص عملى رأى مثل هـذه المواقف كثيرا من قبل ليقول أن خلاص الوطن يتطلب شيئا قليلا من الاشتراك بالمال ويقترح أن تـدار على الحاضرين قائمة التبرعات ، وعندئذ يهبـط السكون المطبق ، سكون لا يمكن أن يحدثه هجوم الشرطة فجأة أو اطـلاق سجانى شلسى لأسلحتهم ، وعندئذ أيضـا تحدث المعجزة ويصبح الجميـع راضين عن الأحوال كما هى فلا لزوم لهذه الخطوة الصغيرة ، ويحدث مثـل ذلك الأثر أحيانا فى لجنة العمال عندما يمتحن المجتمعون بالسؤال الخالد : « من سيذهب فى وفد المفاوضة ؟ »** يعلم العمال أنهم لن يفصـلوا مباشرة من أعمالهم لكن مصيرهم قد انتهى بطريقة غير مباشرة فأول خطأ يرتكبه أحدهم وأول إهمـال غير مقصود فى العمـل يؤخـذ حجة للفصل ، وتتكرر حالة الأسقف فى قصة « جيل بلاس Gil Blas » الذى فصل ناقده لا بسـبب حماسته وإخلاصه بل ان قداسته كان يقدره لهذا السبب كما يدعى لكنـه قال انه يفضل شابا له حاسة حكم أفضل ، وهكذا فان صاحب العمل لا يعترض على محاولة العامل تحسين أحواله بل يصفق له لكنه فقط يناقش الوسيلة التى يتبعها فى تحقيق المحاولة ، ولابد أن القارىء قد فهم لماذا توقفت لجنتنا هذه عندما أريد من فرد منها تعليق الجرس فى رقبة القط ، والواقع أن بعض

أصحاب الأعمال ـ بل كثير منهم ـ لا يقلون تضحية ولا إنصافا عن العمال وكثيرا ما يتحملون مخاطر وخسائر للاحتفاظ بعمالهم فى العمل وهى مخاطر وخسائر قد لا يدرى بها هؤلاء العمال ، وقد لا يقدرونها لو علموا بها ، **ومن ناحية أخرى فكثير من النقابيين جاهلون وغير منصفين وحاقدون ، فمن الخطأ اتهام كل أصحاب الأعمال كما هو من الخطأ أيضا امتداح كل العمال، لكننا نجد فى المحصلة النهائية أن العمال يعانون أسوأ ما فى الأمر ، فهم يسيئون الى أنفسهم والى أصحاب العمل بقلة معلوماتهم ، فاذا لم يشكلوا النقابات فلن ينقذوا أجورهم واذا شكلوها فلن يستطيعوا إنقاذ أنفسهم فالصناعة فى انجلترا آلة قاطعة والرجل الفقير دائما تحت حد السكين .**

Many Trades Unionists are ignorant, inconsiderate, and perversely antagonistic. It would be equally false to condemn all masters as to praise all men. But after all allowances are made, the men have the worst of it. They make things bad for themselves and for their masters by their want of knowledge. If they do not form some kind of Trades' Union they cannot save their wages, and if they do form Unions they cannot save themselves. Industry in England is a chopping machine, and the poor man is always under the knife.

وسنقص الآن كيف استطاع نساجو الفانيلا فى روتشديل ، الذين نؤرخ لهم ، كيف استطاع هؤلاء النساجين أن يخلصوا أنفسهم نوعا ما ؟

كانت اللجنة النقابية مشكلة ككل اللجان المشابهة ـ من رجال قلائل على جرأة وجسارة ، وعينت اللجنة وفدا للمفاوضات بدأ مهمته ، ووافق كثير من أصحاب المصانع على رغبات دفع الاجور مقدما المطلوبة ، لكن آخرين بدلا من الموافقة أوقفوا العمل فى المصانع ، ووجهت هذه المقاومة ضربة مميتة للمشروع زادها أثرا تهور النساجين أنفسهم الذين لم يدركوا أنهم لا يستطيعون ممارسة رأس المال بلا رأسمال ، **والمخرج الوحيد فى مثل هذه الظروف أن يستخدم الإنسان عقله ، لكن ما لم يكن هذا العقل نافعا لشىء ما وواسع الادراك والعلم وجيد التنظيم فالفرصة عندئذ ضئيلة ، ولم يستخدم النساجون عقولهم بل عاطفتهم فالكراهية أيسر من التفكير ، وصنع العمال ما يتقنون صنعه فقرروا الانتقام وتركوا المصانع بأعداد أكبر مما فى وسع زملائهم الذين بقوا فى العمل أن يعولوهم ، وقد نصح**

من هم أقل غضبا وأكثر حكمة بالتانى والحذر ، لكن بين العمال أغلبية ترى الاعتدال خيانة ، وهكذا فشل النساجون فى ذلك الوقت ونجح أصحاب الأعمال لا لأنهم على حق لكن لأن العمال على تهور وحماقة ٠

وفى تلك الفترة لجأ النساجون الى آراء مستر روبرت أوين التى لقيت رواجا وتأييدا فى روتشديل ، واذا كان لأنصار الاشتراكية أخطاء فان لهم على الأقل حسنة واحدة هى أنهم علموا العمال التعقل وتقديم الحجة وأوضحوا لهم أن التجارة نظام وأن أصحاب الأعمال عبيد لهذا النظام شأنهم شأن العمال على السواء ، وهذه خدمة أداها الاشتراكيون لأصحاب العمل ، قد تكون قيود أصحاب العمل من فضة بينما قيود العمال من نحاس، لكن أصحاب العمل لا يمكنهم دائما أن يفعلوا ما يريدون فهم كالعمال تماما فى هذا الشأن ، ولو أصبح العمال غدا أصحاب عمل لوجدوا أنفسهم يتصرفون تماما كما يتصرف أصحاب العمل اليوم ، فالظروف تغير الأحوالكما يقولون ويعمل المصلحون الاجتماعيون لذلك على تغيير الظروف كى تتحسن الأحوال ، وقد تكون فائدة نظام التحسين الذى يتبعونه موضع تساؤل ، لكن اشتراكية هذا الزمان كانت العلاقة على اتجاه الحركة العمالية الى التحليل المنطقى(١) ، ولا شك أن الحكمة التى كان ابنزر اليوت Ebnezer Elliott يكررها لكاتب هذه السطور انما تشير الى مبادىء لم توجد أبدا فى انجلترا :

« ما هو الشيوعى ؟ هو الذى يصبو
الى قسمة متساوية للكسب غير المتساوى
فالكسول والذى لا يحسن عمله
يضيع البنس الذى لديه ويأخذ الشلن الذى معك ٠

---

(١) شكا الميثاقيون دائما بأن أنشط رجالهم تحولوا عنهم الى منطق المصلحين الاجتماعيين الجديد ٠ والواقع ان بعض المصلحين الاجتماعيين لم يثقوا بالاصلاح السياسى الذى ينادى به الميثاقيون من أجل الاصلاح الاجتماعى لكن كان لمبدأ الظروف أثر معنوى على الجوع فقد علمهم أن يرثوا لحال معارضيهم الذين لولا تأثير هذا المبدأ لطالبوا بأعناقهم ، ويقر كولردج Coleridge (الصديق ص ٢٦٣ مجلد ٢) لهذا المبدأ بالتأثير على نفسه عندما يثيرها شعور بالاهانة ، وعندما لفت أسقف اكستر الانتباه الى الشر الذى رآه فى « مبدأ الظروف Doctrine of Circumstances » لانه يضعف الجهد المعنوى أحيانا فقد أغفل أنه يقلل دائما من الكراهية وهى حقيقة ذات أهمية سياسية كبرى فى بلد يعرف بالتنافس الطبقى الحاد حيث يزداد الفقير فقرا والغنى غنى الا حيث يتدخل البر والاحسان ليصلح قليلا من عدم المساواة ٠

"What is a Communist ? One who hath yearnings
For equal division of unequal earnings ;
Idler or bungler, or both he is willing
To fork out his penny, and pocket your shilling."

لكن الطبقة العاملة الانجليزية لا تتصف بالكسل ولا تصبح خطرة الا عندما لا تجد ما تعمله وصيحتها الثورية دائما هى « مزيدا من العمل » ولا تطالب الخبز بقدر ما تطالب بفرصة العمل ولم يتصف الشيوعيون الانجليز أبدا بالكسل ولا بعدم اتقان العمل ، وعندما أثار أسقف اكستر Exter ضجة فى البرلمان عام ١٨٤٠وقدم اقتراحا بقمع الاشتراكية أرسل استفسارا الى سلطات الشرطة فى المدن الرئيسية للسؤال عن أخلاق معتنقى هذا المبدأ (وهم الذين شيدوا فى مانشستر قاعة العلوم وهى المكتبة الحرة الآن بتكلفة قدرها ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ جنيه) فجاء الرد أن هؤلاء الأشخاص من أمهر أعضاء الطبقة العاملة وأحسنهم خلقا وسلوكا وذكاء ، **وأرسل سير تشارلز شو Sir Charles Show إلى المعهد الاشتراكى بمانشستر يطلب شخصا ليأتى اليه كى يقوم ببعض استفسارات خاصة باجراءات معينة ذهب اليه مستر لويد جونز Loyd Jones وقال سير تشارلز شو أنه عندما تولى منصب مدير الشرطة فى تلك المنطقة أصدر أوامره بأن تسجل الهوية الدينية لكل فرد يؤخذ الى مركز الشرطة فوجد المقبوض عليهم من كل الفئات الدينية ولكن ليس بينهم اشتراكى أبدا ، وقال سير تشارلز شو أيضا أنه اعتاد شراء جميع مطبوعات ومنشورات الجمعية واقتنع بأنه لولا تأثيرها على أذهان الجماهير تأثيرا عظيما لكانت الانتفاضات التى حدثت فى ذلك الوقت عندما أريد الأخذ « بالعطلة العامة » أسوأ ما وقع فعلا ، وكان على استعداد للشهادة بذلك أمام الحكومة لو طلبت منه ذلك ٠**

ولم يكن أتباع مستر أوين من الكسالى بل من انصار البر والخير ، قد يكونون من الحالمين لكنهم ليسوا أبدا أوغادا ، وقد احتجوا على المنافسة لانها تؤدى الى الفساد ، لكن معارضتهم بنيت على أساس نظرى ، ولم يكن بينهم من يخاف المنافسة فقد برز من صفوف اشتراكيي عام ١٨٤٠ أفضل المهاجرين ذوى الذكاء والحيلة ، وأحسن رجال الاعمال الذين نشأوا من الطبقة العاملة وأفضلهم روحا ، وهم يلمعون فى أرجاء العالم الآن ٠

وما تاريخ رواد روتشـــديل سوى دليل آخـــر على أنهم لم يكونوا ممن لا يحسنون العمل ،فلم تخرج أية حركة شـــعبية فى انجلترا من الرجال القادرين على رعاية أنفسهم بقدر ما أخرجت حركة الاصلاح الاجتماعى ، وتشهد صفحات جريدة « العالم الاخلاقى الجديد » New Moral World وجريدة « نجمة الشمال » Northern Star شهادة صدق على أن المصلحين الاجتماعيين عارضوا « الاضرابات » على اعتبار أنها طريقة غير ناجحة وفيها هوس وتهور وينقصها بعد النظر والحساب الدقيق واللبـــاقة وفيها مضيعة للاموال وعندما يؤدى الاضراب ، كما هو الحال دائما ، الى أن يعمد العمال الى منع زملائهم الذين يريدون العمل عن أن يفعلوا ذلك فإنه يصبح مما لا يمكن الدفاع عنه الا لأن أصحاب الأعمال يفعلون نفس الشىء ازاء العمـــال النقابيين ٠

ولما ساد الشعور العام بأن أصـحاب الاعمال عندما رفضوا مطالب العمال لم يراعوا العدالة فقد قرر العمال أن يصلوا الى مطالبهم بطريقـة أخرى ، فكانوا كما قال امرسون Emerson « انجليز بدرجة كافية تمنعهم من أن يفكروا فى الاستسلام "English enough never to think of giving up" ولجأوا عندئذ الى فكرة الاشتراك الأسبوعى ببنسين تلك التعويذة الناجعه التى لا مفر منها والتى تظن روتشديل أنها سوف تنقذ بها العالم ٠ فقـرر العمال العودة الى نظام هذا الاشتراك الاسبوعى ليبدأوا الانتاج ويصبحوا سادة أنفسهم ونظـرا لقلة عددهم فقد رأوا أن هذا الاشتراك الضئيل لن يكون له وزن فى حسابهم المصرفى ويستلزم وقتا طويلا كى يتراكم ، وأخذ اليأس يتطرق الى بعض أعضاء اللجنة ، واقترح البعض تقسيم المبلغ الصغير الذى جمع فعلا ٠

واعتاد العمال أن يجتمعوا للمناقشـــة بعد ظهر يوم الاحد فى قاعة المطالعة التابعة للميثاقيين أو قاعة منع المسكرات ، والى هذه الساحة حمل بعض أعضاء لجنة النساجين قلقهم ومشروعاتهم وطرح الموضوع رسميا فى صيغة سؤال هو « ما هى أفضل الوسائل لتحسين أحوال الناس ؟ » ويتطلب تفصيل وصف مناقشات برج بابل هذا وقتا طويلا ، وطرح كل خطيب ــ كما فى الاجتماعات المعتـــادة ــ رأيه الخاص الذى لا يخيب لتحرير وخلاص الجنس البشرى ، وقال الأخلاقيون ان أحسن ما يتبع هو الامتناع بالكلية عن

كل أنواع المشروبات المسكرة وتخصيص كل الكسب لاعالة الاسرة وهـذا حسن لكنه يفترض أن كل شىء فى عالم الصناعة فى موضـعه الصحيح ، ولا ينقص العامل الا أن يظل فى كامل وعيه كى يصبح غنيـــا ذا ثروة ، ويفترض أن فرص العمل وافرة والاجور كافية ، ويفترض أن أصحاب الاعمال فى مجموعهم منصفون وواعون لمصـالح العمال ، ولكن للأسف كل هــذه الافتراضات أصطدمت بواقع تجربتهم جميعا وهكذا فشل المشروع الاخلاقى٠

ثم قال الميثاقيون أن الشىء الوحيد الصــادق الذى يجب محاولتـه والوحيد الذى ينتظر له النجاح هو مواصلة المطالبة والاثارة حتى ينال الناس ميثاق الشعب ، فما أن يحصل الشعب على حق الانتخاب العام حتى يصبح الشعب المشرع لنفســه وبالتالى يستطيع أن يزيل المظالم كيف شـــاء ، وكان هذا فى الواقع مشروعا آخر مرغوبا لكن بولغ فى أثره كثيرا اذ يعنى ايقاف كل مطالب أخرى ريثما يتحقق ، ويفترض أن سـعادة الشعب يمكن نوالها بالتصويت حسب الاختيار وأن التدابير البرلمانية هى المسيطرة الوحيدة على هذه السعادة ، لكن التقدم الاجتماعى لا يمكن أبدا أن يكون ابتكارا من ابتكارات مجلس العموم ، ولا يستطيع أى برلمان ولو كان مشكلا من الميثاقيين أن يمحوا المظالم كيف شاء ، غير أنه ما دام الميثاقيون يعانون ككل الطبقات الأخرى فلا بد أن يمنحوا فرصة متساوية ليحاولوا الاصلاح عن طريق الانقاذ البرلمانى ، **واعتبرت اللجنة مشروع المطالبة بالانتخاب العـام مقبولا جدا وربمـا كانت تميل الى الأخذ به لولا أن الاشتراكيين قالوا أن يوم الخلاص سيكون بعيدا جدا اذا انتظر العمال حتى يعتنق الناس كلهم هذا المبدأ وعندئذ تمضى الحكومة فى سبيل اصدار الميثاق ، واقترحوا أن يتعاون النساجون ويستخدموا ما فى أيديهم من وســائل لتحسين أحوالهم ولهم أن يواصلوا تمسكهم بمبادىء الاستقامة ومبادىء الميثاق ٠**

وأخيرا قررت لجنة نساجى الفانيلا أن تتبع نصيحة أنصار التعاون ، وظهرت أسماء جون ديلى ، وتشارلز هوارت ، وجيمس سمينيز ، وجـون هيل ، وجون بنت الذين ساعدوا اللجنة فى اتخاذ هـذا القرار ، وعقـــدت اجتماعات واتفق على خطط انشاء مخزن تعاونى للمواد الغذائية ، وبعيدا عن أى رغبة فى التهرب من المسئولية كمؤيدين للحركة العمالية فى البرلمان واشباعا للرغبة فى أن يكونوا معترفا بهم قانونا ولهم مركز قانونى سليم قرر هؤلاء

التعاونيون السياسيون الاشتراكيون الأخلاقيون انشاء جمعية طبقا للقوانين التى أصـــدرها البرلمان (العاشر جورج الرابع ، جـ ٥٦ والرابع والخامس وليم الرابع جـ ٤٠) .

وفيما يلى النص باللغة الانجليزية :

In the end it came about that the Flannel Weavers' Committee took the advice of the advocates of co-operation. James Daly, Charles Howarth, James Smithies, John Hill, and John Bent, appear to be the names of those who in this way assisted the committee. Meetings were held, and plans for a Co-operative Provision Store were determined upon. So far from there being any desire to evade responsibility, as working class commentators in Parliament usually assume, these communistic-teetotal-political co-operators coveted from the first a legal position; they determined that the society should be enrolled under Acts of Parliament (10th Geo. IV., c. 56, and 4th and 5th William IV., c. 40).





الفصل الثالث

غلمـــان تغيير البوبينات (الدوفرز) يظهرون
الشــراء الأخـــلاقى والبيـــع الأخـــلاقى

THE DOFFERS APPEAR AT THE OPENING DAY. — MORAL BUYING AS WELL AS MORAL SELLING



ثم قرر النساجون أن تتعامل الجمعية على أساس ما سموه « مبـــدأ التعامل نقـدا ready money principle ، وقد يقال أن الاشتراك الأسبوعي وقدره بنسان لا يسمح بمنح أى ائتمان ، لكن الحقيقة أن هذا القرار اتخــذ لأسباب أخلاقية ، فهم بحكم تعاليمهم الاشتراكية ، يعتبرون الائتمان مرضـا اجتماعيا وعلامة على أمراض القلق والاثارة والتدليس الناشئة عن المنافسة وتعلموا كمصلحين اجتماعيين الايمان بأن من مصلحة المجتمع الغاء الائتمان أو التعامل بالأجل وأن فى هذا الالغاء تبسـيط للمعاملات التجارية واقتراب بهـا الى الشرف والأمانة ، فمعارضتهم للائتمان معارضة مبدأ وأساس (١)، ومهمـا يقال عن فائـدة وضرورة الائتمان للتجارة عامة فهو أداة مميتـه بالنسبة لهم ، فقد يعارض بعضهم اداء القسم to take an oath وقد يرفض القاضى توجيه القسم وبـذلك يصبحون تحت رحمـة بعض غير ذوى الشرف والأمانة الذين يأتون لينهبوهم كما يحدث كل يوم الآن عندما يتوقف ثبـــوت الدين على أداء القسم (٢) ، كما أن بعضهم لا يحب التقاضى وقد يفضل أن يخسر مالا عن أن يتخذ لتحصيله الاجراءات القانونية ، ولذا فانهم يتخذون سبيل الحكمة ويحصنون أنفسهم بمعارضة الائتمان وهو قرار لا يرجعـون عنه أبـدا ٠

وأخذوا من قوانين جمعيات المرض ودفن المـوتى النواحى التى تنطبق على جمعيتهم وأدخلوا التعديلات والاضافات اللازمـة ، وأخيرا ســجلت

---

(١) فى مكتبتهم الآن كتاب قيم لم يكن موجودا عندئذ يعلمهم التفرقة بين الاقتصاد السياسى الاخلاقى والآراء المسبقة ويقول المؤلف : « أود من صميم قلبى أن تعتبر ديون أى محل تجارى ملغاة بعد تاريخ معين والنتيجة أن أى انسان لا يمكنه أن يطلب ائتمانا الا اذا كان معروفا جيدا وبمبالغ ضئيلة فقط ، ويجب أن تحـدد الأسعار على أسـاس البيع نقدا ، وتخفض على هذا الأساس ، ويجب إلغـاء هذا النظام غير الشريف الذى يسمح للمدينين من الطبقات الراقية بتأخير السداد هذا اذا سددوا ديونهم على الاطلاق وعندئذ ، يتحمل الزبائن الآخرون عنهم هذه الديون فى شكل زيادة فى الأسعار والاعباء ، ونتيجة هذا الالغاء أن يتخلص أصحاب الحوانيت من القلق الذى يدمر سعادة الألوف « محاضرات فى الاقتصاد السياسى ـ بروفيسور نيومان Professor Newman ص ٢٥٥ ٠

(٢) المرجع السابق ٠

الجمعية يوم ٢٤ أكتوبر ١٨٤٤ باسم جمعية روتشديل للرواد العدول Rochdale Society of Equitable Pioneers وإذا كان نجاحهم فيما بعد عظيما فقد كان حلمهم الأول أعظم جـــدا فقد كانوا يحلمون فى الواقع باعــادة صنع العالم(١) ، وحدد الرواد أهدافهم فى هذه العبارات والتزمت بها الجمعية ، وكرروا نفس العبارات فى الاعلام عن ما حققته الجمعية لعام ١٨٥٤ ، وفيما يلى اعلان الرواد لآرائهم عام ١٨٤٤ ٠

« اغراض وخطط هذه الجمعية هى وضع اجراءات للنفع المالى ولتحسين الأحوال الاجتماعية والمنزلية لأعضائها بتجميع قدر كاف من رأس المال بأسهم قيمة كل منها جنيه واحد لتنفيذ الخطط والترتيبات التالية :

- **إقامة حانوت لبيع المواد الغذائية وغيرها ٠**
- **بناء أو شراء أو اقامة عـدد من المنازل يقيم بهـا الأعضاء الراغبين فى مساعدة كل منهـم الآخـر فى تحسـين أحوالهـم الاجتماعيـة والمعيشية ٠**
- **البـدء فى صنع السلع التى تقررها الجمعية لتشغيل الأعضـاء الذين لا عمل لهـم أو الذين يعـانون من جـراء التخفيض المتكرر لأجورهم ٠**
- **كنفع آخر وضمان لأعضاء هـذه الجمعية تشترى الجمعية أو تؤجر أرضا أو أراضى ليزرعها الأعضاء الذين بلا عمل أو الذين يدر عملهم دخـلا ضئيلا ٠**

These Pioneers, in 1844, declared the views of their Association thus :

"The objects and plans of this Society are to form arrangements for the pecuniary benefit and the improvement of the social and domestic condition of its members, by raising a suf-

---

(١) كانت الطبقة العاملة فى تلك الأيام تغار كثيرا ممن هم فى السلطة عليهم الى حد لا يصدق وفى فبراير ١٨٤٩ قرر التعاونيون ادراج شرط فى عقد ايجار مبنى يقول أن عقد الايجار لا يمكن ابطاله بناء على حكم يصدر ضدهم باقلاق الراحة ، ولهم الحق فى ذلك لأن أعدائهم يمكنهم اقامة دعوى عليهم لهذا السبب رقد يصدر القضاة حكما ضدهم اذ لا يجدون لديهم أى دفاع قانونى ، وقد حدث مثل ذلك كثيرا فى مواقع أخرى٠

ficient amount of capital in shares of one pound each, to bring into operation the following plans and arrangements :

"The establishment of a Store for the sale of provisions, clothing, etc.

"The building, purchasing or erecting a number of houses, in which those members, desiring to assist each other in improving their domestic and social condition, may reside.

"To commence the manufacture of such articles as the Society may determine upon, for the employment of such members as may be without employment, or who may be suffering in consequence of repeated reductions in their wages.

"As a further benefit and security to the members of this Society, the Society shall purchase or rent an *estate or estates of land*, which shall be cultivated by the members who may be out of employment, or whose labour may be badly remunerated."

ثم يأتى مشروع لم تحاوله أى أمة أبدا ولم ينفذه أى متحمس من قبل :

« تبدأ الجمعية فى أقرب ما يمكنها تنظيم قوى الإنتاج والتوزيع والتعليم والإدارة ، وبعبارة أخرى إنشاء مستعمرة تعتمد على نفسها من المصالح المتحدة أو مساعدة الجمعيات الأخرى فى انشاء مثل هذه المستعمرات » .

"That, as soon as practicable, this Society shall proceed *to arrange the powers of production, distribution, education, and government* ; or, in other words, to establish a self-supporting home-colony of united interests, or assist other societies in establishing such colonies"

هنا دستور عظيم لاعادة تنظيم قوى الانتاج والتوزيع ، وهى عملية استغرقت ١٥ سنة من العمل الشاق الدؤوب كى تتقدم الى نصف الطريق .

ويأتى بعد ذلك عبارة صغيرة لكنها ذات دلالة كبيرة :

« من أجل نشر الاستقامه يفتح نزل لمكافحة المسكرات فى أحد بيوت الجمعية بأقرب فرصة ممكنة » .

"That, for the promotion of sobriety, a Temperance Hotel be opened in one of the Society's houses as soon as convenient".

وإذا كان لأى من هذه المشروعات العظيمة أن تنفذ قبل منع المسكرات العـام أو الميثاق العام ، فمن الواضح أن بعض النشاط يجب أن يحدث فى جمع اشتراكات البنسين ، لأن كل الصعوبات التى تعانى منها حركات الطبقة العاملة ترجع الى متاعب جمع المال ، وكان عدد أعضاء « جمعية الـــرواد العدول » فى ذلك الوقت أربعين مشتركا يعيشون فى مختلف أنحاء البــلدة ويعيش كثيرا منهم فى الضواحى ، ولابد لمن يجمع الاشتراكات أن يســافر نحو ٢٠ ميلا ، ولا يتسنى لأحد أن يقوم بهذا العمل الا إن كان فى مثل إخلاص القديسين ، وتلك هى العقبة دائما فى سبيل اشتراكات الطبقة العاملة ، وحتى لو كان وقت الإنســـان لا يســاوى شـيئا على الاطلاق فربما يفضل مع ذلك أن يدفع الاشتراكات من ماله الخاص عن أن يجمعهــا من المشتركين ، لكن لا سبيل آخـر غير هذا ، وبرغم المشــاق الشـديدة اضطلع بعض النــاس بهـذا الواجب وأدوا ما التزموا به وهو أمر يحسب لهـــم ويشرفهم (١) ، وعينت الجمعية ثلاثة محصلين يذهبون الى الأعضاء فى محـل اقامتهم كل يوم أحـد ، وقسمت البـلدة الى ثلاث مناطق ولتعجيل العملية وضع ترتيب يعتبر تجديدا ولابد أنه أثار اهتماما عظيما فى تـلك الآيام ، يقضى هـــذا الترتيب بأن يزيد الاشتراك الى ٣ بنســـات بدلا من بنسين ، ويبـــدو أن التعاونيين صاروا أكثر طموحا ، وأخيرا تم جمع مبلغ خطير هو ٢٨ جنيها ، وبهذا الرأسمال بـدأ العالم الجديد المنشور .

وكان تودلين Toad Lane فى روتشديل منذ ١٥ عاما شارعا لا يرحب به الناس كثيرا ، بل ان اسمه لا يزيده الا نفورا ، واختير الطابق الأرضى من مستودع فى هذا الشارع لتبدأ الجمعية فيه عملها ، وحصلت الجمعية على هـذا الطابق فى مبنى مستر دنلوب Mr. Dunlop مقابل ١٠ جنيهات سنويا

---

(١) السياسة التنفيذية فى الديموقراطيات تعانى كثيرا على يد الناس ، فقد يضيع الوقت والجهد بشكل خطير فتظل مجموعة من ١٣ عاملا فى جدال طول نصف مساء ليقرروا هل ينفقون ٩ بنسات أم ١٣ بنسا على شراء مكنسة ، فما ينبغى اضاعة المال على المكانس ولا اضاعة الجهد فى مراجعة المصروفات النثرية لكننا نجد فى محاضر جمعية روتشديل تتضمن مثل : « تقرر أن ينال الطرفان اللذان يحضران للبنك فى عمل مبلغ ٦ بنسات لكل منها والطرف الثالث بنسين » (١٠ يونيو ١٨٥٠) « تقرر أن يصرف للعاملين فى الحانوت مريلة وأكمام مقابل ما قد يحصلان من عملة زائفة » وهذا تعويض اقتصادى عجيب « تقرر فتح هواية فى مؤخرة المخزن » ولا شك أن إصدار مثل هذه القرارات استغرق وقتا فى المناقشة والقاء الكلمات .

يعقد لمدة ثلاث سنوات ، وعين مستر وليم كوبر William Cooper « صرافا » وكان عمله خفيفا فى البداية ، وعين صمويل آشورث Samuel Ashworth « بائعـا » ، وكانت السلع عبارة عن كميـات صغيرة من الدقيـق والزبـد والسكر والقرطم(١) ، ولا تكاد الكميات كلها تملأ حانوت بقال صغير لأن ما بقى بعد شراء وتركيب الأرفف وغيرها ١٤ أو ١٥ جنيها هى التى استثمرت فى البضائع . وفى مساء مشهور كان أطول مساء فى العالم وهو ٢١ديسمبر ١٨٤٤ بدأ « الرواد العدول » العمل ، وينظر القليلون الذين يذكرون تلك البداية الى نجاحهم الحالى بابتسامة حين تخطر بأذهانهم ذكرى ذلك اليوم المجيد ، فقد سرى بين التجـار مسرى النـار نبأ دخول منافس لهم فى السوق واتجهت العيون المتسائلة صوب تودلين تنتظر ظهور العـدو ، لكن هذا العـدو شأنه شأن الأعداء ذوى الشـهرة التاريخية كان يخشى الظهـــور أو يظهر على استحياء ، واجتمع نفر قليل من التعاونيين فى خفاء ليشهدوا بدايتهم ووقفوا فى الغرفة السفلية الكئيبة ـ كما وقف المتآمرون تحت قيـادة جاى فوكيس Guy Fawkes فى الغرف السـفلى بالبرلمان ، يتجادلون فيمن يقـع عليـه مجازفة ازالة الستار لتبدو نتيجة عملهم المتواضعة للناس ، فواحد منهـم لا يريد أن يصنع تلك المجازفة وآخر لا يريد أن يراه النـاس فى الحـــانوت عندما تفتح الأبواب ، لكن ماداموا قد ساروا هذه المسافة فلا مناص من تكملة المسيرة ، وأخيرا برز جرىء منهم جريا فى شجاعة ومخاطرة ففتح البـاب فى دقائق قليلة ضج شارع تودلين بالضحك المكتوم ، ولانكشاير Lancashire كباريس Paris لهـــا مهرجوها بل لكل المدن مهرجـوها المميزون الذين ينشدون فيها شعورا بما هو غريب ويدعو للسخرية و « الدوفرز doffers » هم مهرجو روتشديل و « الدوفرز » غلمـــان يتراوح عمرهم بين ١٠ و ١٥ سنة مهمتهم أخذ البوبينات المملوءة من الأنوال ووضع بوبينات فارغة مكانها، وهم من مستلزمات المصنع وضروراته كالبخار للآلة ، وعندما يغيبون لا يجد العمال ما يصنعونه وينطلقون يلعبون ، وكثيرا ما يحرضهم العمال اذا أرادوا الحصول على أجازة فيلوحون إليهم باشارات مفهومة بينهم كاشـــــارات الماسون ، وعندئذ يهرب هؤلاء الصغار ويظل العمال بلا عمل حتى يعـــود الهاربون ، وفى ليلة افتتاح الحانوت ظهر « الدوفرز » بأعداد كبيرة فى شارع تودلين ينظرون فى وقاحة مضحكة ويصرخون فى أركان الشارع معبرين عن

---

(١) هذه هى الأصناف المذكورة فى محضر ١٢ ديسمبر ١٨٤٤ .

رأيهم باعلى صـوت أو يتجمعون على باب الدكان يتفحصون بنظرات مهينة كميات البضائع الضئيلة ، وأخيرا اخذوا ينشدون معا « آه • أخيرا فتح دكان النساجين العجيب » •

ومنذ ذلك الحين اشترى جيلان من « الدوفرز » الزبـــدة والقرطم من « دكان النساجين العجيب » ، واشتروا كثيرا من الطعام الصحى الجيد وما أكثر الملابس الدافئة التى اشتروها منه ، وكل هـــذه البضائع لم تكن لتنزل الى بطونهم او تمس أجسامهم لولا حكمة النساجين التعاونيين وحسن تدبيرهم •

وادرك التعاونيون الناشئون سريعا أن أمامهم عقبات أكثر جســـامة وخطورة من سخرية « الدوفرز » ، فازاء صغر رأسمالهم اضطروا الى شراء السلع بكميات صغيرة وبأسعار وجودة ليست فى مصلحتهم ، كما أن بعضهم كانـوا مدينين للتجـار فلم يجـرأوا على التعـــامل مـع الجمعيـة ، ويحدث دائما فى مثل تلك الحركات المتواضعة أن بعض الأعضاء لا يدركون حكمة رعاية مصالحهم أو ينصرفون عن ذلك اذا كلفهم بعض المتاعب الضئيلة او استلزام بعض التضحيات ، وقد كانت الجـودة منخفضة قليلا أحيـــانا والأسعار مرتفعة قليلا احيانا اخرى ، وأدت هذه الاعتبارات رغم أنها مؤقتة وضئيلة بالقياس الى الهدف المنشود إلى انصراف البعض عن الشراء مع أن الحانوت فتح لمصلحتهم خاصة ، واذا ادرك الزوج واجبـــه فغالبا لا يستطيع اقناع زوجته بادراك ما يراه ، وما لم تقتنع الزوجة تمـاما وتهتم تمـــاما بمصلحة مثل تلك الحركة يظل نجاحها محدودا ، أما اذا تقبلت الزوجة متاعب قليلة وتضحية مؤقتة واشترت مرة أو أخرى سلعة لا توافق عليها تمـاما ، وتحملت بعض التضحية بأن تدفع ثمنا يزيد قليلا عما تباع به فى المحـــلات الأخرى فسوف تنجح المحلات التعاونية دون شك ، فالنوعية النقية ، والوزن المستوفى والمكيال الأمين والمعاملة العادلة والشراء بلا مماحكة والبيع بلا غش كلهـا مصادر ارتياح معنوى وجثمانى له نتائجه الصحيحة على الانســـان المدرك للأمور أكثر من الانخفاض الضئيل فى الأسعار فما أثقل ما نتحمله فى سبيل قمع الرذيلة التى نمت لكن ما أقل اقبالنا على تحمل القليل فى ســبيل منع الرذيلة من أن تنمو وتستشرى ، فاذا أردنا بائعين ذوى ضمير فيجب أن يوجد مشترون ذووا ضمير ، وليس من الحكمة التفرقة بين البائع والمشترى فنقول عن البائع أنه غشاش بينما لا نقول عن المشترى أنه خبيث جشـــع •

فهؤلاء التجار الذين يتوخون البيع دائما بأسعار أرخص من الغير لابـد أن يلتفتوا الى خطر انحرافهم عن الامانة والخضوع للفســـــاد ، والحانوت التعاونى أشـد الالتفات الى تحسين الصفة الأخلاقيـة للتجـارة بل أكثر من اجتناء الربح ، ولهـذا السبب اهتم المسئولون بتثقيف العـاملين والمشترين والارتفاع بهم الى درجة أعلى من الصفات الخلقية ، ولم يكن العاملون الأول على وعى بذلك ولذا فان التزامهم كان قليلا قلة معلوماتهم ، لكن قسما كبيرا منهم كانوا مخلصين وتعاونيين بحق ، فكان الرجال من ذوى العزم والنساء ليسوا أقل حماسا ورغبة ورضا ٠

وأحس العاملون فى الحانوتممن كانوا مخلصين لواجباتهم بشىء من نفـاذ الصبر لأنهم يريدون من زملائهم الآخرين أن ينسجوا على منوالهم ، وأرادوا من أعضـاء الجمعية أن يتعاملوا مع حانوتهم دون غيره فيشـتروا منـه ما يبيعـه ، بل اتجهوا الى اجبـار هؤلاء على ذلك ، وقدم جيمس دالى James Daly الذى كان سـكرتيرا للجمعية اقتراحا بقـرار يقضى بفصل الأعضـاء الذين لا يشـترون من حانوتها ، وعارض تشـارلز هوارث هـذا الاقتراح باعتبـار أنه ماس بحـرية الأعضاء وقال انـه يرغب فى تقـــدم التعاون وسيفعل كل ما يمكنه لنشره ، ولكن الحرية مبدأ من المبادىء التى يحبهـا ويؤيدها وهو لذلك لا يفرط فيهـا أبـدا بل يمكنه أن يفرط فى المزايـا الناشـئة عن التعاون فى سبيل التمسك بالحرية ، وهكذا سنرى أن التاريخ وهو يتقـدم يزيد معـه حب المبـادىء وهو حب لا يخبـوا أبـدا بل لا يمس وسـط هـؤلاء التعـاونيين ذوى التصميم وعلى ذلك سـحب جيمس دالى اقتراحـه ٠



الفصل الرابع

الجمعية تواجه اختبارا بصعوبتين معروفتين
التحامل والطائفيـــة

THE SOCIETY TRIED BY TWO WELL-KNOWN DIFFICULTIES — PREJUDICE AND SECTARIANISM



تقـرر فى مارس ١٨٤٥ أن تحصل الجمعية على ترخيص بيــع الشاى والطبـاق لربع السنة التـالى بأسم تشـارلز هوارث ، وواضح أن هـــذه الخطوة تستدعى استخدام المزيد من رأس المـال ، اذ بالرغم من تزايد عدد الأعضـاء لم يتزايد المـال بما يكفى لهـذا الغرض ، وأبلغ الأعضاء هـــذا الموقف فى الاجتماع العـام ، ولثانى مرة فى تاريخ روتشديل نسمع عن عضو يمتلك أكثر من بنســين ، فوعـد أحـد الأعضـاء بأن يجد نصف كراون ، وكانت العبارة المســتخدمة عندئذ « وعد بـأن يجــد » **Promised to find** فلم تكن « وعـد بأن يدفع أو يشترك أو يقرض » ، وربما تشير هذه العبارة الى الجهـد اللازم لتقديم مبلغ يزيـد على البنســين ، ووعـد عضو آخـر « بأن يجـد خمس شـلنات ثم وعـد آخـر « أن يجـد جنيهـــا » ، وتلقى المجتمعون هــذا التصريح الأخير بغير قليـل من الدهشة ونظروا الى الواعد الغنى الجرىء باحترام عظيم مضاعف بوصفه مليونيرا وشهيدا (١) ، ووعد أعضـاء آخرين بأن يجـدوا مبالغ مختلفة حسـب قدراتهـم ، وفى الوقت المناسب استطاع الازواج أن يشتروا الطباق واستطاعت الزوجات أن يشترين الشــاى ، وفى نهـاية عام ١٨٤٥ زاد عـدد الأعضـاء الى ثمانين وأصـبح رأس المـال ٣ بنس ١٢ شلن ١٨١ جنيه (٢) ، وكان الحانوت يدفع بـادىء الآمر فائدة ٥ر٢٪ على المـال المقترض ثم ارتفعت الى ٤٪ ، وبعد خصم هذه الفوائد والمصـاريف الادارية القليلة ، كان فائض الربح يقسم على الأعضاء

---

(١) اسم هذا البطل المالى وليم مالاليو **William Mallalieu** وكان فى خدمة عضو البرلمان جون فيلدن وانضـم الى الجمعية فى اجتماعها الخامس فى ١٢ سبتمبر ١٨٤٤ ، وقد يجد القراء الآن هذا مضحكا لكن الأمر كان جد ، ويتذكر كاتب هذه السطور مدى الاحترام والأهمية الذى تمتع به هذا العضو ، فلم يكن فى روتشديل من يستطيع ويرغب فى مساعدة هذه الحركة التعاونية المتواضعة غيره ، ولم يكن أحدا ينتظر أن يحدث بعد عشر سنوات أن يظهر فى سجلات الجمعية القرار التالى : « حضر ٠١ هيل و ت٠ سميثز اجتماع مجلس جمعية روتشديل لمطاحن القمح وأعلنا أن فى البنك ١٥٠٠ جنيه ملك للجمعية وهذا المبلغ الآن تحت تصرف الأعضاء » محضر جلسة ٨ مارس ١٨٥٥ ٠

(٢) لم تدفع الجمعية فوائد على أسهم رأس المال فى السنة الأولى وتركت جميع الأرباح لتتجمع لزيادة رأس المال ٠

بنسبة معاملاتهم ، واخـذ الأعضـاء يقدرون تلك الاضافة المرغوبة لدخلهـم وبـدلا من أن يظلوا مدينين للبقـال صـار الحانوت التعاونى بالنسبة اليهم بمثابة بنـك ادخار يدخر لهـم الأموال بلا مجهود يبذلونه ، وبلغ متوسـط الايرادات الأسبوعية مقابل بيـع البضائع فى ربع السنة المنتهى فى ديسمبر ١٨٤٥ نحـو ٣٠ جنيها ٠

قررت جمعيـة روتشـديل للرواد العدول المنعقـدة فى تودلين بأسقفية روتشـديل بمقاطعة لانكاستر **lancaster** « ضرورة جمـع رأسمال قدره ١٠٠٠ جك لإنشـاء المخزن ، ويجمع هـذا المبلغ بشكل أسهم قيمة الواحـد منها جنيـه واحـد وعلى كل عضو أن يشترى أربعة أسهم ولا أكثر منهـا وفى حالة ما إذا تطلب الأمر اكثر من ١٠٠٠ جك فبصح أن يملك العضـو خمسـة أسهم ، وفى بدايـة المخـزن سمح للعضـو بالحصول على أى عدد من الأسـهم لغـاية ٥١ سـهما ، لكن فرصـة شراء العضو لمثـل هذا العدد كانت قليـلة جـدا لعدم استطاعة ذلك ، لكن المسئولين امروا بشراء ٥١ سهما باقصى سرعـة ممكنة ، كما ان المسئولين كان لهـم حق إجبار أى عضـو يحمل أكثر من اربع أسهم على بيـع العـدد الزائد عن هذا الحـد بقيمتـه الأصلية وهى جنيه واحـد ، واذا فقـد العضو عمله وأصبح عاطلا يحـق له بيع أسـهمه الى مجلس الإدارة أو أى عضـو آخر أيهما يدفع له ثمنا اكبر ، وكل من يريد الانضمام الى عضـوية الجمعية عليه أن يحضر شخصيا ليـلة الانضمام الى قاعة الاجتماع ويعلن رغبتـه فى شراء أربعة أسهم قيمة كل منها جنيه واحـد ويدفع تأمينا لا يقل عن ثلاثـة بنسات لكل سهم أو شلن واحـد ثم يدفع مالا يقل عن ثلاثة بنسات أسبوعيا بعد ذلك ويترك كل الفوائد والارباح التى تستحق له لتبقى لدى الجمعيـة حتى يصبح المبلغ مسـاويا لأربعة أسهم من رأس المـال ٠

ويتعرض كل من يهمل سـداد الدفعات المستحقة عليـه لفرض غرامة الا اذا كان هـذا الاهمال بسبب المرض أو وقوع كارثة وضيق أو للتعطل ، وعندما يقـع العضو فريسـة ضائقة يسمح له ببيع جميع أسهمه الا واحدا ٠

وأدخلت على القواعـد الأولى للجمعية المطبوعة عام ١٨٤٤ تعديلات متعاقبة ، لكن كل أصول القواعد الحاليـة كانت موجودة فى تلك القواعـد

الأولى ، فيجب اقتراح ضم العضو رسميا وأن يعلن اسمه ومهنته ومحل اقامته للجميع ، ويصدق على اختياره فى اجتماع عام أما مسئولو الجمعية فيشكلون من الرئيس وأمين الصندوق والسكرتير وينتخب هؤلاء كل نصف سنة ، مع ثلاثة أمناء وخمسة أعضاء مجلس ادارة ، ومراجعو حسابات يختارون كالمعتاد ٠

ويجتمع المسئولون أى أصحاب المناصب وأعضاء مجلس الادارة مساء كل يوم خميس الساعة الثامنة فى قاعة اللجنة فى ويفرز آرمز Weaver's Arms بشارع يوركشاير ، وتأتى بعد ذلك كل الأحكام الثقيلة المعهودة فى الجمعيات المسجلة والخاصة بالرقابة على الأموال ، لكن الشىء الوحيد المنعش فى كل هذه القواعد والذى لا يؤلم عند القراءة هو النص على عقد اجتماع سنوى فى « أول سوق ثلاثاء » يقدم فيه عشاء مقابل شلن واحد احتفالا بالذكرى السنوية لافتتاح حانوت الجمعية ، وفى تلك المناسبة لابد أنه كانت تطلق الصيحات التى أطلقها « الدوفرز » عند الافتتاح الأول ، ولو أن كاتب هذه السطور ليست لديه تقارير يرجع اليها فى هذا الصدد ٠

ويبدو أن الاعضاء لم يواصلوا اقامة حفل العشاء السنوى اذ نجد أن السجلات تتحدث عن الاحتفال السنوى عام ١٨٤٧ وكأنه اتخذ شكل « حفل شاى » (١) دعى اليه على سبيل الدعاية فى روحها الحقيقية بعض التعاونيين القدامى ٠

وتقرر فتح الحانوت للجمهور العام (الذى يبدو أنه لم يأت أبدا فى تلك الأيام) فى مساء أيام الاثنين والسبت فقط ، وذلك من الساعة السابعة الى التاسعة يوم الاثنين ومن السادسة الى الحادية عشر يوم السبت ، وتوضح هذه الترتيبات أن النساجين الفقراء كانوا يشترون فى يومين فقط من كل أسبوع فى تلك الأيام ، وفرضت قوانين ١٨٤٤ سلسلة من الغرامات المخيفة ، وتظهر قيمة الأمناء وأعضاء مجلس الإدارة من مقادير الغرامات التى تفرض عليهم عند تخلفهم عن الحضور فقد كانت تلك الغرامة

---

(١) وجدت فى محضر ٦ أكتوبر ١٨٤٥ إشارة الى الشاى السنوى ، وتقرر فى ٧ اكتوبر ١٨٥٠ الامتناع عن تقديم عشاء أو شاى فى الاحتفال السنوى ويبدو أن الاحتفال أصبح بسيطا ٠

ستة بنســات ، وواضح أن الجمعية تتوقع أن تخسر نصف كراون فقط لــو هرب هؤلاء الخمســة جميعا ، لكن الواقع أنهم أثبتوا أنهم يستحقون فعــلا أكثر مما قدروا به أو ما قدروا به أنفسهم ، فبفضل إدارتهم زاد عدد الأعضاء سريعــا وتقرر فتح الحانوت أياما أخرى ولساعات أطول (٣ مارس ١٨٤٥) كمــا يلى :

الاثنين	من	٤	الى	٩	مساء
الأربعاء	من	٧	الى	٩	مساء
الخميس	من	٨	الى	١٠	مساء
الجمعة	من	٧	الى	٩	مساء
السبت	من	١	الى	١١	مساء

وتقرر فى ٢ فبراير ١٨٤٦ فتــح الحانوت بعد ظهر أيام السبت لاجتماع الأعضاء مما يدل على أن العمل فيه صار موضع أهتمام واحتاج الى عناية أكبر مما يستطيع النســـاجون تقديمها بعد انتهاء يوم عملهم الطويل ، وبدأ الحانوت فى أكتوبر من نفس العــــام بيع اللحـــوم ، وامتحن الحانوت فى السنوات الثلاث ٤٦ ــ ١٨٤٨ بالكســاد والضائقة العامة واليأس المنتشر بين الناس ولم ينضم الى الجمعية طوال عام ١٨٤٦ ســوى عــدد ضئيل جدا لكن رأســمال الجمعية زاد الى ٥ر١ بنس ٧ شلن ٢٥٢ جنيه ، وكان متوسط ايرادات بيــع البضائع ٣٤ جنيها أسبوعيا فى ربع السنة المنتهى بشـــــهر ديســمبر ٠

وقد رأينــا فيما سبق أنه يسمح للعضو الذى تلم به ضائقة أن يتصرف فى أســهمه بشرط أن يحتفظ بســهم واحــد ، ونتيجة لســوء الأحــوال عام ١٨٤٧ ســحب كثير من الأعضاء قيمــة بعض أسهمهم ، ولا أدل على ســلامة فكرة الجمعية والمزايا التى تقدمها من أنه فى أوقات ســوء الأحوال وغــلاء الســلع يزداد عــدد الأعضاء بسرعة ، وهــذا يعنى أن الناس تحس بســوء الحالة ويتلمســون أحسن الطــرق لاصلاح أحوالهم فيرون أن دفع شـــلن كرسم انضمام ثم ثلاثة بنســات أسبوعيا من قيمة أسهمهم بعد ذلك يمكنهم من الاستفادة من خدمات الحانوت ، كما أن هذا المال الذى يدفعونه هو فى حقيقة أمــره ادخار ، ولذلك يقبل الكثيرون على الاستفادة من شراء الســـلع من

الحانوت ، ويعنى ذلك أن الحانوت شجع عادة التوفير والحكمة فى الانفاق ووفـر على الأبرشية أموالهـا ، وأصبح عـدد أعضـاء الجمعية المسجلين فى سجلاتها ١١٠ عضوا فى نهـاية عام ١٨٤٧ وبلغ رأسمالها ٥ر٣ بنس ١٥ شلن ٢٨٦ جنيه ، وبلغ متوسط ايراد بيـع السـلع ٣٦ جنيها أسـبوعيا فى ربع السنة المنتهى فى شـهر ديسمبر بزيـادة ٣٤ جنيها فى رأس المـــال وجنيهين فى الايراد فى خلال ١٢ شهرا ، وليس هـذا انجـازا عظيما يفخـر بـه لكنه مع ذلك تم فى وقت كسـدت التجارة فيـه وغلت أسـعار الطعـام ممـا كان يتوقع معـه أن تنهار الجمعية لا أن تتقـدم ويدل ذلك أن عربـــة التعاون أخذت تتسلق التـل ببطء لكن بثبات ، ويأتى الفصل التالى من تاريخ الجمعيـة ليبدو جميلا على غير المنتظر ٠

وبـدأ عام ١٨٤٨ بحالات « ضيق » كبيرة وزيادة فى الأعضاء الجدد ، ولم تعد الاشتراكات تجمـع من الأعضاء فى منازلهم ، بل أصبح للأعضـاء مكان يجتمعون فيـه مرة واحـدة أسـبوعيا على الأقل وهو مقر الحانوت وهناك يجمع الصراف منهم الاشتراكات ، ولم تؤثر الثورات فى الخـارج ولا الأزمات والقلق فى الداخل على تقـدم هذه التجربة العاقلة السليمة ، وزاد عـدد الأعضـاء الى ١٤٠ عضـوا ورأس المـال الى ٣٩٧ جنيهـــا والمتحصل من بيع البضائع فى ربع السنة المنتهى بشهر ديسمبر الى ٨٠جنيها بزيادة ٤٤ جنيها أسبوعيا عن العام السابق ٠

وأصبحت الغرفة السفلية فى المستودع المعهود أصغر من أن تسع حجم العمل ، واستطاع هؤلاء التعاونيون ذوى المقدرة والمهارة أن يؤجروا المبنى كله وكان مكونا من ثلاث طوابق وطابق علوى منحدر attic لمدة عشرين عـاما ٠

ودخل الجمعية أعضاء جـدد آخـرون عام ١٨٤٩ واتخذت الجمعيـة الطابق الثانى قاعة اجتماع للأعضاء وجعلها أيضـا نوعا من قاعة الأنباء ، فتقرر فى ٢٠ أغسطس « تشغيل لجنـة من السادة جيمس ناتول ، هنـــرى جرين ، ابراهام جرينوود ، جـورج ادروفت ، جيمس هيل ، روبرت تايلور لاقامة كشك لبيع الكتب والدوريات والصحف الخ ٠٠ ويخصص الربح لإمداد قاعة الأعضاء بالجرائد والكتب » وفى نهاية عام ١٨٤٩ وصل عدد الأعضاء

الى ١٩٠ عضــوا ورأس المال الى ١ بنس ١٩ شلن ١١٩٣ جنيه ، والمتحصل الأسبوعى من مبيعات البضائع الى ١٧٩ جنيها •

وظهر فى العام التالى بروتشديل عــدو قديم جـدا للسلام الاجتماعى، فبــدأ العنصر الدينى ينازع للاستئثار بالساحة ، وأدى التوسع السريع فى العضوية الى وجود عدد من ذوىالآراء الانجليكية الذين لم يتعلموا التسامح العملى ، ولم يفكروا فى منـح زملائهم الحريات التى يمنحها هؤلاء الأعضاء لهـم ، فاقترحوا اغلاق قاعة الاجتماعات أيام الآحاد ومنع المناقشات الدينية، وعارض هذه القيود التعاونيون ذوى الصـلابة والتحرر والذين لهـم من ولائهـم وحسن احساسهم ما جعلهم يؤيدون المزايـا العلمانية التى يستفيد منهـا التيـار الدينى نفســه ، وكانوا يقـدرون الحريـة العقليـة أكثر من أى كسب شخصى آخر ، وينظرون باســتياء الى تسرب هذا المصدر الخطير من مصــادر الفرقة الذى تسبب فى تدمير الكثير من جمعيات الأصــدقاء ، وعرض الأمر على اجتماع عام فى ٤ فبراير ١٨٥٠ ونسجل هنا تواريخ الأحـداث الهـامة لاعتقادنا بأنهـا أيام تاريخية فى مجـرى حياة جمعيتنا وحانوتهـا • وتقـرر فى التاريخ المذكور أنــه من أجل مصلحة الجمعية : « يتمتع كل عضــو بكامل الحريـة فى التعبير عن مشــاعره عن جميـــع الموضوعات عندما تعرض فى الاجتماعات فى الوقت الصحيح وبالشــكل الصـحيح ، وتعتبر جميـع الموضــوعات قانونيـة إذا اقترحت بالطريقـة الصحيحة » ، ويتضح من منطـوق هـذا القرار التاريخى مـدى الذعر الذى تسبب فى اصداره والجهـد المبـذول لضمان حرية من الحريات التى تعتبر ضرورة لازمة للضمير والتقدم ، وخشى مؤسسو الجمعيـة بحـق من أن تنبـذ مبادؤهم وتزول تحت تاثير تدفق الأعضاء الــذين لا يعرفون التسامح الذى لابـد أن تقوم عليـه كل حركة تعـاون ولهـا تحركوا واسـتصدروا قـرار ينص على أنــه « لا يجـوز اقتراح ضم أعضاء جـدد بعد الجمعيـة العمومية القادمة ولمـدة ستة شهور » ومن ذلك الحين ساد السلام فى هــذه الناحيــة •

ومنـذ التاريخ المبكر للتعاون ــ أى منذ عام ١٨٣٢ ــ وافق المؤتمـر التعاونى المنعقـد فى لنــدن فى تلك الســنة على قـرار حكيم يقـــول : **« بما أن العــالم التعاونى يضم اشخاصا من جميـع الطوائف الدينية ومن**

جميع الأحـزاب السياسية فقـد تقـرر بالاجماع الا يضيف التعاونيـــون بصفتهم هــذه طبقا لأيــة صفات دينية أو غير دينية أو سياسية ولا بمذهب مستر أوين ولا غيره من الافراد » (١) ٠

وتعتبر الطائفية دائما الصخرة التى تتحطم عليها الوحدة الجماهيرية، وما لم يتحقق التسامح ازاء كل الآراء يستحيل قيـام التعاون الشعبى ٠

وبعد خمـود هــذه العواطف الدينية واصلت الجمعيــة نجاحهـا فزاد الأعضاء عام ١٨٠٠ الى ٦٠٠ عضو ورأس المـال النقدى والعينى الى ٥ بنس ١٠ شلن ٢٢٩٩ جنيه والمتحصلات النقدية من المبيعات فى ربع السنة المنتهى بشهر ديسمبر الى ١٧ شلن و ٤٣٩٧ جنيه بمتوسط أسبوعى قـــدره ٣٣٨ جنيهـــا ٠

فى أبريل ١٨٥١ تقــرر أن يفتح الحانوت لأول مــرة طوال اليوم وذلك بعد مرور سبع ســنوات على افتتاحه ، وعين مســـتر ويليم كوبر مشرفا وجون رودمان وجيمس ستاندرينج بائعين وبلغ عدد الأعضاء فى هذه السنة ٦٣٠ عضوا ورأس المـال ٢٧٨٥ جنيها والمبيعات الاسبوعية ٣٠٨ جنيهات أى أقل قليــلا من عام ١٨٥٠ ٠

وفى عام ١٨٥٢ التالى أصبحت الزيادة فى رأس المـال والمتحصــلات ملحوظة واستمرت الزيادة منذ ذلك الحين بمعدل فاق كل التوقعات وسنوضح ذلك فى جداول النتائج فى فصل آخــر ٠

---

(١) قرارات المؤتمر التعاونى الثالث بلندن عام ١٨٣٢ ٠



الفصل الخامس

أعداء في الداخل وأعداء في الخارج وكيف أمكن قهرهم جميعا

ENEMIES WITHIN AND ENEMIES WITHOUT, AND HOW THEY ALL WERE CONQUERED



حقق التعاونيون بروتشديل معجزة معنوية كبرى تتلخص فى معرفتهم كيف يختلفون دون أن يتفرقوا ، وينفصلون دون أن ينشقوا ، ويكرهون أحيانا لكنهم يتماسكون معا دائما · وكثيرا ما نصادف فى الطبقات العاملة بل فى معظم الجماعات والجمعيات الأخرى المؤلفة من سائر الطبقات أشخاصا ذوى صفات عجيبة وكأنهم ولدوا تحت نجم النحس ، يتنفسون العداء ، والفرقة ، وعدم الثقة ·· نبراتهم قاسية وغاضبة دائما ، وليس الذنب ذنبهم فهم لا يقصدون ذلك لكنهم لا يستطيعون سواه ، فأعضاء الكلام organs of speech لديهم معيبة لا تخرج صوتا متزنا ، ولا يعرفون شعور الود ولا يرضيهم شىء أبدا ، وكل حركاتهم وسكناتهم تعلن عن « خلاف فى الرأى ، شفاههم مفتوحة دائما لتخرج « الذم » ، وعضلات وجههم « مشدودة » تطالب بالتعديل وجباههم فيها تجاعيد غاضبة تنم عن « مبدأ جديد للعمل ، وعلى الجملة هم صنف نشاطهم الاجتماعى كالقنفد ذى الأشواك ، تنتصب أشواكه ابدا ، ولهم دائما نظرة معكوسة يرون بها الأشياء مقلوبة رأسا على عقب ، يضعون الشىء حين يفحصونه فى الماء حيث تبدوا أى قبعة معتدلة وكأنها معوجة لا أمل فيها ، يظنون أن لكل كلمة معنيين ويختارون منها دائما المعنى الذى لم يقصده المتحدث ، ويعلمون أن كل جملة لا تحتوى أبدا على كل المعنى ويبحثون عن المعنى الذى لم تقصده أبدا ، وينضمون الى الجمعية ليتعاونوا ظاهريا لكنهم فى الحقيقة لا يفعلون شيئا سوى انتقادها دون أن يحاولوا فى صبر تحسين ما يشكون منه ، وبدلا من أن ينشروا القوة ليدافعوا عن الجميع ، يبحثون عن مواطن الضعفليكشفوا عنها للعدو المشترك ، ويجعلون كل زميل لهم فى حالة دائمة من عدم الرضا حتى تصبح زمالتهم عقوبة ، وتحس أنك بين الأعداء أكثر أمنا واحتراما منك بين الأصدقاء ، ويتنبأون لكل الناس بأن كل شىء مقضى عليه بالفشل حتى يصبح كل عمل وكأنه مستحيل التحقيق ولا أمل فى نجاحه ثم يطالبون بعد ذلك بالامتنان لبعد نظرهموالشكر والاحترام لمساعداتهم التى هى فى الحقيقة شر معوق ، هم اصدقاء يتصرفون كفرقة الأطفاء ، معهم دائما مضخة ماء ويتصورون أنك دائما فى حالة التهاب فيرشونك

بالماء ويغرقونك من الصباح الى المساء حتى يبتل كل عضو ويتساقط دنه الماء باستمرار ، وهم يعتقدون أن التعاون كلمة ترادف المضايقة المنظمة ، وبدلا من أن يدلوا الأعمى على الطريق ويساعدوا الأعرج فى المسير ، ويساندوا الضعيف ويشجعوا الخجول ، ويعطوا الأمل لليائس ، ينفقون أوقاتهم يغرسون المسامير فى الأجزاء الحساسة من أقدام المصاب بالنقرس ويدفعون الأعرج ليقع من على درجات السلم ، ويتركون الخائفين فى الظلام ويزيدونهم خوفا ، ويؤكدون لليائسين أن لا أمل بتاتا ، ويوجد فى معظم الجمعيات بعضا من هؤلاء « الأصدقاء ذوى الطبيعة الحسنة » ، نعم عددهم قليل لكن لا يمكن القضاء عليهم ٠ ان هؤلاء الأشخاص ذوى الصفات العجيبة ، ان هم الا قطاع طريق التقدم الذبن يثيرون ذعر كل مسافر ، ويستوقفونك لتسلم آمالك ، وهم وحدهم المتكلمون بأسم الديمقراطية كما يزعمون ، والحكماء ، ولا يستطيع أن يقف أمامهم الا حكماء وأقوياء ، وقد فهم رواد روتشديل طبيعة هؤلاء فهما جيدا فقابلوهم وتحملوهم وعملوا معهم واعتبروهم عقبة فى سبيل التقدم يجب معالجتها وتجاوزها بكلمة طيبة او ابتسامة مرحة ، وردوا عليهم بالعمل لا بالكلام كما دحض ديوجينس زينو ، فحين قال زينو لا حركة هناك أجابه ديوجينس بأن تحرك ، وعندما اشار نقاد السوء الى الفشل رد عليهم التعاونيون فى روتشديل بالنجاح٠

The moral miracle performed by our co-operatives of Rochdale is, that they have had the good sense to differ without dis agreeing; to dissent from each other without separating; to hate at times, and yet always hold together. In most working classes, and, indeed, in most public societies of all classes, a number of curious persons are found, who appear born under a disagreeable star; who breathe hostility, distrust, and dissension : whose tones are always harsh: it is no fault of theirs, they never mean it, but they cannot help it ; their organs of speech are cracked, and no melodious sound can come out of them ; their native note is a moral squeak ; they are never cordial, and never satisfied ; the restless convolutions of their skin denote "a difference of opinion;" their very lips hang in the form of a "carp ;" the muscles of their face are "drawn up" in the shape of an amendment, and their wrinkled brows frown with an "entirely new principle of action ;" they are a species of social porcupines, whose quills eternally stick out ; whose vision is inverted : who see every-

thing upside down ; who place every subject in water to inspect it, where the straightest rod appears hopelessly bent ; who know that every word has two meanings, and who take always the one you do not intend ; who know that no statement can include everything, and who always fix upon whatever you omit, and ignore whatever you assert ; who join a society ostensibly to co-operate with it, but really to do nothing but criticise it, without attempting patiently to improve that of which they complain; who, instead of seeking strength to use it in mutual defence, look for weakness to expose it to the common enemy ; who make every associate sensible of perpetual dissatisfaction, until membership with them becomes a penal infliction, and you feel that you are sure of more peace and more respect among your opponents than among your friends ; who predict to everybody that the thing must fail, until they make it impossible that it can succeed, and then take credit for their treacherous foresight, and ask your gratitude and respect for the very help which hampered you ; they are friends who act as the fire brigade of the party ; they always carry a water engine with them, and under the suspicion that your cause is in a constant conflagration, splash and drench you from morning till night, until every member is in an everlasting state of drip ; who believe that co-operation is another word for organised irritation, and who, instead of showing the blind the way, and helping the lame along, and giving the weak a lift, and imparting courage to the timid, and confidence to the despairing, spend their time in sticking pins into the tender, treading on the toes of the gouty, pushing the lame down stairs, leaving those in the dark behind, telling the fearful that they may well be afraid, and assuring the despairing that it is "all up." A sprinkling of these "damned good natured friends" belong to most societies ; they are few in number, but indestructible ; they are the highwaymen of progress, who alarm every traveller, and make you stand and deliver your hopes ; they are the lagoes and Turpins of democracy, and only wise men and strong men can evade them or defy them. The Rochdale co-operators understand them very well-they met them — bore with them — worked with them — worked in spite of them — looked upon them as the accidents of progress, gave them a pleasant word and a merry smile, and passed on before them ; they answered them not by word but by act, as Diogenes refuted Zeno. When Zeno said there was no motion. Diogenes

answered him by **moving.** When adverse critics, with Briarian hands, pointed to failure, the Rochdale co-operators replied by **succeeding.**

وعلى كل من ينضم الى جمعية عامة أن يكون على وعى بمثل هذه الأصناف العجيبة من البشر الذين وصفناهم ، فأنت تستطيع مصاحبتوم اذا لم تسمح لهم بأن يأخذوك على غرة ، والواقع أنهم ذوو فائدة فى وضعهم هذا فهم الثقل الذى يحاول المهندس الاجتماعى أن يستند اليه ليقوى بناءه الجديد ، وقد وصفناهم لأنهم وجدوا فعلا فى روتشديل ولإثبات أن التعاونيون هناك لم ينجوا من المضايقات ولم يكونوا محصنين ضد طبيعة الأشياء أو المخاطر ، بل تعرضوا للامتحانات نفسها التى يتعرض لها كل الناس وكان عليهم أن يكافحوا الصعوبات البشرية المعتادة ، ولنأخذ مثالين·

فاجتماعات الأعضاء هى بالطبع برلمانات مصغرة للطبقة العاملة لكنها ليست صغيرة الآن لأنها تشمل من الأعضاء ما يعادل أعضاء مجلس العموم ثلاث مرات ، ولذا تظهر فيها كل أنواع الانتقادات التقليدية المعروفة عن الانجليز وكل أنواع التذمر التى يقال أنها تميز طبيعتنا القومية وكل أنواع الغيرة الصغيرة المتفشية فى الديمقراطيات ، يظهر كل ذلك فى الاجتماعات وان لم يكن فى الصورة الخطيرة أو الشكل المدمر المعتاد فى الطبقة العاملة ، وهنا فى برلمان(١) حانوتنا لا يبدى قائد المعارضة أحيانا أى شفقة ولا رحمة ازاء قائد السلطة وهكذا ينتقد جلادستون روتشديل أو دزرائيلى روتشديل انتقادا عنيفا الموازنة ربع السنوية التى يقدمها سير جورج كورنوول لويس بروتشديل ، وفى بعض الأحيان يظهر الصديق بن فى شكل عضو من أعضاء جمعية الحانوت لا يعجبه شىء أبدا ومع ذلك لا يشكو من شىء محدد أبدا ، يبدو عليه الرفض لكنه لا يعلنه كلاما ، فهو يشك فيما يبدو فى كل انسان شكا أعظم من أن يعلن ، ويمضى فى جميع النواحى يفحص كل شىء ويرتاب فى كل شىء ، ويعرض خلافه لا باللسان ولكن يهز

---

(١) أرجو التكرم بتوجيه نظر القارىء الى أن جورج جيكوب هولى أوك يشير هنا الى ديمقراطية التعاون ويستخدم الأسماء السياسية المعروفة وقتئذ ، ومراكزها داخل الحكومة ، تعبيرا عن أن الجمعيات التعاونية تمارس الديمقراطية فى نشاطها وتحقيق أهدافها مثل ما يحدث فى البرلمان ، خاصة وأن العمال فى بريطانيا فيما مضى لم تكن لهم أصوات أو تمثيل فى المجالس النيابية ·

الرأس ، ويمسك عن الحديث حتى يعرف ما يجب عليه قوله ، وبعد سنتين من السفر المثقل على هذه الحالة انقشعت الغيوم ووجد بن كلاما وثقة معا ، وجد أن أرباحه ازدادت برغم عدم ثقته ولم يجد فى نفسه ما يدعوه لأن يقطب جبهته ويسخط على الحانوت الذى يثريه ، وأخيرا صعد الى الصراف ليقبض أرباحه ونزل من هناك كما نزل موسى من على الجبل مضىء الوجه .

وانفجر أحد حماة الديمقراطية الآخرين فى بطولة وكان نقيض بن لأنه أرعد الحانوت بلا انقطاع بخطبه المدوية ، ولن تستطيع صفحات جريدة التايمز أن تسع تقريرا عن خطبه التى يلقيها كل ربع سنة ، وهو لا يمكنه اثبات أن شيئا ما يجرى بطريق خاطىء لكنه لا يصدق أبدا أن كل شىء على ما يرام ، وقد دعى لحضور جلسة للمجلس ، ولو أننا درسنا تقارير الجمعية دراسة صحيحة لرأينا أنه عين عضوا بالمجلس كى يرى كيف يصنع الشىء الصحيح بل ويشترك فى صنعه ، لكنه كان ساخطا على هذا الواجب واستسلم لعدم الرضا وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات التى يخشى أن يغشه أحد فيها وأمضى مدة عضويته فى مجلس الادارة وقد أدار ظهره للمجلس فى جلوسه ، وفى هذا الوضع غير الودى وغير المريح كان يدلى برأيه ، ولا ندرى أن كانت له آذان الى الخلف كالأرنب البرى ، لكن ما لم تكن له عيون فى ظهره فمن المؤكد أنه لم يشاهد أبدا ما يجرى فى المجلس ، وكان هناك عضو معارض آخر لا يحضر الا نادرا ، وكانت طبيعته اصطناع العداء وأخيرا ركن الى الرضا بعد رشوة نعم نال رشوة ، وهى الرشوة المشروعة الوحيدة ، رشوة النجاح ، فعندما أتت اليه الأرباح وراء ظهره التفت مستديرا لينظر اليها وأخذ النقود ووضعها فى جيبه ووضع معها غضبه وعداءه ، ولو أنه لم يعترف أبدا بأن الأمور تسير سيرا صحيحا إلا أنه توقف عن القول بأنها خطأ .

وبدأت الجمعية فى مرحلة مبكرة وظائفها التثقيفية ، فالىجانبتقديمها المئونة لأعضائها أصبحت ملتقى الأعضاء فى مبنى الحانوت حيث يلتقى كل عضو بسائر الأعضاء فى المساء بعد ساعات العمل ، وهنا يسود الانسجام لأن المساواة بينهم قائمة ، فكل عضو يتساوى معغيره فى الحقوق ، ومسموح له أن يعبر عن رأيه فى أى موضوع يهمه ، وبينما كانت المعاهد الصناعية تعتبر الدين والسياسة من الموضوعات المرعبة ، طرح الدين والسياسة

للمناقشة هنا كموضوعات عادية ليس فيها ما يؤذى لأنها مفتوحة للجميع ، واكتسب التعاونيون الثقة كما اكتسبوا عادات العمل الطيبة ، وكان المجلس مفتوحا لكل انسـان ، ولكل انسان أن يتجول ويذهب حيث يشاء ، فمات كل احساس بالريبة وعـدم الثقة فكل شيء مكشوف لا غطاء عليـه ، وظهرت الثقـة والكبرياء النبيلة لان كل عضو هو سيد ، فهو المشترى والمالك معا ، ومع ذلك لم يسر كل شيء على ما يرام ، فالى جانب العقبات الطبيعية ظهرت عقبات أخرى سببها الجهل وعدم الخبرة ·

ويقف الفقر عقبة فى سـبيل النجاح الاجتماعى أكثر من سـوء الظن ، فلن تستطيع برأسـمال قليـل أن تشـترى بضائع جيـدة ولا رخيصة ، فمـا تشتريه من دكان صغير قد يكون على الأرجح أسـوأ وأغلى مما هو فى أى مكان آخر ، وهذا يثبط الفقير ويصيبه بالإحباط ، لأن الفقير يحسب حساب كل بنس ويريد أن يستفيد منـه أقصى استفادة وكل بنس يدفعه بالزيادة فى شراء البضائع يعتبره ضريبة لا يتحملها ، ولن يقتنع بأن هذه الزيادة ستعود عليه ربحا فى نهاية الربع سنة ، فهو لا يصـدق ذلك ولا يثق فى الوعـد بالربح ، وفقـد البنس اليـوم شيء قريب يحسـه أما ربح ست بنسات بعد ثلاثة شهور فشيء بعيد ، ولذا يجب تثقيف الفقراء قبل أن تتمكن من خدمتهم ، وكلما كانت رسـائلك متواضعة كلمـا كانت الصعوبات التى تواجهك أكبر ، لأن عليك أن تعـلم الفقـراء وأن تحافظ عليهـم أيضـا ، ويظـن البعض أن المشترى يجب أن يكون راضيا لأنه يمتلك الحانوت أيضا ، لكن الأمـر ليس كذلك بالمـرة فهو لا يرضى عن الثمن الذى يتقاضاه من نفسـه ، فالرضـا الواعى هو أبطأ النباتات نموا فى أرض الجهالة ·

Intelligent contentment is the slowest plant that grows upon the soil of ignorance.

ونظر بعض الاعضاء من الرجال ، بل وكثير من العضوات من النساء ، نظرة غير كريمة الى الحانوت فقد اعتادوا على الحوانيت الجذابة بينمـا كان مستودع تودلين لا يسر الناظرين ، لكن بمضى الوقت أحست النسـاء بالفخر نهن يدفعن نقدا فى شراء البضاعة ، وخامرهن الاحساس بأن الدكان مملوك لهن وبدأن فى الاهتمام به بدرجـة تعادل اهتمام ازواجهن ، وكالمعتاد فى مثل هذه الأحـوال فان الاعضاء الذين يتقاعسون عن تقديم التأييد عندما تدعـو الحاجة اليه بشـدة يصبحون اعـلا الناس صوتا بالشكوى فلا هـم

يساعدون انفسهم ولا هم يشجعون غيرهم بل ويثنون عزمهم ، والحق انه لنصر عظيم أن يتمكن التعاونيون من بث عادة التضامن وتأييد المشروع الذى سيمدهم بالتأييد والمساندة فيما بعد ، ويحـــدث فى أوقات كثيرة أن يكون لرخص أثمان الحاجيات جاذبية على المشترى من الحانوت فينسى تلك الميزة العظيمة من معرفته أن طعامه جيد وأن كساءه أمتن ما يمكن وينسى أحيـانا الرضــا النفسى الذى يحسه حين يعلم أن البضائع التى يشتريها من الدكان مصنوعة بقـدر الامكان بمعرفة أحـد العمال الذى تلقى أجرا يعيش به نظير عمله ، وبين الحين والحين يظهر الباعة حول الدكان التعاونى ويصــــدقهم المتعاملون ويفضلون شراء بضائعهم عن بضائع الدكان لانها أرخص قليلا ٠

ويصدم أى انسان يمر بمناطق لانكشاير الصناعية بالعـدد الكبير من الدكاكين الصغيرة التى تبيع المؤن وكثير منها يبيع الاقمشة أيضا الى جانب المؤن ، ومن هـذه الدكاكين يمد العمـــال موائدهـم ويكسون ظهـورهم ، **ومما يؤسف له أن القاعدة المتبعة فى تلك الدكاكين هى البيع بالأجل والاستثناء البيع بالنقـد ، ويحمل المتعاملون مع هـذه الدكاكين ما يسمى «دفتر ائتمان» يأخذه معــه المتعامل عند الشراء لتسجل فيــه المشتريات ثم يسوى الحساب عند قبض الأجـر كل أسبوع أو فى أحيان كثيرة كل أسبوعين ، لكن كثـيرا ما يتبقى على المتعامل رصـيد مستحق لصـاحب الحانوت ، وهكذا تتراكم الديون على كثير من العمال ، وكلما جاء الركود كلما زادت ديونهم وثقلت حتى يصبح العامل أخيرا غريقا فى الدين بشكل لا يمكن انقاذه منه ، وعندما يفقد عمله يضطر الى النزوح الى مكان آخر ويتعامل طبعا مع دكان آخر ، الا إذا أبقى علاقته مع الدكان الأول البعيد متجشما المشقة الكبيرة فى ذلك ٠**

ويحدث أحيانا أن يفضل نساج أمين أن يتحمل المشقة عن أن يهجر محلا وثق فيه وحدث فى حالة رويت للمؤلف أن عائلة نزحت من قرية الى قرية أخرى على الجانب الآخر من البلدة واستمرت لسنوات ترسل فى طلب مؤنها من الدكان الأول الذى كانت تعاملة رغم أنــه يبعد ميلين ونصــف وأن فى الوصول إليه تجتاز مدينة روتشديل حيث تســتطيع الحصــول على حاجتها بأسعار أرخص مما تدفعه ، وهـذه حـالة من الأمانة والوفاء يمتلىء تاريخ الطبقة العاملة بالكثير منها ٠

ولابد لنا من أن نذكر أن رأسمال الحانوت كان سينمو بسرعة لولا أن كثيرا من الأعضاء كانوا مرتبطين عندئذ بشركة أراضى فيرجس أوكونور Feargus O'Connor . وكان عدد كبير منهم مساهمين فى تلك الشركة ويعتبرونها أفضل مركزا ويرون أنها ستجعل أعضائها قريبا فى حالة استقلال ولذا فقد التعاون كثيرا من الاهتمام والحماس الذى كان حريا أن يوجه الى الجمعية الجديدة ٠

ومن عادة هذه البلاد الاحتفاظ بدين قومى يعيش على فوائده الكثيرون على حساب دافعى الضرائب ذوى النشاط ، والى جانب هذه الفوائد نجد مضاربات البورصة وكل ذلك أوجد حالة من رد الفعل الضار على كثير من الشرفاء ،وفشلت تجارب تعاونية عديدة لقلة المال لأن الأعضاء رأوا أخذ الفوائد عملا غير أخلاقى لكنهم لم يكونوا على حماس كاف يدفعهم الى إقراض المال بدون فوائد ، وعارض بعض الناس فى دفع الفوائد لكن من المستحيل الحصول على المال بدونها ووقف هؤلاء الأخلاقيون لا يبدون حراكا ولا يتصرفون فقد كانوا أخلاقيين بدرجة لا تجعلهم نافعين ، وتدل هذه المواقف كلها على جهل فاضح بالاقتصاد السياسى ، فإذا لم يقبل أحد على التوفير وانكار الذات من أجل تجميع رأس المال فسيظل المجتمع فى حالة بربرية أبدية ، وإذا رفضنا دفع فوائد عن رأس المال كتعويض للمخاطرة به فلن يتوافر كى يستخدمه الآخرون بل سيبقى مكنوزا بلا فائدة بدلا من أن يصبح أداة عظيمة للحضارة والقوة الوطنية ، وقد دعا مستر ستيوارت ميل هذه الطبقة من الإصلاحيين الذين اقترفوا تلك الأخطاء الى التقدير الواعى لعلم الصناعة فى كتابه « مبادىء(١) الاقتصاد السياسى وبعض تطبيقاتها على الفلسفة الاجتماعية » وكانت معظم هذه التطبيقات جديدة عليهم ، ورغم أنها عرضت عرضا علميا مجردا فقد أظهرت عمق تقدير للناس ورغبة فى تقدمهم وكان العنصر الإنسانى فيها مخلصا وغضا بحيث أحل العطف محل سوء الظن ودحض الخطأ بالمنطق ٠

وتبث مبادىء التعاون فى الفرد شعورا أخلاقيا واحساسا بالإنضباط وهى مفيدة فى نتائجها للدولة ، ولكن بأية صعوبة شقت طريقها فى العالم ،

---

(١) Principles of Political Economy, with some of their applications to Social Philosophy.

لقد أعتبرها رجال الدولة نوعا مرعبا من التركيبات السياسية ، ورآها الأغنياء خطة للإفساد ، وشجبها البرلمان ، وكتب الاقتصاديون السياسيون يهاجمونها ، وخطب ضدها رجال الكهنوت ، فكان لزاما على الفكرة التعاونية فى معارضتها للنظام التنافسى أن تكافح ، وما تزال تكافح لتشق طريقها الى الصناعة والتجارة ، ويحسن برجال الدولة أن يوفروا على أنفسهم القلق والإنشغال بقمع الفكرة الجديدة ، فلابد أنهم رأوا من تجاربهم أنه لو حاول رجل واحد بث فكرة لقام عشرة رجال مرة واحدة للقضاء عليها وليس ذلك دائما لأنهم يظنونها سيئة لأنهم لا يريدون أن يتغير نظام الأشياء الراهن بصرف النظر عن أن الفكرة ذاتها سيئة أم طيبة ، فهم يكرهون الحق ذاته ولو علموا أنه حق مادام الحق يسبب لهم المتاعب ، وعلى رجل الدولة أن يرقى بذوقه عن أن ينضم الى الغوغاء والفضوليين فى مطاردة التجديد المخلص ، أما أصحاب الحوانيت فلاشك أنهم يحسون إزاء الجمعيات التعاونية بشيء من الشك والتحامل ، ونجد هذا النوع من الاحساس لدى العمال إزاء إدخال الآلات الذى لاشك سيضرهم أولا وإن كان يفيد الجمهور العام فيما بعد ، **لكن بسبب حسن فهم التعاونيين من ناحية وحسن إدراك أصحاب الحوانيت فى روتشديل من ناحية أخرى لم تنشا اية مشاعر تذكر من عدم الصداقة بين الطرفين ، وقد اهتم التعاونيون أولا وفى تواضع بتحسين أوضاعهم الخاصة وكان نجاحهم المبدئى ضئيلا لا يثير غيرة احد ، وظل الحانوت طوال السنوات الثلاث أو الأربع بعد افتتاحه دون ان يؤثر على تجارة التجزئة فى البلدة اثرا يذكر وبلغت حصيلته الأسبوعية عام ١٨٤٧ أى بعد أربع سنوات ٣٦ جنيها وهو رقم يعادل ايراد حانوت متوسط ويقل عن إيراد بعض الحوانيت الأخرى خمس أو عشر مرات لكن فى السنوات التالية شعر أصحاب الحوانيت لاسيما الصغيرة باثر الحانوت التعاونى ، وأغلقت بعض الحوانيت لهذا السبب ، إذ كان اعضاء الجمعية منتشرون فى الضواحى لمسافة تبعد ميل او ميلين عن البلدة ، وحدث بالنسبة لواحد أو اثنين من أصحاب الحوانيت فى الضواحى ان اصبح نصف زبائنهم لمسافة ميل حوله من المشترين فى الحانوت التعاونى ويؤثر ذلك طبعا على اعمالهم ، ويرجع الشعور الطيب الذى ساد التجار فى البلدة الى حسن الإدراك والاعتدال غير المتوقع من جانب التعاونيين الذين ابتعدوا عن الجشع وعن التنافس المقوت ، وعندما ترتفع الأسعار فى البلدة برفع الحانوت التعاونى أسعاره**

أيضا بما يتناسب مع الأسعار السائدة ، ولم يحدث فى الواقع ولا فى الظاهر — ولو من باب الدفاع عن النفس والمصالح — أن استغل الحانوت التعاونى وضعه ليبيع بأسعار تقل عن أسعار الآخرين ، وعندما يخفض التجار أسعارهم — وهذا حدث نادر — لينافسوا الحانوت التعاونى ويعلنون فى البلدة أنهم يبيعون بأسعار مخفضة عن أسعار جمعية النساجين ويدعون زبائن الجمعية ليشتروا منهم ، لا يعمد الحانوت حتى فى أوقات ضعفه الى تخفيض أسعاره بل ويترك المسألة تمر ولا يعترف بمثل هذه الأمور ولا ينساق فى هذا المجال الضار من المنافسة ، وسار الحانوت مسارا تجاريا أمينــا وحدد أسعاره بأمانة ولم ينشد أى تنافس ولم يسمح بأن يساق إليه ولو أن وسيلة الفوز كانت فى متناوله كما هى فى متناول خصومه ، وتمسك الأعضاء بشعارات حكيمة هى : « لكى نكون فى أمان يجب أن نبيع بربح » ، « لكى نكون أمناء يجب أن نبيع بربح » ، « إذا بعنا السكر بلا ربح فلابد أن ننتهز الفرصة فى خفاء عند بيع سلع أخرى لتعويض الخسارة » ، « لن نتصرف فى خفاء ولن نبيع بلا ربح مهما فعل الآخرون ، ولن تكون تعاليمنا أن نبيع أرخص من الآخرين بل أن نبيع بأمانه » وكتبت الغلبة لهذه السياسة .

The means of winning were quite as much in its hands as in the hands of its opponents. The prudent maxims of the members were. "To be safe we must sell at a profit." To be honest we must sell at a profit. "If we sell sugar without profit, we must take advantage covertly in the sale of some other articles to cover that loss". "We will not act covertly ; we will not trade without profit whatever others may do ; we will not profess to sell cheaper than others ; we profess to sell honestly" — and this policy has conquered.

وعارض بعض أصحاب المصانع الحانوت التعاونى كمعارضة أصحاب الحوانيت ، ولم يعرفوا كنهه تماما ، وتأثر بعضهم بتقارير قدمها إليهم أشخاص ذوى ميول معادية ، ودار فى خلد البعض أفكار غامضة عن أن عمالهم قد يصلون الى نوع من الاستقلال يسبب لهم المتاعب ، لكن هذا الخوف لم يدم طويلا وزال بتأثير حسن إدراك الآخرين ، ونصح البعض أحد أصحاب العمل بأن يفصل العمال الذين يتعاملون مع الحانوت فكانت اجابته « إنه لا يرى لماذا يجب عليه أن يفعل ذلك ، ومادام عماله يؤدون واجبهم فليس له أن يفرض عليهم أين يتعاملون ، فلهم من الحق ما له فى كيفية إنفاق أموالهم فى أى

سوق تجلب لهم اقصى إنتفاع بهذه الأموال ، وإذا تعلموا الاقتصاد فلا يرى ضررا يحيق بهم واذا استطاعوا توفير المال فلهم الحق فى ذلك ، بل يعتقد بأن هذا دورهم » ٠

وتمتع التعاونيون منذ وقت طويل بحسن راى رجال الصناعة فيهم وكذلك الطبقات العليا فى البلدة ، ولكثرة عدد أعضاء الحانوت التعاوتى فقد كان هناك لقاء دائم بينهم وبين أصحاب الأعمال ، ومن ناحية اخرى انتشر هؤلاء الأعضاء بحيث ندر أن يخلو منهم مصنع من المصانع وأصبح كل رجال الأعمال لديهم نفر من هؤلاء الأعضاء يعملون عندهم ووصـل بعضهم الى مناصب تجعلهم أهلا للثقة ، ونظرت الطبقة العاملة بوجه عام الى الجمعية نظرة تقدير كبير ، وهو أمر طبيعى مادام هدفها تحسين أحوالهم ، وبذلك احتلت الجمعية مكانة ذات تاثير فى البلدة ، ونظرا لانتشار أعضائها فى كافة الأنحاء فقد أصبحت كل حركة عامة أو محلية معروفة لواحد على الأقل أو لنفر منهم ، وفى الاجتماعات يتصل بعضهم ببعض ويتناقلون انباء تلك الحركات ، وهكذا يتعرف الجميع على الحقائق الواقعة وبالتـالى يطلبون الرأى فيها ويتبع ذلك بالطبع فقد الإنكار والحركات ثم يتكون اقتناع عام حول بعض النقاط ، وبهذه الطريقة يتعلم الكثيرون ما هو الرأى الصحيح الذى ينبغى تأييده وعندئذ يساندونه بمزيد من الثقة الناشئة عن العلم والتحليل الصائب من نفر يثقون بهم ٠

ويرجع البطء الذى سارت به حركة روتشديل سنتين او ثلاث سنوات الى أن كل نظام ينشأ فى إطار الطبقة العاملة بغرض تحسين أحوالها يحتاج الى كسب ثقتها أولا ومازال كثيرون فى روتشديل يذكرون الجمعيات التعاونية السابقة وما حاق بها من خسائر ومتاعب وقلق وما دار حول قادتها ، وهى ذكريات لابد تثير مخاوف الحذرين ، وكان هناك آخرون لا يدرون أن سبب دمار الجمعيات السـابقة اتباعها لنظام الائتمان لكن « الرواد العـدول » تجنبوا بحكمة هذا المأزق ، والواقع أن العديد من التجارب التعاونية إنهارت بسبب الائتمان ، حتى التقت كل الآراء تقريبا لا فى روتشديل وحدها بل فى أنحاء البلاد وفى البرلمان على أن التعاون خديعة قابلة للانفجـار ، **ونظر الناس الى التعاونيين المساكين الذين نحكى قصتهم على انهم رسل مؤامرة ثورية فهم خطرون من هذه الناحية وهم من ناحية أخرى أيضا متعصبون**

مخدوعون لا أمل فى هدايتهم يصرون على تدمير انفسهم ، وبلغ من جهلهم انهم لم يدركوا مدى حمقهم أو خطورتهم ، ولم تبدأ الطبقة العاملة تدرك أن « الخديعة المتفجرة » هى « خديعة مربحة » إلا بعد أن جرى تيار الأرباح ، كانت قليلة لكنها مستمرة ووصلت الى الاكواخ المنعزلة هنا وهناك ، وإلا بعد ان فتحت البلدة اعينها دهشة وهى ترى الغزالين الذين لم يعرفوا فى حياتهم سوى الديون يسيرون وفى جيوبهم مال ، وأعلن الذين قالوا ان مثل ذلك لا يمكن ان يحدث انهم توقعوه ولم ينكروه أبدا وأن كل الناس عرفوا أن التعاون سوف ينجح واضافوا ان اى إنسان يستطيع أن يصنع ما صنعه الرواد ٠

***

الفصل السادس

ذعر مطحن القمح

THE GREAT FLOUR MILL PANIC

اقترب عام ١٨٥٠ من نهـايته ودخلت فى قصتنا جمعية جـديدة هى « جمعية مطحن القمح بمنطقة روتشديل Rochdale District Corn Mill Society » وكانت جمعية مماثلة قـد نجحت فى مدينـــة ليـــدز Leeds ، وتاريخها إضافة مفيدة للمؤلفات التعاونية(١) ، وبدأت محاكاة روتشديل لهذا المشروع فى أواخر عام ١٨٥٠ ، واجتمعت جمعية مطحن القمح فى قاعة اليفانت آند كاسل Elephant and Castle بشارع مانشستر ونالت تشجيعا من جمعية الحانوت ، ونظرا لأن أعضاء مجلس الإدارة لم يكونوا على علم بهذا النوع من العمل فقد اسندوه الى غيرهم من أجـل صالح المشروع ، واستثمر « الرواد العدول » فى المطحن من ٤٠٠ الى ٦٠٠ جنيه فى شكل أسهم ٠

وبدأوا عام ١٨٥١ فى إقراض جمعية المطحن مقابل بضائع ينتظر توريدها ، لكن هذه البضائع أى الدقيق كان مع الأسف من نوع منخفض الجودة لسببين : الأول أن جمعية المطحن اضطرت لقلة راسمالها الى الشراء من حيث تمنح ائتمانا لا من حيث يمكنها الحصول على أفضل أنواع القمح ، وأصبحت فى قبضة مانح الائتمان بحيث اضطرت الى قبول قمح غير جيد بسعر مرتفع(٢) والثانى أن رئيس المطحن كان تنقصه المهارة وكذلك إدارة الطحن ، وقررت « جمعية الرواد العدول » ألا تبيع من الدقيق إلا دقيق « جمعية مطحن قمح روتشديل » ٠ **ولما كان من نوعية منخفضة الجودة فقد**

---

(١) ظهرت تقارير عنها فى الصحف المحلية عام ١٨١٩ عن نجاح جمعيات مطاحن القمح فى ليدز وهاليفكس وكيف ساعدت على خفض أسعار الدقيق فى تلك المدن فأفادت الجماهير كلها الى جانب إمدادها لأعضائها بسعر أرخص من سعر البيع للجمهور ، ومع تحقيق ربح ، ودفعت تلك التقارير مستر سميثز ومســتر جرينوود ومستر تشارلز هوارث الى اقتراح مناقشة بدء حركة لمطاحن القمح فى روتشديل فى اجتماعات جمعية الرواد ٠

(٢) زاد من أثر نقص رأس المال سوء التخطيط ، وبعد التعاقد على آلات قيمتها ٧٥٠ جنيها ثم أرسل صانع الآلات فاتورة إضافية بمبلغ ١٤٠ جنيها وكان قد أغفلت آلة قيمتها ٤٤ جنيها ، وكانت النتيجة أنه لما بدأت المطاحن العمل لم تجد الجمعية مالا لشراء القمح ٠

انخفضت المبيعات ، وهذه إحدى الفجوات الصغيرة فى جـدران التجربة الشعبية التى تتسرب فيها انانية الطبيعة البشرية وتطل منها ، وإذا اشترى فرد صنفا بسعر اغلى من السعر الذى يشترى به جاره فعليه ان يتحمل خطاه لكن المسالة تختلف في حالة الحركات الشعبية العامة فالمسالة تصبح نوعا من السلبيات التى يجب أن يواجهها كل إنسان ، ولما بدا المشترون فى الحانوت التعاونى ينصرفون عن شـراء الدقيـق ، أثار ذلك ازمة فى الجمعية التعاونية ، وبلغت خسائر جمعية المطحن ٤٤١ جنيها(١) فى نهاية الربع الثالث من عام ١٨٥١ ، وادى ذلك الى ذعر في الحانوت بسبب تورطه فى وضع استثماراته فى المطحن وتاثر بفشل المطحن ، وتناثرت الشائعات سريعا بان الحانوت نفسـه سيفشل واقترح بعض الأعضـاء ترك مشروع المطحن ، ورأى آخرون أن يساهم كل عضو من أعضاء المتجر بمبلغ جنيه لتغطية الخسارة مع الانسحاب من المشروع بعد ذلك ، لكن نظرا لأن جمعية المطحن كانت تعقد اجتماعاتها فى الحانوت واعضاؤها ينتسـبون ايضـا لعضوية الحانوت فقد رأى مستر سميثز أن هزيمتهم تعتبر انتقاصا من سمعتهم وشرفهم واصر بقوة شديدة على أن اسم « الرواد » سوف يزول إذا لم يهب الجميع لمعالجة الموقف وأنه لم يترك جمعية المطحن بين المطرقة والسندان فلن ينال احد عند التصفية سوى ١٠ شلنات لكل جنيه ، وأن هذا هو أوان اختبار الإيمان بالتعاون ، ولم يتقاعس الأعضاء بل إن بعضهم جاء بكل ما يمكنه جمعه من ماله حتى تتصدى الجمعية للموقف وتتغلب على الصعوبات ، لكن كما هى العادة نكص عدد قليل ، وفى طليعة من انبرى لرفع الكارثة وسجل لنفسه فخرا كبيرا باجماع الآراء ابراهام جرينوود الذى أبدى ولاءا عظيما طوال الوقت ولفترة متطاولة ما كلفـه صحته بل وكاد يكلفه حياته نفسها ، تظهر لنا كارثة المطحن كيف توقف مصير جمعية الحانوت على أمانة المسئولين فيه وهى كارثة كان السبب فيها خلل فى خلق العاملين بالمطحن ومنهم طحان كان يذهب بانتظام الى مانشستر بدلا من ويكفيلد Wake field لشراء القمح ، واسـتطاع بالإتفاق مـع بعض البائعين أن يحصل على عمولة فى مانشستر على حساب ضرر الحانوت ،

---

(١) انقلب الفرح الذى قابل به الاعضاء إنتاج أول جوال من الدقيق الى استياء شديد لهذه النتيجة ٠

وربما كانت الخسارة الكبيرة التى نزلت بالمطحن ناشئة من هذا السبيل أساسا ، وأغرم آخر بخمر « تودى »(١) بينما لم يدرك من جاء بعده سوى ظلالا باهتة من الحقيقة ، وهكذا ارتبكت أحوال المطحن بين رجل لا يعرف ماذا كان يفعل ورجل لا يستطيع أن يدرك ما يصنع ورجل لا يعرف ماذا كان يقول ٠

So between the man who **would** not know what he was doing and the man who **did** not know what he was doing, and the man who did not know what he was saying, the affairs of the Corn Mill got somewhat confused.

ويشيع خطأ آخر فى الطبقة العاملة يجعل الأمور أكثر اختلاطا ، فيظن العمال ، أن من الحكمة الاقتصاد فى النفقات باسناد مسك دفاتر الحسابات الى متطوعين ويقبلون أى متطوع لهذا العمل ، ويعمل هؤلاء المتطوعين فى ورديات كل بدوره ، والنتيجة أن الدفاتر تصبح فى حالة يرثى لها ، وهكذا كان الخلط هينا لكنه لا سبيل لاصلاحه ، وزاد الارتباك سوءا ، وتصرف أعضاء مجلس الإدارة بحكمة وقوة بمجرد أن ادركوا الموقف ، وفصلوا المدير الذى لا يحسن عمله وحل مستر جرينوود رئيس الجمعية مكانه ، وعين كاتب حسابات بأجر ، وبدأت تصفية الديون على اقساط صغيرة ولكن دهمتهم كارثة على غير انتظار ، ففى صباح أحد الأيام جاءت الأنباء الى الى البلدة بأن المحضرين وصلوا مما أثار حزن التعاونيين المكافحين وارتياح المتنبئين بالفشل الذين لم يخفوا فرحهم ولم يستطيعوا سوى أن يهنئوا أنفسهم على تلك الأنباء السيئة ٠ فقد قصر مالك العقار الذى استؤجرت منه المطاحن أن يدفع إيجار الأرض لصاحبها وتراكم الإيجار لمدة ٣ سنوات وبلغت قيمته مائة جنيه ووقع بقيمته حجزا على التعاونيين الذين لم يكونوا مسئولين عنه لكن هذا الخطر ابعد وانتصر الكفاح والصبر وأخذت الأرباح تأتى تباعا وارتفعت من ٤ بنسات الى شلن واحد وغطت الخسائر البالغة ٤٥٠ جنيها وأخيرا طلع فجر يوم الربح الكبير ٠

(١) "Toddy" كلمة انجليزية لنوع من الشراب الحار المسكر ، ويتميز عن غيره من أنواع المشروبات المسكرة بأنه حلو المذاق ٠

وعندما فتح الحانوت لأول مرة قال احد أصحاب الحوانيت أنه يستطيع أن يأتى بعربة يد صغيرة ويحمل عليها كل مخزون المتجر وهذا صحيح وكان لدى هذا التاجر عشر أمثال رأسمال الحانوت التعاونى رهدد بأنه سيبيع بسعر أقل حتى يفلس الحانوت ، وكان فى استطاعته البيع بسعر رخيص لكن تماسك النساجون معا ولم يستطع دفع الحانوت للإفلاس ، وما أكثر التجار من هذا النوع الذى يبدى عداءا فى التفكير ، ومن ناحية أخرى فقد لا ينوى إنسان شرا بك لكنه يصبح عدوا مصطنعا فيسرع بالتنبؤ بفشلك ورغم أنه لا يريد بك الضرر فى الواقع فقد يؤلمه ألا تفشل فيكذب ظنه ، مثل هؤلاء الأشخاص ربما يسرهم أن تنجح من الوجهة المجردة لكنهم وقد استسلموا لفكرة الفشل وتنبئوا به لا يريدون أن تنقلب تصوراتهم ، وعندما أفلس بنك الادخار الشعبى Public Savings' Bank فى روتشديل عام ١٨٤٩ وبصورة مشينة وضاع على الفقراء عدة آلاف من الجنيهات أكتسبوها بكدهم وجهدهم الشديد(١) ، اتجه هؤلاء الفقراء المساكين الى الحانوت التعاونى ليحميهم ، ومنذ عام ١٨٤٩ لم يقم فى روتشديل بنك ادخار آخر ٠

وأخذ النساجون الذين كانوا يستثمرون أموالهم فى البنك حتى ذلك الوقت يبحثون عن مكان آخر يودعون فيه مدخراتهم ، وشعروا أنهم أخطأوا حين وثقوا فى البنك الذى لم تكن لديه ضمانات كافية ولم يكن لهم عليه رقابة فعالة خاصة فى طريقة استخدامه للأموال ، ولما كان الحانوت التعاونى يتوافر لديه العنصران مع سعر فادة مرتفع(٢) ، فقد اقبلوا على إيداع مدخراتهم فى الجمعية ٠

وشعروا بثقة فى « الرواد العدول » أكثر من البنك الحكومى الزائف الذى نتج عن فشله تزايد عضوية الحانوت والثقة به مما فضح تنبؤات الفشل التى أشرنا إليها ، لكن ما أن بدأت الشائعات تنطلق بالفزع حول المطحن حتى عادوا الى الحاحهم الأثيم على تنبؤاتهم القديمة ، **وأثارت**

---

(١) اختلس أحد المسئولين ٧١٧ر٧١ جنيها من الودائع البالغة ٤٠٣ر١٠٠ جنيها ، وبقى مستحقا للمودعين حتى عام ١٨٧٧ مبلغ ٢٨٧ر٣٨ جنيها وقدم سير أ٠ رامسى Sir A. Ramsay التماسا فى هذا الشأن الى مجلس العموم مؤخرا ٠

(٢) شلن وستة بنسات لكل جنيه ٠

شائعاتهم الناس فتدفقوا على الحانوت ، ولم يقل أعضاء مجلس الإدارة المتواضعون شيئا ، وفى هدوء طلبوا من الصراف أن يجلس الى شباكه ومعه تعليمات منهم بأن يلبى كل طلب ، وجاء رجل كان له فى الحانوت ٢٤ جنيها كلها من الأرباح التى اكتسبها وطلب سحب ١٦ جنيها ، ولعله أحس بشىء من التعاطف مع من مكنوه من كسب هذه الأرباح فأراد أن يترك معهم شيئا قليلا ·

وسأله الصراف « هل ستبدأ مشروعا ما ؟ »

فقال الرجل : « لا ، لكنى أريد نقودى »

« حسنا ، لكنك تعلم أنه لابد من اخطار مسبق »

« نعم وقد جئت لأقدم الاخطار » فهو « يريد أمواله »

فقال الصراف « حسنا ، نحن نطلب مهلة الأخطار عندما نظن أن المال لدينا قد لا يكفى ، لكننا نستغنى عنها الآن ومن الأفضل أن تأخــذ نقودك الآن » ·

وجعلوا الرجل يأخذ نقوده ويضعها فى جيبه وهو فى دهشة وخرج وهو يحسب أنه كان ضحية لعبة ماكرة ، وبعد ثمانية عشر شهرا جاء هذا الرجل نفسه وأعاد ماله الذى وضعه طول هــذا الوقت فى جورب (تلك « الخزانة » الشهيرة للفقراء) وخسر الفوائد ، وحكى للصراف القصة كلها وكيف استرد ماله لأنه تلقى تأكيدات بأن الحانوت سوف يفلس ، وهو الآن يقص القصة على زملائه القريب منهم والبعيد وما من أحد أكثر ثقة الآن فى الحانوت مثله ·

ثم ظهرت امرأة وطلبت أموالها وأجيبت الى طلبها فورا ، ثم أبدت رغبتها فى ألا تأخذها فقد طلبتها لأنه قيل لها أنها لن تحصل عليها ، لكن عندما وجدت أنها تستطيع أخذها لم تردها · فكانت أكثر تعقلا وأسرع فكرا من ذلك الرجل سىء التصرف الذى أخذ ماله الى بيته ووضعه فى جورب وبمجرد أن عرفت ألا خطر على مالها تركته ، ورفضت امرأة أخرى سحب مالها ســواء كان فى خطر أم لم يكن رغم أن أحد التجار قال لها « سيفلس الحانوت بالتأكيد ويحسن بك الانسحاب » ·

وانتقل الفزع من المودعين الى التجار لكن فزع هؤلاء لم يدم طويلا ، ففى ذلك الوقت كان المطحن يتسلم القمح ويدفع ثمنه فى الأسبوع التالى ، وكان السداد يجرى فى ويكفيلد أسبوعا بعد أسبوع ، وحدث أن أحد البائعين لم يصله المال سدادا لما باعه ، وقال أصحاب المطاحن للسيد المسن أن الحانوت قد أفلس فركب قطارا سريعا الى روتشديل ثم عربة من محطة السكة الحديد الى الحانوت وطلب استحقاقاته ، وهناك وبكل هدوء طلبوا منه الفاتورة وسددت له استحقاقاته فورا بل طلبوا منه ان كان يعرف آخرين لهم مستحقات مقابل بضائع وردوها الى المطحن فليتفضل بابلاغهم بالحضور ، واشتدت دهشة السيد المسن وأحس أنه يجب ألا يتقدم بطلب آخر وقال فيما بعد لناظر محطة السكة الحديد أنه نادم على هذه الرحلة التعسة التى استدرج إليها ٠

وفى ذلك الوقت قدم البنك الذى يتعامل معــه « الرواد العدول » فى روتشديل خدمة صريحة يتذكرها الرواد دائما بكل تقدير ، فبينما كان بعض التجار فى البنك قال أحد الناس أنه يرى أن الحانوت آخذ فى الانحدار ، وكان قصده الواضح أن يتصيد من العاملين بالبنك قولا يؤيد الشكوك التى يحاول بذرها ، لكن أحد العاملين أجاب بأنه لا يرى مبررا لذلك ولا يرى لماذا يقال عن الحانوت أنه فاشل مع أن مجلس إدارته أودع فى البنك ٢٠٠٠ جنيه لأجل طويل وظلت الوديعــة موجودة لم تمس ، فأرست هذه الملاحظة الثقة فى الحانوت خاصة وقد جاءت من مسئول فى مكان له أثره كما أن الذين طلبوا استرداد أموالهم من الحانوت وعادوا بها فى جيوبهم ملأتهم الثقة بعد ذلك وأشاعوها فى غيرهم ، أما أعضاء مجلس الإدارة المتواضعون فكانوا ككل الرجال الشرفاء يسرهم أن يدفعوا الأموال أكثر مما يقبضونها ، وكان لتصرفهم الحكيم والحازم أثره فى اعلاء شأن « الرواد العدول » ٠

وهنا نجح الف أو الفان من العمال فيما فشل فيه سير جون دين بول John Dean Poul ، فانشاوا بيتا مصرفيا شريفا واحتفظوا به كذلك ، فما أرفع هؤلاء التعاونيين فى معنوياتهم التى فاقوا بهــا وزير الخزانــة Lord of the Treasury الذى ســـمم نفســـه فى هامبســـتد هيث Hampstead Health ، هؤلاء الرجال هم بالتأكيــد أهل للمهمة مثــل بول ، وسالير ، ومثل هيو انزكرون ، وهامفرى براون ، فأى مستوى من

الدعاية الانتخابية تنتهجه الحكومة حين تعطى العمل الى مصرفيين مخادعين أو وزراء خزانة غير محنكين وتمنعه عن العمال الشرفاء ٠

وجاءت نتيجة أعمال الربع سنة المنتهية فى سبتمبر ١٨٥٢ وأظهرت رصيدا صافيا قدره ١٠٠ جنيه للمطحن ، واستطاع مستر جرينوود وزملائه بنشاطهم وحكمتهم أن يغيروا مصير المطحن ٠

وحدثت ظروف عجيبة فى بداية عمل المطحن ، فقد قرر المسئولون أن يقدموا للناس السلعة على حقيقتها ونقائها ، وقد يكون الدقيق الذى انتجوه منخفض الجودة كما قلنا آنفا لكنه كان نقيا ، ولأنه نقى كان لونه مائلا الى السمرة أكثر من الدقيق المطروح فى السوق ولذا رفضه الناس ، ويذكر المؤلف أن صديقا له لم تعجبه القهوة الرديئة الطعم التى تقدم فى لندن ، فأعد مشروعا ليقدم للناس القهوة النقية الحقيقية وافتتح مشربا فى لا مبيث وكان يقوم بتحميص البن النقى وطحنه ، لكن لم يقبل أحـــدا على قهوته واضطر الى اغلاق المشرب ، لأن الناس تعودوا على البن الردىء المخلوط حتى فسد ذوقهم وأصبح البن الجيد النقى غريبا عليهم ويرفضه مزاجهم ، وهذا ما حدث للمطحن ، فإن الدقيق النقى غير المخلوط لم يعجب أحدا لأن زبائن الحانوت لم يعرفوا مذاق ولا لون الدقيق الصافى. وأثاروا ضجة ضد التعاونيين وقيل أنهم لا يمكنهم منافسة المطاحن الأخرى ، ومن ناحية أخرى فلو أن التعاونيين أقدموا على غش الدقيق وخلطه – وهى الطريقة الوحيدة لتقريب الدقيق الى ذوق الجمهور – لقيل عنهم فى ضجة أخرى أنهم غشاشون مثلهم مثل غيرهم من التجار ، لكنهم جعلوا دقيقهم أبيض اللون بالطريقة المعتادة فى السوق وظلوا على ذلك فترة قصيرة بعدها أدركوا سخف ما فعلوا بالمخالفة لمبادئهم وأخذوا فى مناقشة الأمر مع المشترين فى الحانوت واقنعوهم بوجهة نظرهم فأقبل المشترون على الدقيق الصافى بصرف النظر عن لونه ، ومنذ ذلك الحين لم يقدم الحانوت سوى الدقيق الخالص النقى ٠

***

الفصل السابع

خطوات متتابعة على طريق النجاح
حانوت روتشديل فى مساء يوم سبت

SUCCESSIVE STEPS OF SUCCESS. — THE ROCHDALE STORE ON A SATURDAY NIGHT



لجمعية الرواد العدول سبعة اقسام : البقالة Grocery ، الأقمشة Drapery ، الجزارة Butchering ، الأحذية Shoe making ، تفصيل الملابس Tailoring ، المنتجات الخشــبية Clogging والبيع بالجملة whole sale ، ويمسك حساب منفصل لكل نشاط ، ويصور حساب عام كل ربع سنة يبين المركز المالى ككل ، وبدأ قسم البقالة كما قلنا فى ديسمبر ١٨٤٤ وكان يبيع أربع سلع فقط لكنه يبيع الآن كل ما يبيعه أى بقال ، وبدأ قسم الأقمشة عام ١٨٤٧ بتشكيله متواضعة ، وفى عام ١٨٥٤ احتل قسما منفصلا ، وفى عام ١٨٤٦ بدأ الحانوت فى بيع اللحوم وكان يشتريها من أحد تجار البلدة بكمية تتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ رطل ، ثم توقف بيع اللحوم حتى ١٨٥٠ عندما حصلت الجمعية على مخزن خاص بها ، وكان مستر جون مورهاوس مع اثنين من المساعدين يشترى ويذبح للجمعية ثلاث ثيران وثمانية خراف وعدد من الخنازير والعجول تباع فى المتوسط بمبلغ ١٣٠ جنيها اسبوعيا ، وبدأ قسم عمل الأحذية عام ١٨٥٢ بثلاثة عمال وصبى يصنعون الأحذية ، وكمية من الأحذية تخزن للبيع ٠ وبدأت أقسام الترزية والمنتجات الخشبية فى نفس السنة أيضا ، أما قسم البيع بالجملة فبدأ عام ١٨٥٥ ويمثل علامة هامة فى تطور عمل الرواد ، وأنشىء القسم بغرض تزويد من يريد من الأعضاء بكميات كبيرة من السلع وتوريد السلع الى الحوانيت التعاونية فى لانكشير ويوركشير التى لا يمكنها رأسمالها الصغير من شراء أحسن ما فى الأسواق أو الحصول على الخدمات الضرورية التى يحتاج إليها الحانوت وفى طليعتها خدمات الشراء اذ يحتاج الحانوت الى شخص يجيد الشراء يعرف الأسواق ويعرف متى وكيف وماذا ومن أين يشترى ، ويضمن قسم البيع بالجملة الجودة والنوعية والنقاء واعتــدال الأســعار والوزن والمقياس والكيل ، وكل ذلك على أساس القاعدة المعروفة التى لا خروج عنها أى التعامل نقدا ٠

وبعـد تسـجيل الجمعية بموجب القوانين رقم ١٣ و ١٤ .,Vict الفصل ١١٥(١) ، اتجهت الى إنشاء قسم الجملة ، وهى عملية كان يمكن أن تكون مستحيلة لولا الحماية القانونية التى بوفرها هذا القانون الذى نال تقدير الطبقة العاملة وامتنانها للبرلمان أكثر من أى قانون آخر سمعت العمال يتحدثون عنـه ، وتقول لوائح الرواد (نختـار ثلاث قواعـد من قواعدهم) :

١٤ ـ غرض قسـم البيع بالجملة ، امداد من يريد من الأعضـاء الحصول على بضائعهم بكميات كبيرة ·

١٦ ـ يحمل هذا القسم بفائدة سنوية بعد سعر الخمسة فى المائة على رأس المال الذى قد يقدمه مجلس الادارة له ،

١٧ ـ تقسم الأرباح التى يحققها القسم ، بعد سداد تكلفة الإدارة والمصروفات الأخرى ، وبما فيها الفائدة المشار اليها الى ثلاثة أقسام كل ربع سنة ، ويحتفظ بقسم منها لمواجهة أى خسارة قد تنشأ عن المتاجرة الى أن يبلغ حدا يساوى المخزون المحدد المطلوب ، ويقسم القسمان الباقيان على على الأعضاء بنسبة قيمة مشترياتهم ·

وعقد فى ليدز عام ١٨٥٤ مؤتمر لبحث كيف يمكن للجمعيات التعاونية فى لانكشير ويوركشير أن يوحدوا معا مشترياتهم من منتجات معينة ومنتجين معينين ، وأدلى مستر لويد جونز بنصيحة قيمة فى هذا الشأن أثناء المؤتمر ، وفى المؤتمر الثانى الذى عقد بروتشديل فى أغسطس ١٨٥٥ وكان السؤال الأساسى هو من الذى يتولى توفير رأس المال اللازم لإنشاء القسم ؟ ، وأبدت بعض الجمعيات استعدادها للاكتتاب فى حصة تتناسب مع حجم أعمالها ، ورأى بعضها الآخر فى حكمة قديمة قدم العالم أنه يحسن بهم الانتظار حتى يروا كيف يسير القسم ، وهذا ضرر ربما يحمد فى بعض الظروف ، لكن إذا تمسك به الجميع فلن يحدث أى تقدم أبدا ، وقبـل الرواد العدول الدعـوة والمبادرة بجراتهم المعهودة ، ولما كان قد استقر فى أذهان الكثير أن كل

---

(١) هذا قانون يمثل فى حد ذاته ردا على أولئك الذين يريدون تطبيق مبدأ الحرية (ترك الأشياء دون تدخل) على السياسة ، واذا كان المبدأ ذا فائدة فى الاقتصاد السياسى فإنه ـ كما يقول الأستاذ نيومان ـ لا يمكن تطبيقه على السياسة ودون حدوث أخطاء ـ الاقتصاد السياسى ، ص١٨٨ ·

ما يتولاه الرواد مقدور له النجاح فقد انضم لهم عدد من الحوانيت التعاونية ، لكن معظم رأس المال قدمه الرواد بينما قدم الآخرون مبـــالغ قليلة وتطبيقا للقانون الذى أشرنا اليه اشترط الرواد أن يحصلوا على ٥٪ عن المبالغ التى يقدمونها ، ونشأت خلافات ولا نقول انشقاقات ، وشعر الرواد بشىء من عدم الرضا من أن تحصل المتاجر التى لم تساهم بنصيب عادل من رأس المال من أجل إنشاء تجارة الجملة على أرباح تتساوى معحصتها فى حركة القسم التجارية ، ولما كان الرواد قد قدموا كل رأس المال تقريبا فهم بالتالى أحق بالأرباح كلها تقريبا ، ولكن رأى الآخرون أنه لا يحق للرواد أن يأخذوا سوى الخمسة فى المائة كفائدة على أموالهم ، ولا يجوز لهم المطالبة بالأرباح الناشئة عن تعامل الآخرين ، ويتعامل متجر الرواد مع قسم الجملة ويأخذ نصيبه من الربح عن معاملاته كغيره من المتاجر الآخرى ، نعم قد يكون صحيحا أن كثيرا من المتاجر لا تشترى سوى السلع التى لا تدر ربحا كبيرا ، بينما يشترى متجر روتشديل سلعا كثيرة وبكميات كبيرة بحيث تدر معاملاته معظم الربح الى جانب أنه يخاطر برأســماله الذى بدا وكأنه فى خطر فى مبـدأ الأمـر ٠

فقد اشترى قسم الجملة أنواعا من السكر والصابون والشراب والعسـل الخ ٠٠ بأسعار مرتفعة أثناء ربع الســنة المنتهى بشــهر مارس ١٨٥٦ ثم انخفضت الأسعار قبل أن يتمكن من تصريفها وبلغت الخسارة ٤ بنس ١٠ شلن ٤٩٥ جنيه ، وقدمت لجنة تحقيق تقريرا فيما بعد جاء فيه أن عدة متاجر زادت مشترياتها من سلع تدر أرباحا تزيد عن الأرباح التى تنتج عن مشتريات جمعية الرواد ، ودافع مستر وليم كوبر سكرتير الجمعية عن ايرادات ومركز قسم الجملة ، واتفق فى النهاية على أن متاجر المنطقة تعاملت مع قسم الجملة تعاملا عادلا شريفا رغم أنها لم تساعده بتقديم رأسمال بالقدر الذى كان يراد ، لكن ظل كثيرون يبدون عدم الرضا برغم عدم إمكانهم اثبات وجود أخطاء الى أن اتخذ قرار فى اجتماع ربع سنوى مؤجل الى اكتوبر ١٨٥٦ يقضى « بالاستغناء عن قسم الجملة » لكن هذا القرار لم ينفذ بفضل نشـاط مستر صمويل سكوت وآخرين ، فقد أنشىء القسم بلائحة مسجلة ولا يمكن الاستغناء عنه إلا بتعديل اللائحة ، وقبل احداث هذا التعديل يجب أن يوافق عليه ثلاثة أرباع الأعضـاء الحاضرين فى اجتماع يدعى لهـذا السبب خاصة ، وتملك خصوم القســم يأس من حصــولهم على الموافقــة المطلوبة واستمر القسم ، وانخفضت الخسارة السابق ذكرها بعد عام ـ

أى فى الربع سنة المنتهى بمارس ١٨٥٧ الى ١ بنس ١٤ شلن ١٤١ جنيه ، وبعد نصف عام آخر استهلكت الخسارة كلها وتحققت أرباح تفوق الفائدة المطلوبة على رأس المال وواصلت المتاجر التعامل مع قسم البيع بالجملة ، **ويلاحظ أن أهم المسئولين فى المتجر هو القائم بالشراء ويجب أن يكون عالما بالأسواق وبعمله وواجباته ، لانه إذا لم يتصف بالعلم واللباقة وحسن التصرف فلن تنجيه أمانته مهما كانت عالية من أن يكون سببا فى تدميـر المتجر ان اخطأ وأساء الشراء ، ولا تستطيع المتاجر الصغرى أن تستخدم رجلا بهذه الصفات لصغر حجم معاملاتها وقلة مواردها ، أما إذا ركزت المشتريات فى قسام للتعامل بالجملة فيمكن لهذا القسم أن يوظف واحدا أو أكثر ممن يتمتع بالصفات المطلوبة ويخدم بذلك المتاجر الصغيرة كلها بحيث يستطيع أصغرها شراء أحسن السلع بأقل الأسعار ، لأن المشتريات إذا تجمعت فى جهة واحدة صارت كبيرة الكمية وأمكن شراؤها بشروط وأسعار أكثر ربحا مما لو كانت كميات صغيرة متناثرة ،** لكن من الواضح أن هذا القسم المفيد للتعامل بالجملة كان يمكن أن يفشل لولا أحكام القـانون الذى أصـدره البرلمان واستند إليه مستر سكوت وزملائه ، فقد منح هذا القانون الاستقرار للجمعيات ومنع أن تتسبب فئـات قصيرة النظر فى تدمير الأهداف العامة ، وسهل إصلاح الأخطاء التى ترتكبها القلة بقرار تصدره الأغلبية الحقيقية ·

وكان أعضاء الحانوت الذى يقيمون فى أماكن بعيدة يشترون لوازمهم مرة كل أسبوعين مثلا ويطلبون أرسـالها لهم فى منـازلهم ، وكان بعضهم يتجمع معا ويؤجرون عربة لتنقلها لهم ، ورغبة فى التغلب على هذه المتاعب ونظرا لصعوبة خدمة جميع الأعضاء من خلال الحانوت الرئيسى فى تودلين ، تقرر إفتتاح حوانيت فرعية ، وكان أولها فرع أولدهام رود الذى فتح عام ١٨٥٦ ويبعد نحو ميل عن وسط روتشديل ، وفتح عام ١٨٥٧ فرع فى كاستلتون وآخر فى ويتورث رود ثم فرع رابع فى بنفولد ·

ويسـتطيع القارىء أن يكون فكرة عن مظهر الفرع مما هو مبين فى الصفحة التالية فعلى ناحيتى الباب لافته طولية ضيقة عليها البيانات التالية :

الحوانيت التعاونية للرواد العـدول

EQUITABLE PIONEERS' CO-OPERATIVE STOES.

مسجلة طبقـا للقـــانون		المشترين بنسبة المبالغ التى ينفقونها
الأغـــراض تحسين ظروف أعضائها الاجتماعية والمنزلية		لا توجد أسعار ثانيـــة
	(منقولة من اللوحة الموجودة على فرع سـكول لين) School Lane Branch	
تدفع خمسة فى المائة فائدة على الأســهم باقى الأرباح تقسم على الأعضـاء		تدفع قيمة المشتريات جميعها عنـد التسـليم تعلن الأرباح الموزعة كل ربع سنة

وقلنا فيما سبق أن المبنى فى تودلين الذى استأجرته الجمعية كان فى عام ١٨٤٩ فى حالة سـيئة ، لكنه يحتـوى الآن على قاعة مجهزة تجهيزا جميلا كغرفة أنباء news room ، وأخرى مجهزة كمكتبة(١) ، وأجريت فى كافة أجزاء المبنى عمليات إصلاح وإعداد جميل مع ديكور غير مبالغ فيه بحيث أصبح الآن يحمل مظهر مكان العمل المحترم ٠

واستؤجر المطحن فى منطقة سمول بريدج Small Bridge ويبعد عن البلدة بمسافة تبلغ نحو ميل ونصف ، وبنت الجمعية فى البلدة مطحنا آخر جديدا كله ، اختارت آلاته من أمتن وأجود الأنواع المحسنة ، ويقال عنـه الآن « مطحن الجمعية الجديد فى وير ستريت Weir Street بالقرب من كوميشنرز رومز Commissioners' Rooms » واســتثمر فى المطحن

(١) حسب التقويم Almanack ١٨٥٤ ٠

الجديد ٨٤٥٠ جنيها منها ٢ بنس ١٥ شلن ٣٧٣١ جنيه اكتتبت به جمعية الرواد العدول ، ويعمل بالمطحن ١١ رجلا ٠

ويذكر تقويم ١٨٥٥ تكوين « جمعية التصنيع » المسجلة بموجب قانون ١٥ ، ١٦ .Vic الفصل ٣١ ، والواقع أن كل فرع من فروع الحانوت العظيم وكما يحق لنا تسميته الآن ــ مسجل طبقا لقانون ما ، وهذا الأسلوب يشكل منهجهم فى تحقيق هدفهم الذى أعلنوه منذ ١١ عاما وهو محاولة تنظيم العمل ، وهم الآن ينتهزون الفرصة التى هيأها لهم قانون جمعيات الصناعة والادخار ليقوموا بممارسة حرف تصنيع القطن والصوف ، وبلغ رأس المال فى هذا الفرع ٤٠٠٠ جنيه منه ٢٠٤٢ جنيها مساهمة من جمعية الرواد العدول ، وتمتلك جمعية التصنيع هذه ٩٦ نولا ميكانيكيا وتستخدم ٢٦ رجلا و٧ نساء و ٤ صبيان و ٥ بنات ومجموعهم ٤٢ شخصا ٠

وبدأ الحانوت ليصدر تقويما Almanack فى عام ١٨٥٤ ويحتوى هذا التقويم على ما تريد الجمعية إعلانه للأعضاء ومنه يمكن للقارىء أن يلم تاريخيا بميول التعاونيين ، ويزدحم التقويم الآن فى غالبيته باجتماعات الحانوت والمطحن وغيرها من الاجتماعات وفيه أيضا إعلانات لمختلف عمليات الجمعية ، وبعض المعلومات التاريخية عن منشأ الجمعية فى أحد الأركان ، وتكرار لأغراضها القديمة فى ركن آخر ، والمبادىء ومقتبسات من القوانين مما يهم غير الأعضاء معرفته ، وفى عام ١٨٥٥ أعلنوا أن وكلائهم المركزين فى لندن هى : « الوكالة التعاونية المركزية رقم ٣٥٦ شارع اكسفورد » ثم اضافوا عام ١٨٥٦ « يونيفرسال بيرفيور (وليم إسليب وشركاه) Universal Purveyor (William Islip and Co.) رقم ٣٣ شيرنج كروس » واشترت الجمعية عام ١٨٥٣ مستودعا على الجانب المقابل من تودلين حيث اخذت تودع فيه سلعا مثل الدقيق واللحوم والبطاطس وما يشبهها وتبيعها بالتجزئة ، وجهزوا فى هذا المبنى مكاتب وغرفا للجنة ، كما أجرت الجمعية أماكن مجاورة للدبلان والجوارب(١) والأحذية ، وكان الزائر لقاعاتهم الكثيرة المتداخلة يعثر على صناع أحذية وترزية يعملون فى ظل ظروف صحية جيدة وفى هدوء وراحة بال ، وكانت مخازن جمعية الرواد تزدحم بالبضائع

---

(١) فى عام ١٨٥٥ أمنت الجمعية على مخزونها من الأقمشة بمبلغ ١٠٠٠ جنيه ٠

الجيدة ازدحام سفينة نوح ويغشاها جم غفير من المشترين السعداء المرحين يموجون ليلا فى تودلين ويتسارعون زرافات كثيرة الى جميع اقسام الحانوت ، ولا تشهد أى منطقة صناعية فى انجلترا ما يشهده حانوت روتشديل التعاونى من الزحام فى امسيات السبت ، ففى الساعة السابعة نجد خمسة عمال يعملون بنشاط فى البيع للجمهور وآخرين يتولون وزن السلع وتجهيزها للتسليم وغلام يجر عربة يد وشابين يعيدان ملء الارفف بالسلع والأشياء الصغيرة بعد وزنها ،وفى قسم البقالة بنك Counter يمتد على كل من الناصيتين بطول المكان أى نحو ١٢ ياردة والمكان مملوء بزوجات وأبناء الأعضاء يشترون ما يلزمهم بينما غيرهم ينتظر عند الباب حتى يخلو لهم مكان ، وفى مواجهة قسم البقالة فى الناحية الأخرى من تودلين قسم الأقمشة وفيه ثلاثة عمال يخدمون المشترين ومعظمهم من النساء اللاتى يخترن القماش بدقة ، والى جانب قسم الأقمشة قسم الجزارة وفيه ثلاثة عمال يقطعون اللحم ويبيعونه للزبائن بينما ينتظر نحو ١٠ أو ١٥ شخصا دورهم للشراء ، ويقوم مسئولان آخران بوزن الدقيق والبطاطس والزبد وغيرها لجماعات أخرى من المشترين ، وفى المبانى المجاورة صناع أحذية وأدوات خشبية وترزية يؤدون عملهم أو يبيعون للزبائن ، ويجلس كاتب الجمعية فى مكتبه يصرف أعمالها أو يرد على استفسارات الأعضاء وحساباتهم ، وفى القاعة التى تعلو قسم البقالة (قاعة الأنباء) نحو ٢٠ رجلا وشابا يقرأون الصحف والدوريات ، والى جانبهم نادى الساعات بأعضائه الثمانية والخمسين يجمعون الدفعات الأسبوعية ويسحبون القرعة لتحديد من الذى سيفوز بالساعات (من انتاج تشارلز فريمان فى كوفنترى) أى تغطى اشتراكات الليلة ثمنها ، وتفتح المكتبة ويعمل أمين المكتبة بهمة فى استبدال وتجديد وتسليم الكتب لحوالى ٥٠ شخصا منهم زوجات وأبناء وبنات الأعضاء ، ويغلق المبنى فى الساعة العاشرة وقد جمع نحو ١٢٠ جنيها أثناء النهار من حصيلة بيع السلع ، وبعد أن يكون أمين المكتبة قد اعار نحو مائتى كتاب فى المناطق المقابلة من البلدة فتحت الجمعية الآن أربعة فروع لخدمة الأعضاء المقيمين فى أماكن بعيدة ، وتتكرر فى هذه الفروع نفس الصورة التى أوضحناها وإن كانت على نطاق مصغر ٠

غير أن النشاط التجارى الفائق لا ينبغى أن يكون موضع الاهتمام الوحيد العميق من الكاتب أو القارىء بل عليه أن ينتبه أعظم انتباه الى

الروح الجديدة التى حركها هذا التبادل التجارى ، فقد جمعت هذه الحركة بين البائع والمشترى لا بوصفهما هذا ، ولكن على انهما أصدقاء فلا جشع من جانب ولا ريبة من جانب آخر ، وإذا كانت تودلين تبدو فى **صرح لا يقل عن لوثر آركيد** lowther Arcade **فى لندن إلا انها افضل منها عشرات المرات من حيث الحالة الخلقية والمعنوية فهؤلاء العمال المتواضعون الذين لم يعرفوا أبدا من قبل طعم الغذاء الجيد ولا وضعوا شـيئا منـه فى افواههم والذين يأكلون عشاءا من مواد غذائية مغشوشة ، والذين يمشون بأحذية مثقوبة تنفذ منها المياه وملابسهم مشبعة بالأتربة ، وترتدى زوجاتهم قماش الدبلان الذى لا يعرف الغسيل ، أصبحوا الآن يشترون من الأسواق كأصحاب الملايين ، ويعيشون كاللوردات من حيث نقاء طعامهم ، وأصبحوا ينسجون قماشهم بأنفسهم ويصنعون أحذيتهم ويخيطون ملابسهم ويطحنون قمحهم ويشترون أنقى أنواع السكر واحسن الشاى وأجود البن الذى يطحنونه ، ويذبحون ماشيتهم ، وتسـير فى شوارع روتشديل أحسن حيوانات البلاد متجهة الى حيث يستهلكها نساجو الفانيلا(١) ، فمتى قدمت المنافسة هذه المزايا للفقراء ؟ وهل يستطيع إنسان القول بأن حـالة هؤلاء المعنوية لم تتحسـن فى هـذه الظروف ؟ يعترف الناس فى روتشديل بأن الحانوت التعاونى جعل العمال أكثر وعيا وادراكا منـذ بدأ ، وبينما كان الأزواج لا يعرفون ابدا كيف يتخلصون من الديون والزوجات لا يملكن فى جيوبهن ٦ بنسات فائضة عن الحاجة ، أصبح لديهم جميعا مال يكفى لبناء كوخ ، ويذهبون الى السوق كل أسبوع وفى جيوبهم نقود رنانة ، وهى سوق ليس فيها شك ولاريبة أو عدم ثقة ولا غش ولا غبن فى الأسعار ، بل يعبق الجو بالأمانة والنزاهة ، ولا يتعجل البائعون ولا يداهنون ولا مصلحة لهم فى اضفاء شىء أو اخسار الكيـل والميزان ، بل لهم واجب واحـد يؤدونه هو ايفاء الكيـل والوزن والقياس وتقديم السلعة النقية ، اما فى انحـاء البلدة الأخرى حيث تسـود المنافسة فلا تستطيع كل العظات التى فى روتشديل احداث ما يضاهى هذه الآثار ولم يتحمل الحانوت اية ديون ولم يخسر أية خسارة ، ولم يدخل فى أية قضايا خلال ١٣ عاما من المتاجرة غلت إيرادا قدره ٣٠٣٨٥٢ جنيها ٠**

---

(١) أعلنت الجمعية فى العام الماضى عن وكيل يتولى شراء المواد الغذائية لها فى ايرلندا ويتفرغ لهذا العمل كل الوقت ٠

وكان المعتاد ألا يرسل أحدا طفلا لشراء شيء من السوق إذ من السهل اعطاؤهم سلعا رديئة ويذهب الكبار للشراء ماداموا لا يشغلهم شاغل ولذا فإن من دلائل الثقة التى بثها الحانوت التعاونى بينه وبين الأسر ذلك العدد الكبير من الأطفال الذين يذهبون إليه للشراء ، ولا يرسل أحدا طفله ويوصيه بأن يذهب الى رجل معين له شعر أسود وسوالف رمادية وأن يطلب منه « أحسن زبد » فكل العاملين فى الحانوت لهم شعر أسود وسوالف رمادية والزبد جيد وهو أحسن الزبد ومتوافر لكل إنسان بلا طلب خاص ولا تمييز لسبب بسيط هو أن الحانوت ليس به زبد ردىء ٠

وكان الاجتماع فى الحانوت أثناء السنوات القليلة الأولى مطبوع بطابع الأسرية لكنه اكتسب طابع تجارى فيما بعد حين ازداد عدد الأعضاء ، إذ لا يكفى الحانوت الآن ليسع ١٨٠٠ عضو يشكلون اجتماعا شعبيا حين يأتون معا ، ولذا أصبحت الاجتماعات تعقد فى القاعة العامة بالمدينة ، لكن مع ذلك اتجهت العناية الى المحافظة على حرية المناقشة والتعبير والمساواة بين الجميع سواء فى مجلس الإدارة أو فى أى مناسبة أخرى مما بث فى الجميع روح الاستقلال فى الشعور والتصرف ، وهكذا بتصل ١٨٠٠ عامل أسبوعيا فى ظروف ثبتت روح المشاركة فيما بينهم ، وظل أعضاء مجلس إدارة هذه الحركة الهامة على عهدهم من التواضع ورفض المظهرية كمـا كانوا منذ ١٣ عاما ، فهم إما ملطخون بالزيت أو يعفرهم الدقيق ، مرتدين سترات الفانيلا والقلنسوات ولا يرضى مظهرهم توقعات الغرباء لكنهم فاقوا التوقعات من حيث المقدرة التجارية والســـمو الخلقى والمعنـوى ٠ وتبين الجداول التالية مراحل تقدم الحانوت من عام ١٨٤٤ الى عام ١٨٥٧ أى لمدة ١٣ عـاما :

رأسمال ثلاثة أقسام ١٨٥٦/١٨٥٧ بالجنيه

السنة	الحانوت	المطحن	التصنيع	جملة رأس المال
١٨٥٦	١٢٫٠٢٠	٨٫٤٥٠	٤٫٠٠٠	٢٥٫٣٧٠
١٨٥٧	١٥٫١٤٢	٨٫٤٥٠	٥٫٥٠٠	٢٩٫٠٩٢
	الإيرادات الأسبوعيــــة			جملة الإيرادات السنوية
١٨٥٦	١٫٣٥٣	٠٫٨٥٠	٣٦٠	١٣٣٫٢٧٦
١٨٥٧	١٫٤٩١	١٫١٨٤	٣٠٠	١٥٣٫٠٨٨

ستواصل هذه الإيرادات الزيادة عام ١٨٥٨ لأن ميزانية ربع الســنة الأولى تظهر زيادة تفوق ١٠٫٠٠٠ جنيه فى السنة بالنسبة للحانوت وحده ٠

السنة	عدد الاعضاء	راس المال			المبيعات السنوية النقدية بالحانوت			الايرادات الاسبوعية فى الربع سنة الاخيرة			الربح السنوى		
		بنس	شلن	جنيه	بنس	شلن	جنيه	بنس	شلن	جنيه	بنس	شلن	جنيه
١٨٤٤	٢٨	—	—	٢٨	—	—	—	—	—	—	—	—	—
١٨٤٥	٧٤	٥	١٢	١٨١	٥	٦	٧١٠	—	—	٣٠	٦	١٧	٣٢
١٨٤٦	٨٠	١ر٥	٧	٢٥٢	٧	١٧	١ر١٤٦	—	—	٣٤	٣ر٥	١٦	٨٠
١٨٤٧	١١٠	٣ر٥	٥	٢٨٦	١٠	١٣	١ر٩٢٤	—	—	٣٦	١٠	٢	٧٢
١٨٤٨	١٤٠	—	—	٣٩٧	٥ر٥	٦	٢ر٢٧٦	—	—	٨٠	١٠ر٥	١٦	١١٧
١٨٤٩	٣٩٠	١	١٩	١ر١٩٣	—	١٨	٦ر٦١١	—	—	١٧٩	٩	٣	٥٦١
١٨٥٠	٦٠٠	٥	١٠	٢ر٢٩٩	—	١٧	١٣ر١٧٩	—	—	٣٣٨	٥	١٢	٨٨٩
١٨٥١	٦٣٠	١ر٥	—	٢ر٧٨٥	—	٤	١٧ر٦٣٨	—	—	٣٠٨	٨ر٥	١٩	٩٩٠
١٨٥٢	٦٨٠	٦	—	٣ر٤٧١	—	٥	١٦ر٣٥٢	—	—	٣٧١	٢ر٥	١٥	١ر٢٠٦
١٨٥٣	٧٢٠	١١	٣	٥ر٨٤٨	—	—	٢٢ر٧٦٠	—	—	٥٢٤	١١	١٨	١ر٦٧٤
١٨٥٤	٩٠٠	٧	١٥	٧ر١٧٢	—	—	٣٣ر٣٦٤	—	—	٦٦١	٢ر٥	١١	١ر٧٦٣
١٨٥٥	١٤٠٠	١٠ر٥	١٢	١١ر٠٣٢	—	١٢	٤١ر٩٠٢	—	—	١ر٢٠٤	٤ر٥	٨	٣ر١٠٦
١٨٥٦	١٦٠٠	١ر٥	١٣	١٢ر٩٢٠	—	١٠	٦٣ر١٩٧	—	—	١ر٣٥٣	١ر٥	١٣	٣ر٩٢١
١٨٥٧	١٨٥٠	٢	١	١٥ر١٤٢	—	—	٧٩ر٧٨٨	—	—	١ر٤٩٠	٨ر٥	٦	٥٤٧٠

جملة المبيعات فى ١٣ سنة ٣٠٣ر٨٥٢ جنيها وجملة الارباح ١١ر٥ بنس ١٦ شلن ١٩ر٨٨٨ جنيه

الفصل الثامن

نوادر الأعضاء ـ الطبقة العاملة تقف مع الحانوت
و « تعرف سبب ذلك »

ANECDOTES OF THE MEMBERS. — THE WORKING CLASS STAND BY THE STORE AND THEY "KNOW THE REASON WHY"

من المفيد ومما يدعو للارتياح أن نلاحظ الاجابات التى يقولها عادة الأشخاص الذين يخدمهم الحانوت ، فقيل لسيدة لها نحو ٥٠ جنيها فى الحانوت أن « الحانوت قد يفلس » وكان هذا القول من أناس يتمنون ذلك ، فكان ردها « حسنا فليفلس ، لقد دفعت شلنا واحدا ولى الآن ٥٠ جنيها ، وسينهار الحانوت إذا انهار ذاهبا بأمواله هو » ٠ وهذه النوادر شائعة ، فما أكثر الفقراء الذين حاولوا التلاعب بثقتهم فردوا على دعاة الفزع الذين حاولوا هز ثقتهم فكانت اجابتهم « حسنا اذا انهار فلن يأخذ منى شيئا فقد دفع لى أكثر مما أودعت فيه » **ولا تدل هذه الاجابات على الشعور الطيب فحسب بل تدلعلى كرم الشعور والاعتراف بالجميل ، والواقع ان كل الخدمات العامة تقابل احيانا بالجحود ، ويصادف كل إنسان هذه الجحود فى بعض الأوقات من جانب معارفه بل وأصدقائه الحميمين ، فلا عجب أن يجحد الناس الذين لا تعرفهم وتتصدى لخدمتهم ، وفى جميع العلاقات البشرية يتعلم الإنسان أن ينظر فى كلا الناحيتين حتى لا يدهمه مالا يحب ، وهو يجد فى كل تجمع كثيرين لا يستطيع احترامهم ولا يستحقون الاحترام ، لكن يوجد كثير من الفقراء يتصفون بالولاء والثقة والاعتراف بالجميل ويعملون بجد ودأب واخلاص ، جماعات من الرجال والنساء تحبهم وتحترمهم لما يبثون فى نفسك من شعور المودة ٠**

ويجب الا تغيب عن ملاحظتنا حقيقة أخرى لا يعيها إلا من له خبرة كبيرة وهى أن الناس الذين تنتظر منهم أن يساندوا حركة ما ويساعدوها نادرا ما يفصلون ذلك ، فالذين تعتمد عليهم أكثر الاعتماد والذين تختارهم لتوجه لهم النداء هم أنفسهم الذين يخدعونك أو يتراجعون عن المساعدة حين تنتظرها أو حين تدعو اليها الأزمات ٠

وقد ظهرت آثار الحانوت فى تحسين أحوال أعضائه المالية فى حالة أحدهم ويدعى ديك Dick ، ظل يعيش ثلاثين عاما فيما يشبه القبو ولم يتخلص أبدا من الديون ، وفى صباح يوم من الأيام أدهش بائع اللبن الذى يشترى منه عادة حين طلب منه استبدال ورقة نقدية بخمسة جنيهات بنقود

صغيرة ، والواقع أنه لم يمسك فى يديه ورقة نقدية بهذه القيمة من قبل وأحس بالفخر حين أظهر للناس ممتلكاته ، ويملك ديك الآن فى الحانوت ٢٠ جنيها ، ويلاحظ أن أغلب من لهم أرصدة كبيرة أناس لم يدفعوا سوى شلنات قليلة ، أما باقى الرصيد فهو من تراكم الأرباح · واستقى كاتب هذه السطور الحالات التالية من دفاتر الحانوت عام ١٨٥٣ وابلغها لجريدة « ليدر Leader » ·

العضو رقم ١٢ ـ انضم الى الجمعية عام ١٨٤٤ وظل مدينا لأحد التجار دائما وكان ينفق فى متجره من ٢٠ الى ٣٠ شلنا أسبوعيا وبلغت ديونه فى وقت من الأوقات ٣٠ شلنا ، ومنذ انضمامه لجمعية الرواد ساهم بمبلغ ٢ جنيه و١٨ شلن وأخذ من الجمعية أرباحا قدرها ١٧ جنيه و١٠ شلن و٧ بنس ومازال له ٥ جنيهات فى الجمعية ، **وهكذا حصل على طعام أجود نوعا وربح ٢٠ جنيها ولو أن جمعية من هذا النوع فتحت أبوابها له فى مقتبل حياته لكان لديه الآن مبلغ كبير ·**

العضو رقم ٢٢ ـ انضم للجمعية منذ بدايتها وكان قبل ذلك مدينا دائما لأحد التجار وظل مدينا لمدة ٢٥ عاما ، وكان ينفق فى متجر هذا التاجر نحو ١٠ شلنات أسبوعيا وبلغت ديونه ٤٠ أو ٥٠ شلنا ، ودفع فى الجمعية ٢ جنيه و١٠ شلن وأخذ منها ٦ جنيه و١٧ شلن و٥ بنس ومازال له فيها ٨ جنيه و٣ بنس ، ويرى أن نظام الشراء بالأجل جعله يهمل الادخار ، وحرم أسرته من أن تعنى بالتوفير كما يجب حين تضطر الى شراء كل شىء نقدا ، **وهو يتفق فى ذلك مع العضو رقم ١٢ فى القول بانه منذ انضم للجمعية تمتع بمزايا كثيرة فله مكان يذهب اليه بدلا من الذهاب الى مكان عام أو الى بار ، بل يذهب الى مقر الجمعية للحديث ومعرفة الأنباء واكتساب المعلومات ·**

العضو رقم ١١٤ ـ انضم الى الجمعية عام ١٨٤٨ ودفع ١٥ شلنا وأخذ ١١ جنيه و١٤ شلن و١١ بنس وله فى الجمعية ٧ جنيه و٢ شلن و١١ بنس ، **وربح ١٨ جنيها فى سنتين ·**

العضو رقم ١٣١ ـ انضم الى جمعية فى بدايتها عام ١٨٤٤ ، ويقول أنه كان دائما مدينا للتاجر الذى يعامله طوال ١٤ سنة وكان ينفق ٩ شلنات

فى المتوسط أسبوعيا لدى متجر هذا التاجر الذى كان يدينه بما يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ شلنا ، ودفع للجمعية مساهمات فى أوقات مختلفة بلغت ١ جنيه و١٨ شلن و٤ بنس وأخذ ١ جنيه و١٢ شلن و١ بنس وله فيها ٣ جنيه و١ شلن و١٠ بنس ، **ويرى أن نظام الائتمان هو سبب فقره لأنه منذ انضم للجمعية زادت رفاهيته المنزلية وانه لولا انضمامه للجمعية لكان قد اضطر الى اللجوء لمساعدة الكنيسة ٠**

أى أن الأعضاء تمتعوا بالمزايا التى تعود عليهم من أى جمعية لمساعدة المرضى وجمعية للادخار معا ، فتعطى الجمعية لأعضائها المال الذى ادخروه »(١) ٠

وظلت إحدى الأمهات ترسل طفلها لشراء حاجياتها من متجر مجاور وأخيرا رأت أن ترسله للشراء من الحانوت وكان يبعد عن منزلها نحو ميل ، **وسأل الطفل أمه لماذا ترسله الى دكان بعيد بينما يوجد آخر مجاور ، وشرحت الأم له أن الربح الذى يحققه الحانوت سيعود إليهم وفهم الطفل الدرس وأخذ يذهب كل صباح ليأتى بالطعام للأفطار وتنتظر الأسرة عودته ، وكما يقول سير جيمس جراهام كانت الأم والطفل يعلمان سبب ذلك** ، وتقول زوجة جزار انها بدلا من أن تأخذ دفتر الحساب معها تأخذ نقودا لدفع ثمن مشترياتها ففى جيبها نقود ولها فى الجمعية نقود ، ولأحد الأعضاء ٥٠ جنيها فى الجمعية وكل المبلغ من الأرباح المستحقة له ، وقد سحب كل ما كان دفعه أولا ، وحدث أن سحبت امرأة من مدخراتها ٥ جنيهات لا لأنها تحتاج الى المبلغ لمناسبة خاصة بل لمجرد الشعور بالارتياح والسرور لحيازتها ٥ جنيهات ، وتقول انها أول مرة فى حياتها تجد فى يدها هذا المبلغ ٠ وكان لأحد من يتعاملون مع الحانوت زوجة لا تؤمن بالتعاون ، واقتنعت بسهولة بأن الحانوت غير مأمون ، ولذا سحبت مدخراتها من الحانوت وأودعته فى بنك الادخار ايثارا للسلامة ، ولم يلبث البنك أن أفلس بعد قليل ، وحفزتها هذه الكارثة الى الثقة فى الجمعية وجمعت كل ما تبقى لها فى بنك الادخار وأودعته فى الجمعية حيث ظل فيها ٠

---

(١) نشرت هذه الحالات فى جريدة تشامبرز جورنال

ويقول جورج مورتون George Morton وهو شيخ جاوز الستين أنه لولا الحانوت لما كان لديه الا أن يلجأ الى احد بيوت الفقراء ، لكن الأرباح التى اخذها من الحانوت كفلت معيشته طوال الأحد عشر عاما الأخيرة من عام ١٨٤٥ الى عام ١٨٥٦ فتلقى فى هذه المدة أرباحا بلغت ٦ بنس ٣ شلن ٧٧ جنيه وبقى له ١١ جنيها بينما لم يدفع فى الجمعية أكثر من ٥ر٧ بنس ١٦ شلن ٥ جنيه .

وتشهد مسز ميلز **Mrs. Mills** وهى أرملة بأنها ذهبت الى الحانوت لتشترى لحما من نوع البفتيك لكنها لم تجد ، ونظرا لأنها كانت تريد هذا اللحم لشخص مريض فقد ذهبت الى السوق واشترت رطلا ونصف وعندما وصلت الى منزلها وزنت اللحم فوجدت الرطل يزن ١٤ أونز(١) ونصف الرطل يزن ٧ أونز فقط ، لذلك اعترفت السيدة بأنها إذا ذهبت الى الحانوت ولم تجد فيه اللحم المطلوب فإنها لن تشترى من أى مكان آخر ، وستنتظر لحين توافر اللحم بالحانوت وهذه شهادة بحسن معاملة الحانوت ..

وعلى ذكر اللحم أقول اننى كنت أقف فى النافذة العليا للحانوت منذ أيام فرأيت جزار الحانوت قادما من مذبح الجمعية ومعه عربة محملة باللحم ، وعندما نظرت الى فاتورة رئيس الجزارين وجدت أنه يقول فيها أنه « ذبح أربع بقرات ونصف » فأخذت أفكر بأى طريقة تعاونية استطاع أن يذبح نصف بقرة ، وعلمت منه أن أحد الجزارين فى البلدة كان يحتاج الى نصف بقرة لبيعها فى السوق وكان الحانوت يحتاج الى أربع بقرات ونصف وهكذا اقتسم البقرة الخامسة معه وهذا ما يعنيه بقوله « نصف بقرة » .

ولا تقبـل جمعية تليكولترى التعاونية Tillicoultry Co-operative Society أى عضو غير حسن السلوك ، وحدث أن سمح لربة منزل بعضوية الجمعية ثم حرمت منها ولشركة المخابز فى المكان نفسه قواعد مماثلة(٢) .

---

(١) يقول جورج جيكوب هولى اوك أن من الحكايات النادرة التى كانت تروى أنه كان يوجد فى السوق التجارى اتفاق فى الغش فى المعاملات ومما يؤيد ذلك أنه فى حالة السيدة المذكورة أوضحت أنها قد اشترت رطل ونصف رطل ولما رجعت الى دارها وجدت أن التاجر غشها فى ٢ أونز فى الرطل ، وأونز فى النصف رطل حيث أن الرطل الانجليزى ١٦ أونز .

(٢) حسب القواعد ٥ ـ ١٨٤٦ للجمعيةالمذكورة .

ويقدم حانوت روتشديل مساعدات فرعية لكنها قيمة فيما يتعلق بتحقيق استقلالية المرأة ، فيسمح للنساء بعضويته وبالتصويت ، ويجوز أن تنضم المرأة سواء كانت متزوجة أم غير متزوجة ، وتدخل كثير من المتزوجات عضوية الجمعية لأن أزواجهن قد لا يجدون الوقت أو الحماس اللازم وتدخل غيرهن على سبيل الدفاع عن الذات حتى يمنعن الأزواج من انفاق المال على الشراب ومعلوم أن الزوج لا يستطيع سحب المدخرات إلا بعد موافقة الزوجة وتوقيعها على طلب السحب ، لكن طبقا للقانون القائم يستطيع الزوج أن يستولى على المال باجراءات قانونية غير أن هذه الإجراءات تستلزم وقتا يرجع الزوج فى غضونه الى عقله ورشده ٠

وكثير من غير المتزوجات لهن مدخرات فى الحانوت وهو ما يثقل كفتهن ويجعل لهن قيمة عند الزواج فالشاب الذى يبحث عن زوجة عاقلة يجد أن البحث فى دفاتر الحانوت هو أحسن وسيلة يسترشد بها فى اختيار تلك الزوجة ، ومن ناحية اخرى فإن عادة الاقتصاد الشريف التى يكتسبها الشبان من اعضاء الجمعية يجعل من الاحتمالات البعيدة أن يلجأ الشاب الى اختيار فتاة نشطة ليتزوجها من أجل أن يعيش حياة الكسل على مدخراتها أو كسبها كما يحدث فى مناسبات وأماكن أخرى(١) ٠

فما هى الصفة التى تجعل المرأة الفقيرة تشق طريقها بجهدها ؟ لا تفعل السيدات ذلك عادة فما أكثر حوادث الافلاس فى لندن التى كان سببها اهمال السيدات ، والمرأة الفقيرة التى ولدت وفيها تلك الصفة أو التى اكتسبتها تعتبر كنزا وانتصارا للتربية الاجتماعية وحسن التدبير ، ويستطيع الكثيرون من الطبقة العاملة أن يقولوا كم هو صعب الوصول الى تلك النتيجة ، وفن المعيشة فى حدود دخل الإنسان موهبة نادرة ، والمرأة التى تملك هذه الموهبة يمكنها العيش بجنيه فى الأسبوع ، ومن لا تملكها تظل فقيره ولو كان دخلها عشرين جنيها ، وقد أراد بيتر نوكس **Peter Noakes** وهـو يحس التعب

---

(١) كمـا جـاء فى خطـاب س٠ هـ٠ مسـجراف **S.H. Musgrave** الذى قراه سيرايرسكين بيرى **Sir Erskine Perry** فى اجتماع عام عقد فى ٢١ شـارع ريجنت ، لندن يوم ٣١ مايو ١٨٥٦ لبحث القوانين الخاصة بممتلكات النساء المتزوجات – مجلة تعديل القوانين رقم ١٤ ص٩٤ **Law Amendment Journal**

من أن يظل مدينا باستمرار أن يجعل زوجته تتقدم فى الدنيا أسبوعا ، وود لو استطاع أن يسدد ما عليه للتجار ويشطب رصيده المدين من دفاترهم ، فهو يعلم أن التاجر الصغير لن يستمر إلا إذا سدد زبائنه ما عليهم ، فعكف سرا على الادخار قليلا قليلا ، وفاجأ زوجته يوما بأن أعطاها ضعف الأجر كى تشترى ما يلزمها نقدا ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد وجد زوجته مدينة فى الأسبوع التالى كالمعتاد ··· فاشـتكى من ذلك وكان ردها نفس القصـة الخالدة المعروفة فى أوساط الطبقة العاملة « ماذا تستطيع أن تصنع ؟ What could she do ··· ان فاتورة مسـتر لاست عن حذاء تومى لم تسـدد ، وحساب سترة بيلى طال كثيرا حتى خجلت منه ، وحـذاء جين الصغيرة انفتح وخرجت منه أصابعها ، وبولى المسكينة صـارت فضيحة الأسرة لا حتياجها لرداء جديد ، وهى نفسها ـ أى مسز نوكس ـ أنها تفضل المكث فى المنزل الى الأبد بدلا من الخروج بقبعتها القديمة التى يجب أن تتوارى عن الأنظار « وأفحم بيتر المسكين فهو لم يفكر مطلقا فى هذه الأشياء بل يستيقظ مبكرا ليذهب لعمله ويعود فيذهب الى فراشة دون تفكير فى أى شىء بالمنزل » فماذا يستطيع بيتر عمله ؟ فعل الشىء الوحيد الذى يجب عليه صنعه فاعترف بأن زوجته لابد وأنها تعرف أحسن منه وأنه شديد الغباء وقبلها تأكيدا لتوبته ووعدها بأن يدخر لها أجر أسبوع آخر وستحاول ما تستطيع مرة أخرى ، وأمكن لبيتر فى خلال بضعة أسابيع ومن خلال مزيد من العمل والامتناع عن شرب البيرة أن يدخر أجر أسبوع ، لكنه وجد وياللأسف أن صانع الأحذية أرسل فاتورة أخرى وكذلك الترزى وأن سراويل السيد تومى أصبحت قصيرة عليه وأن سترة بيلى الصغير تآكلت عند الكوع وأن حذاء جين مثقوب يدخل فيه الماء وأن مس بيلى (بارك الله فيها) مازالت فضيحة الأسرة بردائها ، وأن مسز نوكس رغم أنها فى نظره ليست صغيرة ولا جميلة كما كانت تبدو يوم الأحد الماضى مازالت تقول أن قبعتها كريهة · نعم لا أحد مرعب مثلها فى الجيرة ويجب أن يشعر بالخجل إذ يدع زوجته فى هـذه الحالة » ، وهكذا استمر دفتر المديونية للبقال واستمر بيتر يأكل جبنا جافا خشنا كالصمغ ، واستمرت زوجته تشترى شايا كأنه غلى واستهلك مرة من قبل ، وبنا طعمه كالذرة المحروقة ، وظل حذاء تومى خلقا ولم تحصل مسز نوكس أبدا على ٦ بنسات تفرج بها عن نفسها ، وأحس بيتر بالعجز واليأس وقرر أن يشرب بينت من البيرة بدلا من نصف بينت فمهما كان الأمر فلن تصبح

الأمور فى المنزل أسوأ مما هى، وما لبث أن فقد الاهتمام بالشئون العامة ، وهل يستطيع أن يساعد الناس من عجز أن يساعد نفسه ؟ كيف يتحدث عن الاستقلال من صار عبدا لصانع الأحذية والترزى ؟ وكيف يشترك فى جمعية سياسية أو اجتماعية من لا يستطيع أن ينظر فى وجه البقال ؟ لقد أصابه التدمير والانهيار مرتين ، فلا هو يصلح للبيت ولا للأبرشـية ، وهكـذا كف عن محاولات التعامل نقدا ، وإذا كانت الزوجة تستطيع أن تتحمل كل حرمان عندما يمرض الأطفال أو يتعطل الزوج عن العمل ألا يمكنها تحمل نصف حرمان من أجل الاستقلال ، ولو فعلت بدافع الحب لأصبحت آلاف الأسر الفقيرة حاليا تمتلك شيئا ما ، لكن أن تحرم أسرتك حين تملك وأن تقيها الحرمان حين لا تملك أمر يتطلب حكمة وقوة ارادة وشجاعة وبعد نظر وكلها صفات تبديها نساء كثيرات ، لكنها مازالت نادرة بحيث لا يملك الإنسان إلا أن يعجب بتعاونيى روتشديل الذين علموا أسرا كثيرة فن التخلص من الديون والفخر بالبقاء هكذا أحرارا من الدين ٠

وعلى أعداء التعاون أن يفكروا فى هذه الحقيقة ويتعلموا الحكمة ، وعلى أصدقاء التعاون أن يفكروا أيضا فيها ويستمدوا الشجاعة وهى أن الأعضاء يتعلمون عادات الادخـار فى وقت قصـير حين ينضـمون الى الجمعيات ، وهى عادات لم يفلح نظام التنافس فى تعليمها لهم طوال أربعين عاما ٠

الفصل التاسع

قواعد وأهداف الجمعية

RULES AND AIMS OF THE SOCIETY

عارض مؤسسو الجمعية حصول رأس المال على كل الأرباح الناشئة عن المتاجرة ، أما الوصول الى طريقة يحصل بها الأشخاص الذين تسببوا فى هذه الأرباح على تلك الأرباح فمشكلة تتطلب حلا ، وبعد أن اجتمعوا عدة مرات لغرض التوافق مع القانون ، اقترح مستر تشارلز هوارت نظام توزيع الأرباح على المشتريات ، فبعد خصم مصروفات الإدارة والفوائد على رأس المال المستثمر بواقع ٥٪ توزع باقى الأرباح كل ربع سنة على الأعضاء بنسبة مشترياتهم أو معاملاتهم مع الجمعية ، وظلت هذه الخطة من ملامح حانوت روتشديل ٠

وتوزع الأرباح كل ربع سـنة من الإيرادات الصافيـة لكل المبيعات بالتجزئة من كل قسم بعد سداد :

١ ـ مصاريف الإدارة ٠

٢ ـ الفائدة على القروض ٠

٣ ـ استهلاك قيمة الأصول الثابتة ٠

٤ ـ ربح رأس المال المكتتب به ٠

٥ ـ زيادة رأس المال للتوسع فى النشاط ٠

٦ ـ ٥ر٢ (من الباقى بعد خصم ما تقدم) لأغراض التعليم ٠

ويوزع الباقى على الأعضاء بنسبة مشترياتهم أثناء ربع السنة ٠

وأنشأ الرواد منذ باكورة عملهم « احتياطى استهلاك » يتألف من رسم الدخول الذى يدفعه العضو وقدره شلن واحد ، وما يخصم من آخر جنيهين يستردهما العضو المتقاعد بواقع شلن من كل جنيه ، والربح الناشىء عن مشتريات غير الأعضاء ، ويخصص احتياطى الاستهلاك لاستهلاك الأصول الثابتة ، ويخصص فى كل القوائم المالية هامش كبير لاستهلاك الأصول كما يقدر رأس المال الثابت عند الجرد بأقل من قيمته الحقيقية ، بحيث إذا فشلت

الجمعية حصل كل مكتتب بمبلغ جنيه واحد مستثمر فى الجمعية على ٢٥ شلنا ٠

ويلتزم العضو الجديد الآن بشراء خمسة أسهم من رأس المال قيمة كل سهم جنيه واحد ويدفع شلنا واحدا عن كل سهم عند الانضمام وثلاثة بنسات أسبوعيا بعد ذلك أو ثلاثة شلنات وثلاثة بنسات كل ربع سنة حتى يستكمل سداد ثمن الأسهم وقدره خمسة جنيهات ، وتضم الى هذه الدفعات كل الأرباح التى تستحق للعضو من معاملاته وما يستحق له من فوائد بواقع ٥٪ وتحسب الفوائد على كل جنيه يستكمل نتيجة لهذه الدفعات أو لا تصرف الأرباح والفوائد للعضو بل تقيد لحسابه وتحسب من ثمن الأسهم حتى يتم سداد الخمسة جنيهات ٠

ولمجلس الإدارة حق إيقاف أى عضو يسلك سلوكا ضارا بالجمعية ، وللجمعية العمومية حق فصل مثل هذا العضو ، ويصعب جدا على العضو المفصول أن ينضم مرة أخرى للجمعية ٠

وتستطيع أية جمعية تعاونية أن تشترى ما تشاء من جمعية الرواد من خلال عضو فيها يصبح أيضا عضوا فى جمعية الرواد ٠

ويجوز للعضو إن ألمت به ضائقة أن يسحب أى مبلغ له فى الجمعية فوق جنيهين وذلك بموافقة مجلس الإدارة ، وفى ازمة عام ١٨٤٩ قدمت طلبات كثير بسحب كل المبالغ ما عدا جنيه واحد ٠ ونادرا ما يسأل أى عضو من أعضاء مجلس الإدارة عن الشئون الشخصية لطالبى السحب لكن تطوع بعضهم ليحكى الظروف القاسية التى اضطرتهم لذلك مما جعل أعضاء المجلس يقدرون أهمية التعاون كطريقة للتخفيف من متاعب الناس ، ويرجع أعضاء مجلس الإدارة حتى الآن الى تجربة تلك السنة عند الدفاع عن انجـازات الجمعية ، وللأعضاء حق سحب أى مبلغ فوق خمسة جنيهات بحسب جدول الاخطارات التالى :

شلن	جنيه			
١٠	٢			فورا عند تقديم الطلب للمجلس
١٠	٢	الى	٥ جنيهات	باخطار اسبوعين
—	٥	»	١٠	باخطار ٣ اسابيع
—	١٠	»	٢٠	باخطار ٤ اسابيع
—	٢٠	»	٣٠	باخطار ٥ اسابيع
—	٣٠	»	٤٠	باخطار ٦ اسابيع
—	٤٠	»	٥٠	باخطار ٧ اسابيع
—	٥٠	»	٦٠	باخطار ٨ اسابيع
—	٦٠	»	٧٠	باخطار ٩ اسابيع
—	٧٠	»	٨٠	باخطار ١٠ اسابيع
—	٨٠	»	٩٠	باخطار ١١ اسبوعا
—	٩٠	»	١٠٠	باخطار ١٢ اسبوعا

ولا يحق لأى عضو أن يمتلك اسهما باكثر من ١٠٠ جنيه(١) فى الجمعية ولا ان ياخذ فوائد اكثر من ٣٠ جنيها ، ويجوز لمجلس الإدارة الحصول على قروض لا تزيد عن اشتراكات الأعضاء المدفوعة بمقدار أربع مرات ٠

وتســـــوى كل المنازعات :

١ ـ بمعرفة أعضاء مجلس الإدارة ٠

٢ ـ او بالتماس للجمعية العمومية ٠

٣ ـ او بالتحكيم ٠

I. That human Society is a body consisting of many members, the real interests of which are identical.

II. That true workmen should be fellow-workers.

III. That a principle of justice, not of selfishness, must govern our exchanges.

---

(١) صدر قانون من البرلمان بزيادة المبلغ الى ٢٠٠ جنيه ٠

ويجب أن تقدم الشكاوى أو الاقتراحات بشأن نوعية السلع أو أسعارها أو سلوك موظفى الجمعية الى أعضاء مجلس الإدارة كتابة ويسجل هؤلاء قرارهم عليها فإذا لم يكن مرضيا يحال الموضوع الى جمعية عمومية خاصة وقرارها نهائى ۰

وظلت الجمعية عدة سنوات يشغلها موضوع الخضوع لضريبة الدخل ، ففى أغسطس ١٨٥٠ وجه مجلس الإدارة نداء الى محررى الصحف الذين يعتبرون المدافعين عن الفقراء لمعرفة ما إذا كانت الجمعيات التعاونية مسئولة عندما لا يبلغ دخل الأعضاء كأفراد حد المبلغ المحدد وبالطبع لم تكن للاجابات التى تلقتها الجمعية قوة القانون لكن كان لها فائدة التوجيه ودرجت الجمعية على سداد ضريبة الدخل بانتظام لكن نظرا لأن دخل كل عضو على حدة كان يقل كثيرا عن الحد الذى تستحق عليه ضريبة الدخل وتبدأ الحكومة فى جبايتها عند الوصول اليه فقد طلبت الجمعية إعفائها من الضريبة ، لكن مسئولى الضرائب المحليين ألزموا الجمعية بالدفع غير أنهم قالوا للجمعية انه يجوز للعضو أن يطلب الاعفاء واسترداد الجزء الذى يخصه ولاشك أن تقديم طلبات الاعفاء والاسترداد من ١٠٠٠ عضو يستدعى متاعب جمة لأن معظمهم لا يستطيعون كتابتها وعلى الجمعية أن تتولى كتابتها واستيفاءها لهم ، وذهب الأعضاء فى أحد الأعوام الى مكتب الطلبات كجماعة تؤلف هيئة واحدة لكن المسئولين رفضوا ذلك وطلبوا تعيين مندوب واحد عنهم ، وانتهى الأمر بتنفيذ الزام الجمعية بالسداد كالسابق ۰ واستطلعت آراء أعضاء البرلمان الذين قالوا أن الجمعية مسئولة عن الضريبة بينما قال القانونيون إنها معفاة ، وقررت الجمعية فى اجتماع عام فى أكتوبر سنة ١٨٥٦ تعيين السادة سميثز واليس « لرفع التماس ضد ضريبة الدخل » ، وكانا من أمناء الجمعية وحضرا عند نظر الالتماس وقالا أن الجمعية معفاة لأنها مسجلة بموجب قانون جمعيات الصناعة والادخار الذى يمنع أى عضو من الحصول من الجمعية على ما يزيد عن ٣٠ جنيها سنويا تحت أى شكل من الأشكال ، وأجلت القضية ليوم آخر ، وعندما جاء ذلك اليوم سمع السادة سميثز واليس عدة قضايا يتصرف فيها ولكن قضيتهم لم ينادى عليها ، وقيل لهم أن يحضرا فى اليوم التالى ، وفى اليوم التالى أبلغا أنهما سيرسل إليهما فيما بعد للحضور لأن مسئولى الضرائب يتصلون بلندن عن طريق المراسلات ، لكن لم يرسل أحد الى سميثز واليس ، لكن محصل ضريبة

الدخل لم يمتنع عن مطالباته المعتادة وأصر على تحصيل الضريبة مؤكدا للجمعية أنها تستطيع استردادها إذا ثبت أن تحصيلها غير قانونى ، لكن الجمعية لم يسرها هذا التأكيد ورأت أن محصل الضريبة لا حق له فى المطالبة مادامت القضية لم يفصل فيها وحاولت استغلال هذا الوضع القانونى ، فعرض مستر وليم كوبر الأمر على مجلس إدارة الرواد الذى سجل فى محضر جلسة ٤ ديسمبر ١٨٥٦ « تقرر ألا نسدد ضريبة الدخل إلا إذا أجبرنا على ذلك » وجاء المحصل مرة أخرى يوم السبت التالى مطالبا فأخبروه بقرارهم فأجاب بصيغة رسمية « انه لا يريد أية مضايقات فالجمعية لا مناص لها عن السداد ، وإذا لم تستجب لطلبه خلال بضعة أيام فسيضطر الى الحجز على البضائع التى فى الحانوت » ، ولما بلغ مجلس الإدارة قرر فى ١٨ ديسمبر ١٨٥٦ أن « يسير محصل ضريبة الدخل فى إجراءاته كما يشاء » ولم يسر فى هذه الإجراءات حتى اليوم ، بل لم يبد مسئولو الضرائب أى اشارة على أنهم سيتخذون إجراءا ما ٠

ومن أنبل النواحى فى الجمعية ومما يؤكد حرصها على أن يمارس الأعضـاء التحسين الذاتى أنها خصصت جـزءا من أموالهـا للأغراض التثقيفية ، فتقرر تخصيص ٢٫٥٪ من الربح المقرر توزيعه كل ربع سنة على الأعضاء زائدا الغرامات التى تدفع لمخالفة القواعد وتجنيب كل ذلك فى حساب خاص سمى « صندوق التثقيف Educational Fund » لتحسين المستوى الثقافى لأعضاء الجمعية وإقامة مكتبة والتوسع فيها(١) وغير ذلك من الوسائل التعليمية التى تعتبر مطلوبة فى هذا الشأن ٠

---

(١) جاء فى محضر جلسة ٢٠ سبتمبر ١٨٥٣ اقتراح يرفع الى الاجتماع الربع سنوى بمنح المكتبة ٤٠ جنيها ٠

حســـــاب صندوق التثقيف

الإيــــــرادات

	جنيــه	شلن	بنس
تبرعات	١	٢	٦
٢ر٥٪ من الأرباح للصندوق	٤٢٤	١٨	١١ر٥
الكتالوجات والغرامات	١٧	١٩	١١
مبيعات الصحف	٢	١٤	٣
أخــــرى	٣	٧	٩
	٤٥٠	٣	٤ر٥

المصــــروفات

	جنيــه	شلن	بنس
كتب	٣٠٨	١١	٩
تجليـــــــد	٢٠	١٢	٣ر٥
دولاب كتب	٢٥	٩	١١
أجــــــور	٢٨	٥	٤ر٥
كتالوجات وغيـرها	٦	ــ	٦
صحف(١)	١٧	٥	٢ر٥
مصــروفات متنوعة	٢	٨	٨
نقدية بالصـــندوق	٤١	٩	٨
	٤٥٠	٣	٤ر٥

(١) لم تدخل قاعة الأنباء ضمن صندوق التثقيف إلا فى الشهور الستة الأخيرة من عام ١٨٥٧ ٠ وصدر قرار فى الاجتماع ربع السنوى بأن تتاح القاعة مجانا للأعضاء وينفق عليها من صندوق التثقيف ٠

ويلاحظ أن قاعة مطالعة الصحف أو قاعة الأنباء كما تسمى تحتوى من الصحف مالا يقل فى المستوى والعدد عما فى أى من نوادى لنـدن ، وتحتوى المكتبة ۲۲۰۰ مجلدا من افضل الكتب وبينها عدد من اغلى الكتب ثمنا ، والقراءة والاستعارة من المكتبة بلا مقابل ، كما أن قاعة الأنباء جيدة التجهيز ويستطيع العضو أن يقرأ فيها بالمجان طوال ۱۲ ساعة يوميا إن كان لديه الوقت ٠

وافتتحت مدرسة للشباب من عام ۱۸٥۰ الى ۱۸٥٥ بمصروفات شهرية قدرها بنسان ، وابتداء من عام ۱۸٥٥ خصص مجلس الإدارة قاعة تستخدم لعدد من الأشخاص بين عشرين وثلاثين شخصا من سن ١٤ عاما الى ٤٠ عاما بغرض التعليم المتبادل وغير ذلك من أنواع التعليم وذلك فى ايام السبت والثلاثاء ، ويستطيع أى قارىء يقرأ هذه السطور ويفكر فى إنشاء متاجر تعاونية فى بلدته أن يتقدم بطلب الى سكرتير جمعية الرواد العدول ، تودلين ، روتشديل ليحصل على القوانين السارية الآن وغيرها من الوثائق المطبوعة والتى تحتوى على التفاصيل التنفيذية التى لم ترد كلها بالضرورة فى هذه الصحائف ، لكن ينبغى على كل من يفكر فى إنشاء منشاة مماثلة أن يقوم بزيارة حانوت روتشديل ، وهذا ما فعله فى السنوات الأخيرة عديد من اعضاء البرلمان ورجال الاقتصاد السياسى وبعض كبار المشتغلين بالقضايا العامة ، ويقابل المسئولون بالجمعية كل الزوار والمستفسرين بالترحاب ، بل أن هؤلاء المسئولين كثيرا ما يسافرون بعيدا عن محال اقامتهم بمسافة ثلاثين ميـلا لحضور اجتماعات العمال المسائية ويقدمون لهم كل المعلومات عن التعاون التطبيقى وكيفية انشاء الجمعيات التعاونية ، ولاشك أن مما يفيد فى نشر التعاون والجمعيات التعاونية أن يتولى رواد روتشديل تدريب من يتولون مناصب المسئولين كى يعملوا فى المدن التى تريد البدء بانشاء متاجر تعاونية بها فيتولوا تنظيم وادارة هذه المتاجر مما يبعد الفشـل والخســارة عن المشروعات التعاونية فى كثير من الأماكن ٠

ويدفع هؤلاء التعاونيين دافع من تضحية النفس فى سبيل خير الآخرين وشعور بوجوب أن تسود العلاقات الصناعية العدالة لا الأثرة لتكون علاقات صحية ، كما أنهم ليسوا حالمين ولا عاطفيين ٠

ولا أدل على ذلك من أن نقتبس فقرة من خطاب كتبه أحد قادتهم وهو مستر سميثز الذى أشرنا إليه فى مكان آخر : « تتضح التحسينات فى أحوال أعضاء جمعيتنا من ملابسهم وتصرفاتهم وحرية التعبير والكلام ، ولا تكاد تصدق ما طرأ عليهم من تغيير بارتباطهم بجمعية تعاونية ، ويعتقد كثير ممن يتمنون لنا التمنيات الطيبة أننـا نعتمد كثيرا على أن نجعل من أنفسنـا رأسماليين ، لكن تجربتى مع العمال فى السنوات الست عشرة الأخيرة جعلتنى أعلم أنه كى نجعلهم يعملون متحدين من أجل هدف معين يجب أن يرتبطوا معا بسلاسل ذهبية وهى سلاسل من صنعهم هم » ٠

وعقد فى روتشديل عام ١٨٥٥ مؤتمر تعاونى وشكلت لجنة لتنفيذ بعض القرارات المتفق عليها ٠ وأصـدر ابراهام جرينوود رئيس الجمعية وجيمس سميثز سكرتيرها إعلان مبادىء ينظم عمل اللجنة ، وفيما يلى هذه المبادىء التى تشرف التعاون :

أولا : المجتمع الإنسانى كيان مكون من أعضاء كثيرين مصالحهم الحقيقية متماثلة ٠

ثانيا : الرجل العامل حقا يجب أن يكون زميلا حقا ٠

ثالثا : يجب أن تحكم علاقاتنا مبادىء العدالة لا الأنانية ٠

ونعتقد أن هذه العبارات الثلاث توضح فى نبالة مقدار سمو أخلاقيات التعاون فوق أخلاقيات التنافس ، وإلا متى أصدرت منشأة تجارية بيانا مثل هذا بل ومتى نفذته وهو الأهم ؟

وانعقد مؤتمر عام ١٨٥٥ التعاونى فى روتشديل بناء على دعوة من الرواد العدول وجاء مندوبا عن لندن مستر لويد جونز(١) **Lloyd Jones** الذى ساعد الجمعيات التعاونية كثيرا وقدم لها خدمات جمة ٠

---

(١) هو مدير فرع مانشستر للوكالة التعاونية المركزية بلندن ، وهو يزور كثيرا جمعيات شمال انجلترا ويخطب فى اجتماعاتها السنوية ، وفى هذه المناسبات كما فى المؤتمرات التعاونية العديدة بلندن ومانشستر وروتشديل وليدز وبورى كان له أثر كبير فى تطوير الفكرة التعاونية ، وقد أنشىء قسم البيع بالجملة بجمعية روتشديل بناء على نصيحة منه ٠

وفى هذه المناسبة وبالاضافة الى البيان الذى أصدرته جمعية روتشديل عن مبادئها وأهدافها الجماهيرية وهو البيان الذى اكسبها امتيازا على سائر الجمعيات الأخرى · انتهزت الجمعية هذه الفرصة فأشادت بمجهودات الآخرين ·

« انهم مقتنعون بأن جمعية النهوض باتحادات العمال طوال فترة وجودها الفعالقدمت خدمات جليلة لقضية التعاون بأن قامت بتجميع كل أنـواع المعلومات النافعة التمينة ونشرها فى ارجاء البلاد بين مختلف الهيئات التعاونية ، وبالاصرار دائما على توجيه عناية البرلمان من خلال الأعضاء العاطفين على القضية الى العقبات القانونية التى تقف فى طريق الحركة ، بالمساعدة فى الحصول على تعديلات فى قوانين جمعيات الأصدقاء لمنح المزيد من حرية العمل والضمانات للرجال الذين يبدأون المشروعات التعاونية ، ولم تقتصر جهود الجمعية على كل ذلك بل وضعت لوائح نموذجية تصلح لجمعيات التوزيع وجمعيات الإنتاج على السـواء تسـهيلا لتسـجيل جميع الهيئات التعاونية تسجيلا صحيحا وقانونيا وضمانا لأعلى درجة من الدقة القانونية بأقل تكلفة ممكنة وقدمت الجمعية بالاضافة الى ذلك وباستمرار المشورة التعاونية بلا مقابل للجمعيات التى تحتاج اليها ويجب الاعتراف بأن ذلك أمر عظيم القيمة للهيئات العمالية ·

« وتشعر جمعية الرواد العدول بروتشـديل شـعورا عميقا بقيمة الخدمات التى يقدمها للتعاون مجلس جمعية النهوض باتحادات العمال ، وأن الاعتراف الكامل والأكثر قبولا يقضى على الرواد بالقول بأن أفضـــل ما يصنعونه هو أن يحاولوا مواصـلة العمل الذى بدأته جمعيــة النهوض باتحادات العمال وأن يصلوا إن أمكنهم بالأهداف التى لم تتمكن من اتمامها الى حد الكمال » ·

وما من شهادة بالاعتراف بالجميل للخدمات المقدمة الى العمال أنبل من تلك الشهادة الموجهة الى السادة الذين عرفوا فى لندن باسم « الاشتراكيين المسيحيين ، وهو البروفيسور موريس Professor Maurice ، مســتر فانستيتارت نيل Vanstittart Neale ، القسيس شـــارلز كنجسـلى Charles Kingsley ، مســـتر فورنيفال Furnival ، مســتر لودلو

Ludlow وغيرهم ، وتحت إشادهم الحكيم وبدعم من أموالهم وجهودهم من اجل « النهوض باتحادات العمال » – وهى جهود سيقدرها الناس كلما ازدادوا علما بها وبعطف هؤلاء وكرمهم وصبرهم وخدماتهم الغالية – سارت الأمـور وتوجت بكلية الرجـال العـاملين Working Men's College فى لندن كدلالة على حبهم الصادق للناس ٠

وتعاملت جمعية روتشديل لسنوات عديدة مع منشأة « المتعهد العـام The Universal Purveyor التى أنشأها ج٠ ج٠ سانت اندريه(١) مؤلف « مستقبل الجمعيات التعاونية فى انجلترا » ، وهو كتاب يتميز بنظرة شاملة وصادقة للتنظيم الصناعى ، ويقول عنه أحد من يعرفونه : « أن مستر سانت اندريه مهما كانت اهتماماته او مبالغته فى تقدير ما يمكن أن نصنعه بالناس كما هم عليه الآن يبدو أن لديه موهبة الرغبة المخلصة فى جمع الجمعيات معا بروح من التعاون بلا انانية مع وضعها فى نفس الوقت فى علاقات صحية مع العالم الخارجى(٢) ٠

ونحن نسجل وبحق أسماء المخترعين والمكتشفين ، ونسجل أسماء من تميزوا فى ميدان الحرب والمعارك وليس أقل من ذلك نفعا أن نسجل أسماء من اكتشفوا أو أتموا أو على الأقل حسنوا فن المساعدة الذاتية بين الناس ومن اقتحموا منتصرين ميدان الصناعة بحسن التدبير والحكمة بينما فشل كثيرون وبادوا ، فكل اسم من هذه الأسماء دليل على استمرار اداء الواجبات بانجاز كامل وهى صفة أثمن للمجتمع من كل فضيلة ، وكان كل عضو من أعضاء الجمعية يعمل متعاونا مع الآخرين ولا تقل قيمته فى ذلك عن أصحاب المناصب فى مجلس إدارة الجمعية ، لكننا لا نستطيع سوى أن نذكر أسماء الذين تقدموا الصفوف آخذين بزمام القيادة فى أعظم تجربة ناجحة قام بها الناس ، ولابد أن مثابرتهم برهان جديد على مقدرة الطبقة العامة ٠

---

(١) دعمها القسيس شارلز ماريوت ، وهو أحد رجال الكنيسة الذين يجمعون الى الصفة الدينية العمل من أجل منفعة الناس ٠

(٢) المبدأ التعاونى لا يخالف الاقتصاد السياسى الصحيح « القسيس شارلز ماريوت ص٣٥ – ٣٦ ٠

وعقدت أول جمعية عامة لمؤسسى الجمعية فى المؤسسة الاجتماعيـــة بروتشديل يوم الأحد ١١ أغسطس ١٨٤٤ وكان أول قرار فى محضر الاجتماع :

تقرر أولا : تعيين الأشخاص التالية اسماؤهم لمباشرة أعمال الجمعية التى انشئت الآن : مسترجون هولت ، أمين الصندوق ، مستر جيمس دالى السكرتير ، مستر ميلز آشورث ، الرئيس ، السادة تشارلز هوارث ، جورج آشورث ، وليم مالاليو أمناء ٠

ثانيا : يعين السادة جيمس تويديل ، جيمس سميثز ، جيمس هولت ، جيمس بامفورد ، وليم تيلور ، أعضاء بمجلس الإدارة ٠

ثالثا : يعين جون بنت وجوزيف سميث مراجعين للحسابات ٠

التوقيع ـ مايلز آشورث ـ رئيس مجلس الإدارة

المحكمون لعـام ١٨٤٤

مســتر جيمس ويلكنسون ، صانع أحذية ، هاى ســتريت ـ مســتر تشارلز بارنيش ، نساج ، سبوتلاند ـ مستر جورج هيلى ، صانع قبعات ، سادنبرو ، مســتر جون جارسايد ، نجــار أثاث ، هاى ســتريت ـ مســتر جون لورد ، نساج ، كرونكى شو ٠

والمحكمون الحاليون (١٨٥٨) هم : توماس ليفسى(١) ، آلدرمان ، روتشديل ، رئيس البوليس سابقا ـ جون جارسايد ، صانع أثاث(٢) ـ الأب جيمس ويلكنسون ، قسيس ـ جون لورد صاحب محل عام ـ صامويل تويديل ، رئيس عمال ٠

ومن المحكمين الأوائل لجمعية التصـنيع التعاونيـة وجمعية مطحن القمح والذين سـنتحدث عنهم فيـما بعــد يبـرز اســم جـاكوب برايت Jacob Bright عمدة روتشديل والذى يحظى باحترام الطبقات العاملة فى لنكاشير ٠

---

(١) كان يعتبر من أبرز رجال الأمن المحبوبين على المستوى الشعبى ٠

(٢) معروف بين قدامى المصلحين الاجتماعيين باسم « الأب جارسايد » ٠

جون هولت (أمين الصندوق) بنيامين رودمان ، جيمس ستاندرنج ، هذه الأسماء ظهرت فى لائحة عام ١٨٤٤ ٠

جون كوكروفت ، هنرى جرين ، جون كرشو ، لائحة عام ١٨٤٨ ٠

وليم كوبر ، أبراهام جرينوود ـ لائحة عام ١٨٥٥ ٠

جورج أدروفت (الرئيس) ، جيمس هيل ، روبرت تيلور ، جون وايتهد ، روبرت هويل ، توماس هولوز ، جيمس جويس هيل ، جورج مورتون ، جيمس ميتول ، جون كليج ـ ظهرت ملحقة بقوائم مطحن القمح ٠

إبراهام هيل (أمين الصندوق) ، جون تويديل ، روبرت ولفندن ، أمناء ـ روبرت لو ، توماس هيل ، جيمس ويتاكر ، أعضاء مجلس الإدارة ـ صامويل آشورث ، مشرف ـ تقويم عام ١٨٥٤ ٠

صامويل فيلدنج ، ديفيد هيل ، جون هولوز ، أمناء ـ بيتر ماكنزى ، روبرت وايتهد ، وليم ايليس ، آدم جريند دود ، أعضاء مجلس الإدارة ـ عن تقويم ١٨٥٥ ٠

جيمس مانوك ، أمين ـ جون سميث ، سكرتير ـ توماس جليج ـ ايزاك تويديل ـ جون ورسنب ، أعضاء مجلس الإدارة ـ ايمريك روبرسكى(١) ، مشرف ـ عن تقويم ١٨٥٦ ٠

ادوارد فاراند ، كاتب ـ عن إعلان المطحن فى تقويم ١٨٥٦ ٠

وليم هو يتهيد ، سكرتير ـ عن مطبوعات إعلانات التصنيع ٠

جون اسبجين ، أمين المكتبة ـ وليم هولت ، صامويل نيوتن ، روبرت جليج ، صامويل جليج ، روبرت هوارث ، توماس هاليول ، لجنة المكتبة ـ عن تقويم ١٨٥٦ ٠

---

(١) شاب بولندى ذكى مطرود من بولندا بسبب النزاع الهنفارى ، وقد التحق بالعمل فى الحانوت وترقى الى أن أصبح مشرفا ، وهاجر مؤخرا الى استراليا ٠

جون ت· و· ميتشل ، السكرتير ـ جون كنويرثى ، أمين ـ جوناثان كرابترى ـ توماس فيلدنج ، توماس تشيتهام ـ صامويل سكوت ، أعضاء مجلس الإدارة عن تقويم ١٨٥٧ ·

جيمس جليج ـ جورج واطسن ـ ماثيو أورميرود ـ وليم بريجس ـ وليم هويل ـ أبراهام هوارد ـ ادموند كيلى ـ توماس ويتاكر لجنة المكتبة ـ عن تقويم ١٨٥٧ ·

وأوردنا هذه الأسماء بترتيبها الزمنى الذى ظهرت به فى الوثائق المشار إليها والمناصب التى شغلها هؤلاء عندئذ ، وسجلنا الأسماء مرة واحدة رغم أن بعضها يظهر مرات عديدة فمثلا تقلد مستر جيمس سميثز مناصب لمدة ١٢ عاما وقد قدم له الأعضاء مؤخرا ساعة قيمة فى سلسلة اعترافا بفضله عليهم ، وظل مستر أبراهام جرينوود فى منصبه بمطحن القمح تسع سنوات ، وظل مستر وليم كوبر من مسئولى المتجر منذ إنشائه ، وانى مدين للشخصين الأخيرين وخاصة مستر و· كوبر ـ السكرتير الحالى ـ بالحقائق الرئيسية التى استقيتها منهما وسجلتها فى هذا الكتاب ·



الفصل العاشر

التعاونيون القدامى ـ لماذا فشلوا
التعاونيون الجدد ـ لماذا نجحوا

THE OLD CO-OPERATORS — WHY THEY FAILED.
THE NEW CO-OPERATORS WHY THEY SUCCEED

« لقد كان إنجازا نبيلا ذلك الذى ينبثق عنه نظام تزيد فيه الأجور وينقص العمل ، والذى يخفف عمل الحرفى ويزيد من النعم الدنيوية ومن أسباب الرفاهية القليلة التى يتمتع بها ، ومع انجاز آخر أكثر قيمة يعلمه بأن يملأ فراغه من العمل بدراسة الفلسفة ومتابعة الأدب والعلم » هذا ما كتبه دكتور تشالمرز Dr. Chalmers .

« هذا الذى يسمونه تنظيم العمل هو ـ إن أحسن فهمه ـ مشكلة المستقبل كله لجميع الذين سيحكمون الإنسان فى المستقبل » وهذا ما كتبه توماس كارليل Thomas Carlyle

« يبدو من التجربة العملية أن ألف مشترك ببنس واحد فما فوق يجلبون إيرادا أسبوعيا قدره خمسة جنيهات ، وفى بريطانيا ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ رجل بالغ ، فإذا أخذنا من هؤلاء ومن النساء اللائى يردن الاشتراك ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ شخص فسينتج هؤلاء ٢٠ر٠٠٠ جنيه أسبوعيا أو ١ر٠٤٠ر٠٠٠ جنيه سنويا ، والآن فإن ١ر٠٤٠ر٠٠٠ جنيه فى السنة بفائدة مركبة تصبح :

	بنس	شلن	جنيـــــــه
فى ١٠ سنوات	١١	١٤	١٨ر٢٣٢ر٤١٣
فى ٢٠ ســـنة	٣	٨	٦٥ر٥٢٢ر٥٩٩
فى ٣٠ ســـنة	٨	١٨	١٨٨ر١٨١ر١٦١
فى ٤٠ ســـنة	٨	١٢	٥٠٦ر٣٢٥ر٨٨٢
فى ٥٠ ســـنة	١	١٥	١٣٣١ر٥١١ر٣٦٥
فى ٦٠ ســـة	٤	١٨	٣٤٧١ر١٢٩ر٩٩٥

ويمكن بهذا المبلغ شراء كل الأملاك فى المملكة ، ولا تفترض للحظة أن ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ عامل سيشتركون فورا وباستمرار ببنس أو بنسين أسبوعيا لهذا الغرض ، لكن هذه الأرقام تثبت أن أقل تعاون من جانب الملايين يغل مالا كثيرا ، وأن تخصيص المبالغ التى تنفق على المشروبات الكحولية والطباق فحسب

يمكن ان يؤدى الكثير من اجل الجنس البشرى » وهذا ما حسبته جمعية ليدز وهى تحاول ان تقنع بالأرقام اولئك الذين لا يقنعهم الجدل ·

« لا تنتظروا وقتا اطول من ذلك على شواطىء نهر الفاقه الكبير النامى باستمرار الى أن ياتى الراسماليين الذهبى لينقلكم عبره ، فسوف تنتظرون حتى تهلكوا واستيقظوا على وعى بانكم تستطيعون أن تصبحوا راسماليين انتم انفسكم وانه يمكنكم بل ويجب عليكم أن تساعدوا انفسكم » وهكذا تنادى جريدة « بيبولز جورنال People's Journal » فى عطف صـــادق على الطبقات العاملة ·

كم نزلت هذه الكلمات الحكيمة على الآلاف العديدة من مواطنينا وكأنها تنزل على « أرض صخرية » ، ولذا سيزداد شعور الجماهير بالتقدير الى رجال روتشديل الذين لم تنزل عليهم بلا جدوى ·

وقد علم التعاونيون القدامى أن التعاون هو السر الذى به يستطيع الفقراء الحصول على الأموال ، لكن جمعية روتشديل كانت وحدها من المهارة بحيث طبقت ذلك عمليا وأخرجته الى حيز التنفيذ ، ففى عام ١٨٣١ قال من يدعى وليم شلمردين ، ويعمل أمين مخزن لجمعيته فى ٧ روجرز رو ، دينزجيت ، مانشستر ، أن أعضاء الجمعية تمكنوا برأسمال ١٢ شلن ٤٦ جنيه واشتراكات ١٠ شلن ٢٦ جنيه من تحقيق ٢ شلن ٢٠ جنيه أرباحا فى ١٢ شهرا وقد شكل الجمعية فى الأصل ٨ أعضاء وانضم إليها حتى نهاية العام ٣٦ عضوا ·

وانعقد المؤتمر التعاونى الثانى بمدينة برمنجهام فى شهر أكتوبر ١٨٣١ ، ويبدو أن المؤتمر الأول عقد فى مانشستر فى شهر مايو من نفس السنة ، وفى تلك السنة ظهرت مجلة التعاونى بلانكشاير ويوركشاير ، وهى مجلة نصف شهرية ثمنها بنس تسمى نفسها المدافعة عن الطبقات النافعة وتحمل هذا الشعار ذا المغزى :

« الأعداد بلا اتحاد لا قوة لهـــا
والاتحـــاد بلا علم لا نفع لـــــه »

"Numbers without Union are powerless —
And Union without Knowledge is useless."

وفى ذلك انذار وتنبيه رغم أن ستة وعشرين عاما من التجربة لم تنتج الحكمة اللازمة للانتفاع به ٠

وأعلن فى المؤتمر التعاونى الثالث المنعقد بلندن عام ١٨٣٥ عن وجود « جمعية الأصدقاء التعاونية فى روتشديل » التى اوفدت مندوبا عنها الى لندن هو المدعو وليم هاريسون ، وأن لها سكرتيرا هو ت٠ لاديمان وعنوانه ٧٠ شارع تشيتهام ، روتشيديل ، وقد تكونت الجمعية فى اكتوبر ١٨٣٠ ، وصار عدد أعضائها ٥٢ عضوا فى عام ١٨٣٢ وتستخدم عشرة من أعضائها وأسرهم ، وتصنع قماش الفانيلا ، ولها مكتبة تحتوى ٣٢ مجلدا ، ولم تناقش أبدا « مبادىء التبادل » وتوجد جمعيتان فى المنطقة المجاورة لها ٠

ووجدت عام ١٨٣٢ جمعية فى بير كاكر سكرتيرها إبليس بيجوت ، وفيها ٣٠٠٠ عضو وأموالها تبلغ ٤٠٠٠ جنيه ، وتعمل الجمعية فى طباعة الحرير والدبلان ٠

ومثلت ستون جمعية فى المؤتمر التعاونى الثالث بلندن ، منها ٩ جمعيات مقرها لنـدن ، ومن بين ممثلى الجمعيات أو سكرتاريها مازالت اسـماء د٠ لوفيت ، ب٠ كازينز ، ت٠ ويتيكار معروفة ٠

فلماذا اختفت كثير من المتاجر التعاونية واحدا تلو الآخر ؟ لم يعرف بعضها كيف يحول الرخاء المالى الى تقدم واقعى فأصابه الملل من النجاح الرتيب ، وفشل البعض حول روتشديل فى السنوات الأخيرة وقيل أن سبب الفشل تعاملها بالأجل ٠

وفشل متجر أولدهام ومتجر بولتون بسبب اضراب عمال الحديد لكن يقال انهما سددا عشرين شلنا عن كل جنيه ، أما متجر برايتون فلم يسدد مثل هذا المبلغ عندما فشل ، وعزى فشله الى انه منح ائتمانا لأعضائه ، وكتبت مسز سـميثز ـ وهو بلا شـك أفضـل مرجـع عملى ومتخصص يقول فى عام ١٨٥٥ : **تتعامل الآن جميع المتاجر تقريبا بالنقد ولا يكاد يشذ عنها استثناءا واحدا ، ونجد أن الجمعيات التعاونية التى بدأت بالتعامل بالأجل ثم رجعت الى التعامل بالنقد تحسنت أوضاعها منذ ذلك الحين ، ونحن ننظر الى دفتر الأجل كأحد أكبر الشرور التى يمكن أن تصيب الطبقة**

العاملة ، لأنه يدفع العامل الى الاستدانه من صاحب الحانوت ويصـــبح دائما متأخرا أسبوعا ويمكن أن نعبر عن ذلك بالقول أنه يأكل العجل وهو فى بطن البقرة » ·

ويفسر ذلك ما كان يشعر به المسئولين عن الجمعية فى روتشديل من خوف إزاء التعامل بالأجل ، وفى أول لائحة ـ تلك الصادرة فى عام ١٨٤٤ ـ نص على توقيع أكبر غرامة على أى مسئول يشترى أو يبيع سلعة بغير النقد مهما كانت المبررات ·

وتمنح جمعية ليفربول التعاونية التى تزداد أهمية ونفعا سنة بعد أخرى : ائتمانا لغاية ثلثى قيمة الأسهم المدفوعة لكل عضو ، ويتبع المتجر الخاص بعمال مصانع برايس للشمع نفس القاعدة ، وهذا نوع من الائتمان المأمون لكنه يتطلب الكثير من الأعمال المحاسبية ومسك الدفاتر ولا يحقق الانضباط الخلقى أو المعنوى الذى يحققه نظام التعامل بالنقد بالنســبة للفقراء ، فهو غير اقتصادى بهذه الصفة ·

ويطلب من كل عامل فى القسم الإنتاجى بروتشديل أن يصبح رأسماليا إما بدفع اشتراكات أسبوعية أو دفعات أخرى كى يحصل على خمسة أسهم فى الجمعية ، ويأخذ كل واحد من هؤلاء الحرفيين حملة الأسهم فوائد ٥٪ على المبلغ الذى يستثمره ، وبعد سداد هذه الفوائد وسداد أجور العمال حسب متوسط الأجور السائد فى المنطقة وجميع المصروفات يوزع الفائض من الربح على العمال بحسب أجورهم ، ويوزع الربح الزائد عن الفائدة بواقع ٥٪ التى تدفع أولا لحملة الأسهم بالتساوى فيما بين حملة الأسهم والعمال ، فيذهب النصف الى حامل الأسهم(١) حسب عدد أسهمه ويذهب النصف الآخر الى العامل أو العاملة بحسب أجره أو اجرها وحصل العمال فى مصانع روتشديل التعاونية فى ينــاير ١٨٥٧ على ربح قدره ٦ بنس ١ شلن على كل جنيه من الأجر ·

ويجب أن نلاحظ فرقا هاما بين توزيع الأرباح التعاونية كما يجرى فى باديهام وروتشــديل · ففى باديهام ســاهم العمال الذين لديهم بعض

---

(١) رغم أن الراسماليين حصلوا على مال مرتين (وهو مثال سىء) فإنهم خضعوا وأخذوا من العامل سهمه بمجرد أن اصبحوا أكثر عددا ·

المدخرات وصغار الرأسماليين الآخرين فى تكوين مال اشتروا به آلات ووظفوا عمالا ، واحتفظ الذين اكتتبوا فى رأس المال بمعظم الربح لأنفسهم ، وأعطوا للعمال الذين استخدموهم أجورا أعلى ووضعا أفضل مما فى المصانع الأخرى · والسبب فى ذلك أن معظم الملاك من العمال ولذا تعاطفوا مع العمال الذين استخدموهم ، ومن ناحية أخرى شركة باديهام للقطن المسجلة بموجب قانون الشركات المساهمة كانت تدفع كل أرباحها الى الرأسماليين أى حملة الأسهم ، والمفروض أن تتبع كل الجمعيات المسجلة بموجب هذا القانون نفس القاعدة ، فليس من خطتها الاعتراف بحق العمال فى الحصول على أية حصة من الأرباح التى ينتجها عملهم وهو المبدأ الذى تتبعه جمعية روتشديل ، واستطاع تعاونيو روتشديل بالحكم السليم والحذر أن ينجحوا برغم العقبات التى وضعها فى طريقهم أفراد طبقتهم بتوجسهم ، ففى الفترة المعروفة عندهم بأسم « ذعر مطحن القمح » ، وافق مستر كوننجهام عضو البرلمان والذى تدين له البلاد بالفضل من أجل التقارير الشخصية القيمة عن اتحادات عمال باريس — على أن يقدم سلفة رأسمالية للمساعدة فى الظروف الطارئة على مطحن القمح ، لكن عندما أريد من الجمعية أن تقدم ضماناتها ليفحصها محاميه ، وهو طلب طبيعى ، عارض مجلس الإدارة فى أن يكون لهم أى علاقة بمحام رغم أن الضمانات كانت كافية وجيدة وهم يعلمون ذلك ·

وسعت الجمعية منذ السنة الأولى لإنشاء حانوتها أن تقيم الثقة فيما بين الأعضاء بأن أثبتت وأوضحت بجلاء أن هناك رقابة قائمة على أمانة المسئولين ، فتوجد أدراج فى متناول عمال البيع وفى أماكن مناسبة لهم بها عملات نحاسية أو قصديرية حسب طبيعة السلع التى يبيعها كل منهم ويعطى العامل منها المشترى عددا يماثل بالضبط المبلغ الذى ينفقه · ويراجع أمين الصندوق والسكرتير فى كل من الحانوت والمطحن وقسم التصنيع أرصدة الحسابات النقدية أسبوعيا بحيث يمكن اكتشاف الأخطاء وتصحيحها بمجرد اكتشافها ، وقد نجح هذا النظام وأدى الى نتائج طيبة ، وتؤخذ من كل مسئول يعمل بالجمعية ضمانة تتراوح بين ١٠ جنيهات و ٢٠٠ جنيه حسب قدر مسئوليته ، ويدفع كل مسئول عن قسم من اقسام الحانوت ١٠ جنيها كضمان ، أو تتحفظ الجمعية على إيداعات المسئول فى الجمعية فإذا كانت ايدعاته لا تكفى فيطلب منه تكملة الباقى بدفعات دورية ، وتدفع الجمعية على الإيداعات التى تحتفظ بها على هذه الصفة فوائد كما فى حالة الأسهم ،

ويعتبر نظام الضمانات هذا نظاما فعالا إذ لا يجد أى إنسان من مصلحته سرقة نفسه ، وكان اعضاء مجلس الإدارة الأول يعاونون عمال الحانوت فى اعمالهم ، ويراعى مجلس الإدارة الاقتصـاد فى كل ما يدخله مـن التحسينات ولذا لم يقرر تخفيض أرضـية مخزن الدقيق إلا عـام ١٨٥٤ تيسيرا على الأطفال وكبار السن الذين يأتون للشراء ·

وكثرت المتاجر التى انبثقت حول روتشديل وحذت حذو حانوتها لكن قليلا منها ما كان يدار بنفس المقدرة أو ما بلغ ولو حدا ضئيلا من النجاح الذى حققه ، ولا يرجع ذلك الى أى عيب فى المبادىء بل الى ضعف كفاءة منفذيها ، واحتياجهم الى الصبر والحكمة والاتحاد وحسن التصرف ، وقد حدث فى أحوال كثيرة أن نجحت المتاجر ، بل نجحت نجاحا باهرا فى نظر أعضائها وحققت أرباحا أكثر مما كان منتظرا حتى أن المسئولين لم يعرفوا كيف يتصرفون فيها وكيف يستغلونها بما فيه المصلحة فأعادوها الى الأعضاء الذين بدأوا فى ادخارها من جديد ، أى أن أعضاء مجلس الإدارة كانت تعوزهم موهبة التوسع فى أعمالهم بما يجعل رأس المال ينتج مرارا ، ويبدو أن نساجى روتشديل قد ولدوا بموهبة خاصة للتعاون ·

ومن أسباب نجاح هؤلاء التعاونيين أنهم اقتصدوا كثيرا فى مصاريفهم التجارية ، فنسبة الماهيا التى يدفعونها الى الإيرادات منخفضة جدا لا تتجاوز ٢٪ ، ويستحيل الاحتفاظ بمثل هذه النسبة فى المدن الكبرى حيث ترتفع الايجارات والأجور وحيث معدل ضريبة الفقراء تمثل عبئا كبيرا ، وكتب لى مستر و· كوبر ردا على سؤال فى هذا الموضوع : « لا أدرى سببا لماذا لا يستطيع الناس فى لندن إنشاء جمعية تعاونية ناجحة كالقاطنين فى الأقاليم ففى بلدة صغيرة يجتمع ١٢ أو ٢٠ شخصا ويتفقون على أن من المصلحة إنشاء متجر تعاونى للمواد الغذائية فيعملون معا وهم مصممون على النجاح وبعد أن يعملوا زمنا ما يقتنع من كانوا يشكون فى إمكانية قيام المتجر وينضموا إليه ، ولا أجد سببا يمنع من أن يعمل عدد من رجال لندن المخلصين نفس الشيء وبذات الطريقة ، **وردا على أسئلة أخرى كتب مستر كوبر : « فى بداية حياة** أى جمعية تعاونية صناعية أو تجارية يجب أن يتزاور الأعضاء أو جمعهم **معا مرات متعددة حتى يمكن جمع المساهمات لإنشاء وإدارة الجمعية ، وحتى يكون الأعضاء على علم بأغراض الجمعية وموقفها واحتياجاتها ،**

وبهذه الطريقة يسهل أن تحصل الجمعية على رأسمال كاف لبدء عملها لأن الأعضاء يشعرون بالثقة فيدفعون مساهماتهم من نفسهم دون الحاح فى المطالبة » .

In answer to other questions, the same informant writes — "At the commencement of a co-operative store or manufacturing society, it is essential that the members be visited or brought together often, so that contributions may be collected to establish and carry on the society, and that the members may become acquainted with the objects, position, and requirements of the society.

ويصعب اتباع هذه الطريقة فى جمع الأعضاء باستمرار فى لندن لكن مع السماح بنسبة مصروفات أعلى قليلا يمكن لنفر من العمال أن يجتمعوا معا ليحققوا النجاح إذا ما تضامنوا واستمروا معا ، ويحتاج الأمر الى نوعية منهم لتصبح لديهم فكرة واضحة عن مصالحهم الشخصية وأنها لا تتحقق إلا بهذه الطريقة ، ولذلك يكتسبون شعورا عميقا بالواجب إزاء طبقتهم التى سوف تتحسن أحوالها بنجاحهم فى مهمتهم ، ولنقارن روتشديل بليفربول مثلا ، ففى روتشديل كوبرى يهتز كجواد فوق جدول خيالى لا شىء ينساب فيه سوى الطين ، وهذه هى كل مناظر البلدة ، وتوجد طبعا كنيسة لها درج مؤلف من بضع سلالم ضيقة ومنحدرة لا تستطيع صعودها الى الكنيسة وإن فعلت فمن الصعب أن تعود أدراجك ، أمابقية البلدة فطرق لا تؤدى الى شىء تزينها مصانع كأنها بنيت قبل أن يشرق فن العمارة ، ولا يوجد بناء واحد فى روتشديل ترتاح إليه العين ، فتشبه البلدة فنجان شاى فى أسفله مجرى ، وعلى حافته مقبرة ، ففى مثل هذا المكان لا يوجد ما يصرف إنتباه الناس عن أن يجتمعوا معا ويعملوا معا ، فالناس هنا متقدمون عن البلدة التى ـ مثلها مثل كثير غيرها من البلدان الصناعية فى الشمال ـ ازدادت أهميتها بشكل أو بآخر ، لكنها لم تعرف بعد وسائل الراحة والعظمة التى تسللت الى برادفورد وليدز وغيرها من المناطق التى كانت منذ عشرين عاما مثل روتشديل لا توحى بتقدم ، ونذهب الى ليفربول بما فيها من أضواء وزحام ومبانيها الفخمة وقاعاتها المفتوحة التى تفوق فى كثرتها وتنوعها وفخامتها ما فى لندن ، وواضح أن الأمر يتطلب مزيدا من الولاء والتجرد لدى القلة التى تريد أن تنشىء متجرا تعاونيا وتسير به

الى النجاح ، ثم لتقارن بلدة إقليمية عادية ثابتة وساذجة ومستأنسة بلندن وما فيها من مباهج جذابة لا تعد ولا تحصى ، فسوف نجد أن الصعوبة تزداد ، فالناس هناك من الذكاء بحيث لا نجد لهم فائدة ، فهل يتوافر فيها أن تجتمع نفر على خطة إصلاح ويتابعونها سنة بعد سنة لا يتخلفون أبدا عن موعد الاجتماع الإسبوعى وسط كل مباهج العاصمة الكبرى ؟ فهناك ديكنز Dickens يلقى خطابا فى درورى لين أو يقرأ كتابه « كريسماس كارول Christmas Carol » فى قاعة سانت مارتن ، وهناك ثاكرى Thackeray يحاضر عن « الأربعة جورج Four Georged » فى سورى جاردنز وسيتلوه مستر سبيرجون ، وسيظهر روبسون فى دور جديد ، ويعرض مستر سوندرز Saunders مسرحية جديدة فى هايماركت ، بينما يلقى الكاردينال وايزمان عظة فى الشارع المجاور ، ويحاول دكتور كومنج Dr. Cumming إثبات أن نهاية العالم ستكون يوم السبت ، وتعزف الفرق الموسيقية الشعبية أيام الآحاد فى الحدائق ، وفى قاعة اكستر تجـــد نيل دو Neal Dow وفى نادى وتنجتـــون جورج رادســون ، هذا الى كريمورن ، وروشرفيــل ، وكيــو ، والمعرض القومى للرســم ، والمتحف البريطانى ، ومجلسى العموم واللوردات ، ومتحف ساوث كنستجتون ، والاجتماعات العامة حيث تسمع من المتحدثين من لم تسمعهم من قبــل ولن تســمع مثلهم بعد ، وكثير غير ذلك من المتع الجذابة ، **وفى وسط كل هذا الحشد من المشاهير والمتع فإن الرجل الذى ينصرف عنها ليتابع فى صبر طحن البن ويراقب بيع الشاى والسكر ويجلس لسنوات فى اجتماعات اللجان لابد أن يتصف بشىء كثير من انكار الذات والتجرد ومراعاة مصالح الناس ، ليفعل كل ذلك وكأنه واجب مفروض عليه أو أحد الشعائر الدينية الملزمة وهذا هو السبب الذى يجعل الحركات الشعبية التى تعتمد على الطبقات العاملة أو المتوسطة لا تلاقى النجاح المنشود ، ولن يتيسر عمل أى شىء إلا إذا جاء رجل حكيم واختار أن ينحاز الى فكرة ما أو جانب ما ويقوم بالالتزامات التى يستدعيها هذا الانحياز كواجب مقدس ، أى أن الأمر يستدعى من العمال الذين يتصدون لمثل هذا العمل أن يكونوا أكثر تفوقا من المستوى العادى للعمال فى لندن كما كان رواد روتشديل أكثر تفوقا من زملائهم عمال روتشديل ولانكاشير ، وبعد ذلك يعمل التعاون عمله ويفرض نظامه الأخلاقى على فقراء لندن وينشر بينهم الرفاهة المادية .**

وتستحق جمعية مطحن القمح فى ليدز وجمعية بأديهام التعاونية الصناعيــة أن يقفا جنبا الى جنب مع جمعية روتشديل كنماذج للنجاح كما يقف التعاونيون فى جــالا شيلز الى جانب رواد روتشــديل ، فكل هــذه الجمعيات انبثقت من الطبقة العاملة وإدارتها الطبقة العاملة وكلها اتبعت نفس الطريقة وخضعت لنفس التطورات ، وكلها اصبحت مثالا يحتذى ، واترك لغيرى تحديد أيها يأتى فى سلم الأولوية قبل الآخر فى تلك الميادين ، ولا شك أن الجمهور يسره أن يسمع عن هذه التجارب اكثر مما تستطيع هذه الصفحات أن تقدم له ٠

٠ وكما أن الفلاحين لم يخضعوا للضغط منذ عدة سـنوات ورفضوا إعلان مقادير محصولاتهم حتى لا تتأثر مصالحهم فى البرلمان بسبب ذلك ، فقد رفض التعاونيون فى بعض المناطق إعلان تقارير عن أعمالهم خشية تدخل مسئولى ضريبة الدخل (لم تعرف قضية روتشديل فى هذا الشأن أو لم تعتبر أنها انتهت) أو لسوء الظن بالحكومة ، وعندى كشف حساب غير مكتمل يبدى فيه مستر ت٠ باركز من تود موردن سبب عدم اكتماله فيورد تلك المبررات ٠ كذلك رفض مســتر ســميثز من روتشديل ، أن يملأ بعض الاستمارات التى طلبت منه استيفائها ٠

وكثيرا ما يحكم أصحاب العمل على عمالهم خطا بهذه الطريقة ، فإذا لبس العــامل بشىء من الذوق ، أو إذا بــدا على مظهره شىء من الرخــاء الاجتماعى ، يستنتج صاحب العمل من ذلك أن العمال يكسبون أكثر من اللازم ويبادرون بتخفيض الأجور ، ويؤثر ذلك التصرف تاثيرا مدمرا على العمال من حيث أنهم يرون أن عادات إهمال النظافة وسوء المظهر وانعدام الذوق فى الملابس هو المدخل الى رفع الأجور أو المحافظة على مستواها ، فكيف يمكن الارتفاع بالعمال الى التدبير والتحسن إذا كان أولئك الذين ينبغى عليهم أن يقودوهم إلى التحسن يوحون إليهم باتباع سياسة التظاهر بمظهر الفقر تجنبا للفقر الحقيقى ، فيحاول صاحب العمل الذى يوحى إليه غروره أو جهله بأن سمو أخلاق وتصرفات عماله فيه تطاول على مركزه ، أن يخفض أجورهم ليخفض بذلك أصواتهم ويذلهم ، ونغير هذا السلوك الآن ، وأصبح أصحاب العمل يفخرون بأن يقول الواحد منهم « جميع عمالى يستحقون المال الذى يأخذونه » بدلا من قوله « نصف عمالى غارقون فى الدين » ، وتسود فى

الجنس البشرى كله الفكرة القائلة بان المســاعدة حق لمن يمكنهم مســاعدة انفسهم ، وسيجد افقر الناس فى الوجود ـ إذا نظر فى الأمر ـ انه يتصرف بلا وعى على اساس من هذا الشعور ، حتى الشحاذ لن يعطى لزميله الشحاذ شيئا إذا شعر أن هذا الشىء لن يؤدى له نفعا ، فما من رجل بر ارتفع أم انخفض يقبل ان يكرر عــدة مرات صب الماء فى غربال ، ويجب أن يتعلم العمال من هذه الحقيقة الشائعة فى كل التجارب لكل الناس أن الإنسان إذا ابدى ميلا للادخار قابل الآخرون هذا الميل بميل الى المعاونة ، وتثبت الإحصائيات الاجتماعية لكل عامل ذكى انه إذا وجد صاحب عمل واحد يخفض أجور عماله خوفا من تطلعاتهم الاجتماعية فالى جانبه كثيرون يتجهون الى تخفيض الأجور لأنهم لا يرون اى نتيجة ولا تحسين فى الأجور المرتفعة ·

ويشهد الكتاب الذين يتحدثون استنادا الى قواعد الاقتصاد السياسى بأهمية ونفع جهود المساعدة الذاتية ، ويقول احد هؤلاء وهو كاتب تدين له الطبقة العــاملة بتصديه للدفاع عنها وتعليمها : « **نعتقد ايضــــا ان هــذه الجمعيات التعاونيــة واحدة من اقوى المؤثرات التى تعمل الآن من اجــل تثقيف الطوائف الدنيا من الناس بحيث تكتسب الحكمة ـ ان لم تكن تكتسب الثروة ـ نتيجة النشاط والانضباط والصبر والمثابرة وكلها صفات ضرورية لإدارة هذه الجمعيات** »(١) ·

ونورد فى هذا المقام كلمات احد اصدقاء الشعب المخلصين ، وهى كلمات قد لا تكون معروفة كثيرا بين الناس ، لكنها حقيقة صادقة لا نزاع فيها :

« سمعت مؤخرا عن خطاط اعتــاد أن يستخدم فى حرفتــه مدخرات عماله بما فيه النفع المشترك للجميع ، وفى مرة من المرات كان لديه نحو الف جنيه عبارة عن مبلغ يملكه احد عماله ، وابلغنى احد رجال الصناعة فى مانشستر انه مستعد وبكل سرور أن يستثمر فى عمله اية مبالغ قد يعهد بها اليه عماله ، لكن ذلك بعيد الاحتمال برغم انه شخصيا على علاقة طيبة معهم ، لأن استثمار العمال أموالهم لدى صاحب العمل يجعلهم مرتبطين

---

(١) و· ر· جريج ، « استثمارات الطبقات العاملة » ، ص١٢٠ ·

بمصالحه ، فينفصلون عن طبقتهم ولو جزئيا ، وهو امر يخالف انتمائهم ، علاوة على انهم يشعرون بارتياب فى ان صاحب العمل سوف يستغل اموالهم لمصلحته ، ولعل كثيرا منهم لا يريدون ان يعرف صاحب العمل مدى ثرواتهم والى اى حد هم اغنياء »(١) ٠

وليس من بين ما كتب عن الجماهير عبارة اصدق ولا انفع لهم مما كتبه مستر ج٠ س٠ ميل J.S. Mill « مضى الزمن فى اوروبا ، بل ربما لم يوجد قط ، حين كانت حياة الحرمان تؤثر ادنى اثر فى جعل الناس عمالا اكثر مهارة او كائنات اكثر تحضرا ، فهذه العبارة تضرب جذور القصور الذهنى فيما يتعلق باحوال الناس التى عاقت ومازال تعوق المحاولات الكثيرة المبذولة لترقية شانهم ، والمشاهد ان السادة فى انجلترا كطبقة ربما هم اقل فتورا وكسلا وميلا للشــهوات من الفقراء ، فلم تحرمهم الدعة ولا توافر وسائل الراحة المادية من روح العمل والمغامرة ، وهم لا يعانون حرمانا ولم يعد الحرمان دافعا لهم لكن دافعهم العقل والذهن والفن والثقافة العالية ، تلك هى العوامل التى تدفعهم وتثيرهم وتشــغلهم وتشــوقهم ، يتملكهم فخر جديد من نوع آخر وضمير يسمو الى النواحى الاعظم نبلا من النواحى التى تثيرها الفاقه ويحملهم الى مصير لم يحلم به احد بل ولم يتمناه احد من قبل ٠ وعندما تسرى هذه الحقيقة الى غمار الناس والأفراد العاديين ، وعندما لا يصبح من عناصر الإيمان الكنسى أن « الحرمان » هو الحافز الوحيد على العمل والكد ، عندئذ تتبدل سياسة حكامنا الاجتماعية ويبدا الترقى المنظم المستمر للشعب ٠

وعندما كتب مستر كارليل Carlyle ببصيرة نبيلة منذ سنوات الى « زعماء الصناعة » اعتبر كان لديه تصورات عن اكثر طبقات الزعماء قلة حيلة ، طبقة لم تصورها أبدا من قبل اكثر الروايات ، والقصص ، لكن افكاره التى بذرها فى العصر مدت جذورها ، ويستطيع اصحاب الأعمال الآن – إذا ارادوا – أن يجدوا الزعامة اكثر نبلا مما كانت فى زمن الاقطاع وسوف يمارسونها دون شك ، ونجد أن آل كروسلى ، وآل اكرويد وآل صولت فى الشمال يحتلون مكانة مرموقة فى تاريخ الصناعة ، ومنذ بضع سنوات

(١) محاضرات بروفســور ف٠ و٠ نيومان فى « الاقتصــاد الســياسى » ، ص٢٢١ ، ٢٢٢ ٠

كانت « خلايا » لانكاشير ويوركشير وهاليفاكس وبرادفورد وليدز ومانشستر كئيبة كأنها سجون ، ولم تكن خيرا مما عليه الآن كثرة من البلدان الصغيرة مثـل أولدهام ، وآشـتون اندرلين ، وهايد ، وسـتوكبورت وغيـرها ، لكن مستودعات ما نشستر وبرادفورد وليدز اكتسبت مظهر الفخامة ولا يجذب قصر بكنجهام نصف الانتباه الذى يجذبه البناء الفخم الذى أقامه سيرجون واطس فى مانشستر ، فهو يرتفع برأسه وأكتافه فوق كل المبـانى المجـاورة مغطى بالرخام ويحتل مكان ٦٣ مسكنا كانت فى موضعه سابقا فهو ملك المستودعات Monarch of Warehouses ، وأن العامل فى المصانع لتطول قامته وهو ينظر إليه ويشعر بالارتياح والسرور وهو يمشى بجانبه ٠٠٠ ألا يحس المواطن فى برادفور برقى الذوق والفخر ، إن كان فى نفسه ذرة من الروح القومية ، وهو يرى فى طريقه منشآت جميلة تبنى كل يوم وترتفع وترتفع معها عظمة الصناعة فى مدينته وفى وطنه ؟ أليس كلنا القريب منا والبعيد نشعر بالفخر إذ نرى أن التجارة ليست كلها عبارة عن شيطان الجشع والانغماس فى الماديات ، أليس مما يريحنا أن نرى التاجر الحريص المدخر يحب الفنون ويرعاها ويستخلص من ذهن المصمم بنايات فخمة الجمال يستمتع فيها بثروته التى جمعها بالصـبر والمثابرة ؟، وأنتم أيها العمال فى مصانع هايد ذوى الوجوه الباهتة والأجسام الضامرة التى أعاق نموها الهواء الساخن فى المصنع والذين يعيشون بتسعة شلنات أو أربعة عشر شلنا أسبوعيا لا تيأسوا فدوركم قادم ، فبعد أن يعجب الناس طويلا بالمستودع سيتجه اهتمامهم بعد ذلك الى المصنع ومنه الى عمال المصنع وسيبدون الاستعداد ليحبوا الاثنين ، وعندئذ لا يستفيد صاحب العمل الثرى شيئا حين يقول « آه ، عندى غرف جميلة لتخزين القطن ، أما من يصنعون القطن فيكفيهم أى كهف حقيـر ملوث بالســناج سىء التهوية ، وسيأتى يوم عندما لا يحب أحد من أصحاب الأعمال أن يقول هذا القول ، وكان مستر تيتاس صولت Titus Salt أول من أحس ذلك ، فبنى صولتير Saltaire بمصنعها الجميل ومساكنها التى تشير الى ما سوف يحدث يوما فى كل مكان ، وأصبح العمال يعتقدون بأن من حسن الحظ أن يحظوا بالعمل فى مصنع صولت ، وهجر الناس بلدة بنجلى لأنهم يحبون العيش فى صولتير ، فالقاعات التى يعمل بها العمال أجمل وأكثر ارتفـاعا ، وأحسـن منظرا ، وأوفر راحة وأصح من أى قاعة استقبال فى منزل سيد من سادة الشمال منذ خمسين عاما ، وأية ورشة فى صولتير أجمل من أية غرفة فى

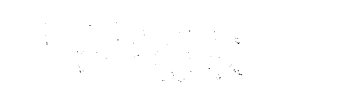
المنازل التى تمر بهـا ببلدة بيرى Bury حيث ولد ســـير روبرت بيـــل Sir Robert Peel

وسوف يبنى كل رجل ثرى الروح وثرى المادة مصنعا صحيا الى جانب مستودعه الفخم ، وحين يصبح فنانا فى مبانيه فسيصبح « فنانا فى ذاته » كما يقول مستر ثورنتون هنت Thorenton Hunt ، وسوف تتملكه الرغبة فى أن يصبح لعماله منظر جميل كحسن منظر آلاته ، وأن يقيموا فى مساكن جميلة ومريحة ومناسبه مثل الاماكن التى يعدها لآلات النسيج ، وسوف يرغب كل الرغبة فى أن يتناسق رنين أمواله مع ارتياح أولئك الذين يساعدونه فى كسبها ، وهكذا حتى لو صمت المؤيدون ، وقوبل نداء الإنسانية بالتجاهل ، والحقوق الاجتماعية بالاعراض فإن مبدأ الاستمرار والتناسق الفنى سيفرض يوما ما مبدأ المشاركة العامة فى ناتج الصناعة وغزوات العلوم ٠

الفصل الحادي عشر

فصل بياني

AN ILLUSTRATIVE CHAPTER



فى أثناء طبع هذا الكتاب الصغير وقعت أحداث جديدة فى تاريخ حانوت روتشديل واقسامه مما يستحق الملاحظة ٠

(١٨٥٧) هوجم الحانوت فى الصحافة المحلية وعلى الإعلانات ، وكان المهاجمون كتابا مجهولى الأسم يبدو أنهم رغبوا فى تدمير الجمعية ببذر الشقاق وإثارة الشكوك فى متانة ماليتها ، وبدات الهجمات اثناء اضطرابات الفزع الأخيرة ، وفى ربع السنة المنتهى بشهر ديسمبر أعلن مجلس الإدارة انه بالرغم مما أشيع حول الحانوت فإن عدد الأعضاء المسجلين زاد ٤٨ عضوا عن عدد الأعضاء المسجلين فى بدء ربع السنة فأصبح اجمالى عدد الأعضـــاء ١٨٤٨ عضوا ، ولو نجح كاتبو الإعلانات فى مقصدهم لأحدثوا ضررا شديدا لفئة كبيرة من الطبقة العاملة فى وقت تتعرض فيه المنشآت يوميا للإفلاس ، ولو أن منشأة هوجمت بمثل ما هوجم به الحانوت لاستطاعت أن تحصل على تعويضات كبيرة إذا رفعت قضية تطالب بها ، ونرى انه يحسن بمجلس الإدارة أن يعتبر نفسه مستحقا للحماية المعتادة المتوافرة للبيوت التجارية وان يجعل من اول مسئول عن هذه الحملة امثولة ونخشى ان يحاول أعداء نجاح الرواد أن يدمروهم ببذر الفرقة بينهم ، ويتطلب الأمر قدرا كبيرا من الصبر وضبط النفس والحكمة حتى يظل الإنسان هادئا صامتا بينما تنشر على الجمهور بيانات قد يعتبرها الناس على شىء من الحقيقة لكنك تعلم كذبها ، فالدافع هنا شديد للدخول فى مناقشات دفاعا عن النفس ، ونعلم جميعا كيف ينزلق الجدال الى الخوض فى الشئون الشخصية ، وكيف يفقد الناس اعصابهم ووقتهم وهنا ينتصر العدو وتثور الفضائح ، ويعلم كل خصم ماكر أن من بين ٢٠٠٠ شخص لابد واحد بينهم من يستطيع تحويله بسبب نقص الشجاعة او نقص المعلومات الى نشرة انباء مدمرة ، ويقال ان نابليون الأول اثناء بدء الحملة الإيطالية تعقبته الخطابات بعضها ينتقده وبعضها يسبه وكلها تثيره كى يرد على ما فيها ، وفعلا اضاع وقتا كثيرا فى الردود كان يمكنه استغلاله فى دراسة الخرائط ورسم الخطط وشن الحرب الفعلية على العدو ، ثم قرر أن يهمل الرسائل ويضعها فى سلة كبيرة وظلت فى مكانها ستة اسابيع وبعدها وجد ان الزمن والأحداث تكفلت بالرد عليها كلها تقريبا ،

ونقترح على مجلس إدارة حانوت روتشديل إتباع مثل هذه السياسة ، ونرى أن يحيلوا كل الأمور التى هى موضع خلاف وجدل الى لجنـة من ثلاثة أعضاء هادئى الأعصاب ذوى ذهن صاف مهمتهم تقديم تفسير مختصر لأى نقطة غير مفهومة ، وإذا وجدت نقط خلاف وجدال تتطلب المعالجة فينبغى تناولها مرة واحدة فى السـنة ، فتؤجـل اللجنـة جميع الجرائد والإعلانات والخطابات والمقالات الى ديسمبر ثم ترد عليها عندئذ أو ترد على ما لم يتولى الزمن والنجاح تفنيده وما لم ينساه الناس (وغالبا ما يكون تسعة أعشار المجموع) أما باقى شهور السنة فيحسن أن يسودها الصمت والسلام ٠

★★★

خطـاب من سكرتير جمعية الرواد

المتاجر التعاونيـة للرواد العـدول
ارقـــام ٨ ، ١٦ ، ٣١ تـودلين
روتشـــديل فى ١٧ ابـريل ١٨٥٨

سـيدى

أرسل لكم فى هذا البريد تقرير مطحن القمح التعاونى بمنطقة روتشديل عن مارس ١٨٥٨ ، وسترون منـه أن الجمعية تحقق تقدما وكذلك المبـدأ التعاونى كله ، وأظن أننى ابلغتكم أن خطوتنا القادمة ستكون التوسع فى عمليات الجمعية الإنتاجية هنا ، وأثناء كتابتى لهذا الخطاب تجتمع لجنة للنظر فى المقترحات التى قدمت تلبية لاعلان بطلب رأسمالى يبنى لنـا مطحنا ننوى أن نملأه بالآلات ونبدأ العمل ، وقد تخسر الطبقات العاملة أحيانا بالمبالغة فى بذل الثقة فهل لا تخسر اكثر من ذلك بسبب عدم الثقة ؟ ولا شك أن الخمسة الاف عضو من أعضاء الجمعية التعاونية الواقعة فى دائرة عشرة أميال من روتشديل ويمثلون ٢٥ الف شخص ما كانوا ليحصلوا على المنافع التى يحصلون عليها الآن لولا أنهم وثق كل منهم فى الآخر ووثقوا فى مبدأ التعاون ٠

وليم كوبر

راى ونصيحة لورد جودريتش Lord Goderich عضو البرلمان

(خطــاب آخر من سكرتير الجمعية)

كتب وليم كوبر ، من روتشديل ، يقول : وصلنا خطاب مطول من مســتر هولمز Holmes ، من ليدز ، صباح اليــوم ٢٦ ابريل ١٨٥٨ يدل على أنهم يهدفون الى إنشاء متاجر تعاونية لتوزيع سلع البقالة الخاصة بهم على أساس الوكالة وهو المبدأ الذى اتبعوه لتوزيع الدقيق المصنوع فى مطحنهم ، ويقول مستر هولمز فى خطابه : « زار مطحننا لورد جودريتش عضو جمعيتكم فى وست ريدج ، وقد كان فى بلدتنا عندئذ ، كما قابل أعضاء مجلس الإدارة فى اجتماع مثمر ومحادثات مفيدة ، وقال لنا سعادته اننا اى جمعية ليدز وجمعية روتشديل (او بالأحرى جمعية روتشديل وجمعية ليدز لأنه يسرنا أن نعترف لروتشديل بالتقدم) كنا موضع حديث متكرر فى البرلمان يؤخذ منه أن بعض حكماء السياسيين يرحبون بنجاحنا لأنهم يعتقدون انه إذا تحسنت أحوال الناس فكل شىء لابد ان يتحسن ، وقيل ان رخاءنا دليل على أن الناس يمكنهم بل ويجب عليهم أن يديروا شئونهم بأنفسهم ، فإذا فشلنا فسوف يؤثر فشلنا على سمعة المبدأ الذى سيصيبه ضرر بليغ ، وهم يؤيدوننا عندما نذكر لهم متاعبنا وما نلقاه من جدل ومصاعب ، وقال لنا إنه يجب علينا ان لا نعمل حساب انفسنا فقط بل إننا نعتبر مثالا للجمعيات الأخرى التى تراقب حركاتنا عن كثب · كما اننا مثال لكل الناس الآخرين الذين يتبعوننا حين ننجح ويصيبهم الاحباط والحزن ان فشلنا ، ويتوجه الينا الجميع بنداء قوى وودود يحثوننا على ان نسير قدما ونقتصد وندخر ونتوسع وأن نكتسب الحنكة والحكمة ونكون انصارا للسلام ، وربما اطيل جدا إذا ذكرت لكم كل ما قال لكنه على كل حال وعدنا بخدمات طيبة مخلصة إذا احتجنا لها وانه يستطيع تقديمها ، وإنى اوصى ان ترسلوا تقارير الى لورد جوريتش ، ومستر كننجهام عضو البرلمان ومستر سلانى عضو البرلمان وغيرهم من الأصدقاء الحميمين فى لندن ، فهذا يسعدهم ، ولاشك ان عطفهم خليق بأن يقابل بود من ناحيتنا » ·

وارسل لكم مع هذا النسخة من خطاب مستر هولمز لأنه سوف يثير اهتمامكم ولترون ان نجاحنا ينبت بعض الثمار ·

وليم كوبر

الى مستر ج٠ ج٠ هولى اوك

ويهتم لورد جوريتش برفاهة الطبقات العاملة وهو امر مشهور عنه لا فى وست ريدنج وحدها بل فى جميع انحاء انجلترا ، وقد اخترنا ان نختم هذا التاريخ الوجيز للسنوات الثلاث عشر من حياة جمعية رواد روتشديل بتلك الكلمات التى نقلناها عن لورد جودريتش وهى كلمات حكيمة وذات اثر كبير ، كلمات مشجعة ونصيحة غالية ٠

الفصل الثاني عشر

قصة رائد قديم عن منشأ الحانوت التعاوني

AN OLD PIONEER'S ACCOUNT OF THE ORIGIN OF THE STORE



يعتبر مستر جون كيرشو Mr. John Kershaw احد الرواد وآخرهم ، وقد ارسل الى مستر ابراهام جرين سجلات متنوعة (١٨٩٢/٩١) تتعلق بالفترة السابقة على تكوين جمعية الرواد العدول وقد اراد ان تصلنى هذه السجلات ، وكثير فيها جديد ، وكلها يرويها بصدق شاهد عايشها ، واحاطة من شارك فيها ، وتضيف القصة الى معلوماتنا عن الرواد القدامى وتؤيد كل ما نشر عنهم ، ولا شك أن الصور المنقولة عن حياة روتشديل واجتماعات العمال هى صور من الماضى تستحق المحافظة عليها ٠

ويكتب مستر كيرشو قائلا : « بدأت اعمل كصبى فى جيت برنتوركس Gate Printworks قبل ان ابلغ السابعة ثم ذهبت للعمل فى المنجم قبل الثامنة من عمرى ، وسترون انه لم يكن هناك وقت كاف لأتعلم فى المدرسة حتى لو فرض أن هناك مدرسا فى المنطقة » ٠

بدأ رواد روتشديل عملهم عندما كانت الضائقة منتشرة ، وكان النساجون اليدويون اسوا الطبقات العاملة حالا ، لأن التحسين السريع فى الآلات نزل بهم الى أسفل درك يمكن أن يعيش الإنسان فيه ، وربما لا يصدق أحد الأوصاف التى ترددت اليها احوال روتشديل لولا انها تستند الى مصادر وثيقة ، فهناك إعلان شارمان كراوفورد Sharman Crawford عضو البرلمان عن المقاطعة إذ يقول فى مناقشات مجلس العموم بجلسة ٢٠ سبتمبر ١٨٤١ ، يوجد فى روتشديل ١٣٦ شخصا يعيشون بمبلغ ٦ بنسات فى الأسبوع و ٢٠٠ شخصا بعشرة بنسات فى الاسبوع و ٥٠٨ اشخاص بشلن واحد اسبوعيا و ٨٥٥ شخصا بشلن وستة بنسات و ١٥٠٠ شخص بشلن وعشرة بنسات ، ولا يملك خمسة اسداس كل هؤلاء اغطية (بطاطين) ولا تملك ٤٦ اسرة سوى أسرة قش بلا اعطية ، فلا عجب ان يمتلا الريف بالثورة والاثارة ٠ ويبدو ان الاثارة فى روتشديل قد تصاعدت الى درجة الغضب لأن البلدة تموج بالذكاء والقلق ، وهناك حركة محلية كبيرة وقوية ضد قانون الفقراء الجديد ، كما توجد حركة من اجل الميثاق ، ولحركة منع المسكرات مؤيدوها ، وللاشتركيين جمعيتهم ، وتنتشر فى البلدة حركة الاثارة

ضد قوانين القمح ، وتعقد المناقشات الحامية لقانون العمل عشر ساعات ، وتبرز حقيقتان اجتماعيتان واضحتان : اليد العاملة رخيصة والخبز مرتفع الثمن ، ومع ذلك فالخبز هو السلعة الغذائية الوحيدة التى يستطيع الناس الحصول عليها ·

The Rochdale Pioneers began their work when distress was wide spread. The hand-loom weaver seemed to be the worst off of any of the working class. Improved machinery had driven him to the lowest point at which he could live. The condition of things in Rochdale would be incredible did it not rest upon authority. (1) Sharman Crawford, the member for the borough, declared in the House of Commons in the debate Sep. 20, 1841, that in Rochdale there were 136 persons living on 6d. per week[1], 200 on 10d. per week, 508 on 1s, per week, 855 on 1s. 6d. per week, and 1,500 were living on 1s. 10d. a week. Five-sixths of those he spoke of had scarcely any blankets, eighty-five families had no blankets, forty-six families had only chaff beds, with no covering at all. No wonder the country was full of agitations, and in Rochdale, where there was intelligence as well as unrest, all agitations seemed to rage. There was a great local agitation against the new Poor Law. There was one for the Charter. Temperance had its advocates. The Socialists had their society. The Anti-Corn-Law agitation was rife in the town. The Ten Hours Bill was fiercely discussed. Two social facts stood out very clear-labour was cheap, but bread was dear. Yet bread was almost the only article of food the people were able to get.

« وفى اجتماع مضاد لقانون القمح عقد عام ١٨٤٢ أعلن اقتراح باغلاق المصانع لإجبار البرلمان على الغاء قوانين القمح ، وكان رئيس الاجتماع على وشك طرح الاقتراح لولا أن سيدا مسنا يبدو أن لديه من بعد النظر ما لم يتوافر للآخرين قال ان هذا الاقتراح لن ينفع فلن يلبث العمال حتى يجوعوا ثم يأتى الشعب بعد قليل وقال آخر ان أصحاب المصانع سينتهزون الفرصة ويخفضون الأجور الى أقل مما هى عليه » ·

---

(١) يقول جورج جيكوب هولى أوك المؤرخ المعاصر لحركة الرواد التعاونيين أنه حقق بنفسه ما ذكره مستر كير شو ··· ورجع الى مضابط المناقشات البرلمانية التى أثيرت حول هذا الموضوع ، ويصعب على أى إنسان أن يصدق كيف كان يستطيع أى شخص أن يعيش على دخل قدره ٦ بنس فى الأسبوع ··· أى بنس واحد فى اليوم ··· ولا يبقى له أى بنس فى يوم الأحد وهو يوم عطلة آخر الأسبوع ·

وفى صيف عام ١٨٤٣ انتشرت الإعلانات فى روتشديل تدعو الى مناقشة « احسن الوسائل للحصول على ميثاق الشعب People's Charter » ، ويقول مستر كيرشو : « حضرت المناقشة وكذلك حضرها تشارلز هوارث وجيمس سميثز وجيمس والى ، وهناك سمعت مبادىء الرواد تعلن لأول مرة ، فأخذ تشارلز هوارث زمام المبادرة وأيده سميثز ودالى وغيرهما ، وأوضح مستر هوارث بجلاء ـ كما أعتقد ـ أنها هى الأداة الوحيدة التى يمكن بها للطبقة العاملة تحسين أوضاعها الاجتماعية والسياسية بصفة دائمة ، وكانت الخطةالتى عرضها وتفاصيلها مدروسة جيدا وواضحة بشكل أكســبها القبول ، وقيل فى الاجتماع أنه كانت هناك جمعية تعاونية فى روتشديل منذ دالا يزيد عن سنتين لـكنها فشلت ، وتصدى هوارث لبيان أسباب الفشل ، وبدا متمكنا من معلوماته عن الأسباب ومسلحا وعلى كامل الاستعداد لتقديم مبدأ جديد يضمن بعث حياة جديدة باستمرار فى الحركة ، وصدر منشور قبل أيام قليلة من عيد ميلاد عام ١٨٤٣ يدعو الى اجتماع لمندوبى العمال يعقد فى ويفرز آرم ، تشيتهام ، قرب تودلين ، ودعيت كل حرفة الى ايفاد مندوبين اثنين عنها ، وأرسل الى (جون كيرشو) الفحامون دعوة لحضور هذا الاجتماع ، وكان راعى هذا الاجتماع نقابى قوى ، واختير نقابى لرئاسة الاجتماع ، وأشار فى خطابه الى ما فعله الفحامون للحصول على زيادة فى أجورهم بلغت ضعف الأجور التى كانوا يتقاضونها منذ بضعة أسابيع ، وبالغ فى مدح عمال الفحم حتى رفعهم الى عنان السماء ، ويبدو أنه اعتقد فى قدرة كل العمال الآخرين على صنع ما صنعوه إذا تذرعوا بالوسائل نفسها » .

وبعد جولة من المباحثات دعى فحام (مستر كيرشو) ليقول كيف نجحوا فى زيادة أجورهم دون اضراب ، فقال أنه لا يوصى بأن يصنعوا كلهم ما صنع الفحامون ، لأنه لو فعل كل فروع الصناعة نفس الشىء لوجد العمال انفسهم أسوأ حالا بعد زيادة الأجر منهم قبل زيادته ، ويبدو أن هذا القول أوقع المجتمعين فى حيرة غير قليلة لأنهم لم يدركوا كيف تسوء احوالهم بزيادة الأجور وطالبوا المتحدث بشرح رأيه ، فقال : « افرضوا أنكم تحصلون جميعا على جنيه فى الأسبوع وأنه يمكنكم بهذا الأجر شق طريقكم فى الحياة ، ثم افرضوا أنكم حصلتم على ٤ شلنات علاوة أسبوعية لكن فى نفس الوقت ارتفعت أسعار كل السلع التى تحتاجونها بحيث تكلفكم الأسعار الجديدة خمسة

شلنات اكثر مما كانت من قبل ، وعندئذ ستكون أحوالكم بعد الزيادة أسوأ منها قبل الزيادة ، فمثلا تستخدم شركة هاورشو مور للفحم ٣٠ عاملا يجلبون الفحم من المنجم ، ويأخذ كل عامل مقابل الكوارتر (ويشمل ١٥ حملا من الفحم) على علاوة بنسين ، وزاد أصحاب المنجم سعر الفحم بنسين لكل حمل اى ٢ شلن ٦ بنس للكوارتر أى أنهم يتقاضون من الجمهور خمسة عشر وحدة من بنسين مقابل كل بنسين يأخذهما العامل ، وهكذا يحصل الفحام على بنسين ويحصل صاحب الفحم على شلنين و ٤ بنسات ، وواصل المتحدث قوله : « إذا زاد ثمن كل شيء على نفس الأساس فسوف نصبح جميعا بعد الزيادة أسوأ حالا منا قبلها » وساد عقب ذلك لغط كثير فى الاجتماع ، ورمى الحاضرون عمال الفحم بكل ما هو سيء من القول ، واتهموهم بانه تآمروا مع اصحاب العمل على سرقة الجمهور .

ويبدو أن أحدا لم يدرك أنه لن يستطيع كل أصحاب العمل أن يأخذوا من الجمهور شلنين و ٦ بنسات مقابل كل بنسين علاوة للعامل ، ويبدو أيضا أن المتحدث عن الفحامين ذاته لم يدرك أنه لو حصل على ٤شلنات علاوة فى الأجر فلن يدفع بالضرورة ٤ شلنات فى الفحم الذى يحرقه أسبوعيا فى منزله ، بل ربما لن تتجاوز الزيادة فى الانفاق شلنا واحدا وستتحسن ماليته بمقدار ٣ شلنات ، وتسرى نفس هذه القاعدة فى كل حرفة ، **أما عامل الفحم الطيب المتحدث فى الاجتماع فاغلب الظن أنه اقتنع بالكلام الفارغ الذى يبثه أصحاب الأعمال عادة فى روءوس عمالهم ، فهم يقولون لهم دائما أن الزيادة فى الأجر تجلب الاساءة الى الأحوال ، وان أفضل الوسائل لتحسين أحوال العمال أن يعملوا بلا مقابل ، وعلى الذين يبتسمون الآن استخفافا بمقولة عامل الفحم المسكين المتداعية أن يذكروا أن علماء الاقتصاد السياسى كانوا يتحدثون بنفس الطريقة فى تلك الأيام ، وأن اعضاء مجلس العموم كانوا يتحدثون أيضا بهذه الطريقة حين يقولون أن زيادة الأجور يتبعها انكماش التجارة وتحول المشترين الى الشراء من اقطار أخرى ، والدليل على فساد هذا الرأى أن أجور جميع العمال أصبحت الآن ضعف ما كانت عليه ، ولابد طبقا لهذه النظرية أن تفقد البلاد تجارتها بل لابد أنها كان يجب أن تفقدها منذ زمن طويل .**

وبعد أن سمع الناس كيف زادت أسعار الفحم ثارت ضجة كبرى واتهم عمال الفحم بأنهم حرضوا أصحاب العمل على زيادة أسعار الفحم ، ولما هدأت الضجة صاح مستر كيرشو : « اهدأوا قليلا ، بعضكم يتكلم عن أشياء لا يعلم عنها شيئا وان كان هناك من يلام على ما حدث فهو أنا ، فأنا الذى قدم لعمال الفحم النصيحة التى تصرفوا بناء عليها ، وحتى الآن لم أقل كلمة واحدة لأى صاحب عمل ولم يقل لى أى صاحب عمل كلمة فى هذا الموضوع ، لكن أصحاب العمل لم يتوقفوا عن انتهاز الفرصة ، ويعلم الجميع تمام العلم بأن أجورنا تضاعفت وأسعار الفحم ارتفعت فى السوق » ٠

وارتفعت صيحة أخرى تتهم عمال الفحم بأنهم أهملوا واجبهم نحو الجمهور فلم يكشفوا سلوك أصحاب العمل فى زيادة سعر الفحم زيادة باهظة تزيد كثيرا جدا عمـا يعطونه للعمال وكان شجب هـذا الإهمال عنيفا وعاليـا ، فأثار ذلك استياء مستر كيرشو الذى أجاب بشدة قائلا : « لا يلتزم عمال الفحم بشىء إزاء الجمهور ، فالجمهور لا يبالى فى شىء بعمال الفحم فلماذا يبالون هم بالجمهور ؟ فكل ما يعنى الجمهور فيما يتعلق بالفحامين هو رخص الفحم ، وكل هدفهم فحم رخيص ٠

وقال مستر كيرشو « قبل بضعة شهور من ذلك الوقت كنت أعمل فى عرق من الفحم سمكه قدمان وأقوم بكل الأعمال الفرعية حتى أسلم الفحم الى السفينة وكل ما كنت أحصل عليه ١٣ بنسا للطن ، ولم يأت أحد من الجمهور ليقول « ها أنت يا كيرشولا تحصل على أجر مناسب لقاء الفحم الذى تحصل عليه رخيصا ٠٠ إليك ٦ بنسات لك ، لم يحدث ذلك كل ما كانوا يريدونه هو الفحم الرخيص ، ولا يهمهم ماذا يحدث للفحام » ٠

ويروى مستر كيرشو : « فى عودتنا الى المنزل ــ هوارث وأنا ــ تدارسنا واجب عمال الفحم إزاء الجمهور » ، وكان من رأى مستر كيرشو أنه ليس على العمال التزام ازاء الجمهور الذى لا يعنيه المنتج فى شىء ، ومما يؤيد ذلك أن الغزالين والنساجين اليدويين الذين يصنعون الدبلان طردوا من حرفتهم مع أن الجمهور إن كان مستعدا لدفع ½ بنس زيادة فى ثمن ياردة القماش من الدبلان فوق ثمن الياردة المصنوعة ميكانيكيا لا ستمر العمال اليدويون فى عملهم ، فالجمهور ينشد المنتجات الرخيصة وهكذا طرد النساجون اليدويون

من ميدان الصناعة ، وكان مستر هوارث يعلم تماما أن نساج الفانيلا اليدوى يمكن أن يظل فى مكانه يعمل فى حرفته إذا دفع الجمهور بنسا واحدا زيادة فى ثمن ياردة الفانيلا المصنوعة يدويا ، لكن الجمهور لا يهمه إلا رخص السعر ولا يهمه أبدا حياة العمال ، والنتيجة أن نساج الفانيلا اليدوى راح هو الآخر فى طوايا النسيان كما ذهب نساج الدبلان ، واعترف هوارث بأنه لم ينظر الى المسألة ابدا هذه النظرة ٠

وفى الاجتماع سالف الذكر عارض أحد النقابيين التعاون كما عارض بعض التعاونيين النقابية ، وعلق مستر كيرشو : « كل ما يمكن أن تقولونه بحق عن النقابات هو أنها نزاع لا ينتهى بين صاحب العمل والعاملين دون أن يؤدى الى أى نفع مقابل » ولم يكن يرى ، وقليل من العمال من كان يرى ، أن النقابية المنظمة ستصبح فى وقت من الأوقات المدافع القوى عن العمال والمنظم للأجور ٠

« وثار سؤال هو ٠٠٠ ماذا يمكن عمله لاصلاح الأحوال ؟ ، وقيل ان تشارلز هوارث لديه خطة لكن لما كان الليل قد تقدم كثيرا فقد تقرر الاستماع الى شرحها فى مساء آخر ، وجاء هوارث على اتم استعداد ، وحضر النقابيون معارضين أشد المعارضة ، وقالوا ان التعاون سبق أن جرب وفشل وأغلق المتجر منذ سنتين ، **وشرح تشارلز هوارث بوضوح لماذا فشل المتجر ، وقال ان المتجر سيلاقى دائما نفس المصير مادام الأغنياء فى صورة أصحاب الأسهم يأخذون كل الأرباح ، وتقوم خطته على أنه كلما كانت الأسرة كبيرة كان كسبها أكبر ، وأن يحصل الأغنياء على مقابل عادل لكن الربح يبقى للأعضاء حسب مشترياتهم ٠**

وسأل مستر كيرشو : « نفرض أن جميع العمال كانوا مخلصين وجادين وظلوا يدفعون ٣ بنسات أسبوعيا حتى أمكنهم إقامة متجر تعاونى وتركوا الأرباح تتراكم ليستخدموها استخداما منتجا ــ أى فى إنشاء ورش تعاونية ــ فكم من الوقت يلزم لتصبح أرض البلاد وورشها تحت سلطان العمال ؟ »، فأخذ تشارلز هوارث وماكنوت (الذى كان حاضرا) قلما وورقة ليحسبا النتيجة ، وكان ماكنوت Macnaught أول من رفع رأسه قائلا : **فى خلال ١٥ سنة إذا اشترك جميع العمال فى المشروع ، ويمكنهم أن يسيطروا على الورش إذا استثمرت اشتراكاتهم وأرباح المتجر استثمارا منتجا » وفى**

الاجتماع التالى بعد اسبوع عرض تشارلز هوارث مشروعا مكتوبا على أساس حساباته وحسابات مستر ماكنوت يبين فيه كيف يستطيع العمال أن يصبحوا فى خلال ١٥ عاما أصحاب العمل الذى يعملون عمالا فيه ، وقرىء المشروع ونوقش بجدية واخلاص وتقرر طبعه ، ودفع كل من استطاع ٥ شلنات ، وجمع مبلغ ٣ جنيهات أعطيت لهوارث كى يطبع ما يستطيع نسخ ويحضرها معه فى الاجتماع التالى ، وأعطى مستر كيرشو أكبر كمية من النسخ المطبوعة ليوزعها ويجمعها بالطريقة المعتادة التى اتبعها موزعو الكراسات ، وفعل مستر كيرشو ذلك لعدة أسابيع وكان يترك الكراسة مع القارىء أسبوعين قبل أن يستردها ، وكان يرى كل أسبوعين يجمع الكراسات ويعيد توزيعها على المنازل التى لم توزع عليها من قبل ، وقوبل فى منزل فى كليج هول Clegg Hall بهجوم وصد عنيف ، وكان مستر كيرشو يسأل حين يجمع الكراسات ما إذا كانت قد قرئت وكان الرد دائما بالإيجاب ، ثم يسأل عن الانطباع الذى احدثته ويتلو ذلك مناقشة قصيرة ، ولكن فى المنزل الذى فى كليج هول رد صاحب المنزل وهو رجل فى الخمسين قائلا « هؤلاء الناس من أمثال كيرشو وأصحابه غـــيرجديرين بالحياة ، فمثـل هؤلاء هم الذين جعلوا الأحوال سيئة كما هى الآن » ، ورفض الرجل أى تحرك جديد لازالة الشرور الاجتماعية والصناعية حتى لا يؤدى الى مزيد من سوء الأحوال ، وهى فكرة إذا اعتنقها الجميع تجعل القمع مستمرا مدى الحياة ، كما تجعل أى اصلاح أو تحسين مستحيلا ، لأن المخطئين لن يقلعوا عن خطئهم مادام لا يزعجهم أحد عن هذا الخطأ ، ومن يجدون الخطأ مناسبا لمصالحهم لن يتأخروا عن اقترافه فالأمان مضمون لهم ، وما أسعد اللص حين يقال للناس الذين ينوى سرقتهم لا تزعجوه و لاتستدعوا الشرطة لأن اللص حين يتعرض للازعاج قد يجعل الأمور أشد سوءا ، وكان الرجل الذى قابله كيرشو من هـذا النـوع من التفكير ، وربما تعلم ذلك من أشخاص أكثر منه ذكاءا فالمعتاد أن تقاوم الحكومات الرأسماليون والمحتكرون وكل من له مصلحة أى محاولة للتحسين أو أى فعل مقصود به العدالة فتقول الحكومة « لا داعى للإثارة والتهيج فالأوان لم يحن بعد ، فلن يؤدى ذلك سوى الى اقلاق الناس ولن تجنى ما تريد » ، وعندما يمضى الزمن وتطالب الحكومة بتنفيذ وعدها الضمنى فستجد من يقول : « هذا طلب غير مقبول ولا أحد يطالب بالتغيير » وهكذا ينقلب الصمت الذى طلبوه الى حجة فى أيديهم لرفض تنفيذ الشىء

الذى قالوا أن الاثارة والهياج هو الذى يمنعهم من تنفيذه ، وعلى نفس النمط يسير أصحاب المصالح حين تطالبهم بالعدل فيقولون : « ستغضب من فى السلطة وتجعلهم لايستجيبون لطلبك إذا داومت على الاثارة والتهيج » فإذا استمعت اليهم وسكت ثم طالبت فيما بعد فسيقولون : « لا أحد يهمه التحسين ولا أحد يطالب به ولا أحد ينشده » فالاثارة والحركة يخلقان الرأى ، والرأى وحده هو الذى يرغم أولئك الذين ينكرون الحق على اعطاء الحق ، ومثل هذه الحجج لا يمكن أن تغيب عن التعاونيين فى روتشديل ، فقال مستر كيرشو فورا : « أعلم أن الأحوال سيئة ، فلا أستطيع أن أكسب ١٠ شلنات أسبوعيا وهو مبلغ لا يكاد يكفى لاعالة أسرة ، ويحتاج هذا المجتمع الذى يرغم الرجل على أن يعمل مقابل أجر ضئيل الى التغيير » وقد أجمع رأيه على أنه لابد من التغيير كى يكسب الرجل الأمين ما يكفى ليعيش عيشة شريفة بوسائل شريفة ، وظهر بعد ذلك أن الرجل القاطن فى كلج هول كان رجلا مستقيما ، ضلله قوم يعرفون أكثر منه فاصبح يخشى أن تؤدى حركة الاثارة الى أن تصبح الأحوال أسوأ بالنسبة له مما هى عليه ٠

وفى اجتماع آخر كان مدار البحث « عادات الناس » وقال مستر بننجتون Mr. Pennington : « الرجل الذى يفقد ربع يوم عمل أو ينفق أو يضيع ٦ بنسات بلا ضرورة إنما هو أحمق بالنسبة لذاته ولئيم بالنسبة لأسرته وخبيث بالنسبة لزملائه » ، فهؤلاء الرجال الشرفاء الذين يجرى النشاط وحب العمل فى دمائهم ، والذين يبحثون عن ٦ بنسات ويجتهدون فى توفيرها يحسون بحق بشىء من الاستياء ازاء غيرهم الذين استطاعوا ، لأنهم يملكون رأسمال صغير جمع جنيهات من وراء عملهم دون أن يمكنهم عمل أى شىء إلا أن يتركوهم ليجمعوا الثروة ولذا قرروا أن يصبحوا رواد متجر تعاونى جديد ٠

وكان فى تودلين مبنى من ثلاث طوابق فى الطابق الأعلى منه مدرسة دينية وفى الأوسط مدرسة نهارية أما الطابق الأرضى فغير مشغول ، وكان يستخدم كمستودع فيما مضى وله مدخل بباب كبير ذى مصراعين ، وكان يجب إزالة هذا الباب وتركيب أبواب ونوافذ تليق بمتجر ، وأختير تشارلز هوارث وآخرون ليذهبوا لمقابلة المالك الذى رفض تاجير المكان بمجرد أن علم اسم الجمعية وما ينوون عمله ، وفى تلك اللحظة وقف تشارلز هوارث

قائلا : « هل تقبلنى كمستأجر وسادفع لك ايجار ربع سنة مقدما ؟ » فاجاب صاحب المبنى « نعم ، افعل ذلك » وهكذا اتفق على أن تاخذ الجمعية الجديدة المكان لمدة ثلاث سنوات على أن يكون المستاجر مستر هوارث وان يدفع الايجار كل ربع سنة مقدما ، وتقرر أن يفتح الحانوت ابوابه ليلا فقط وتطوع صامويل آشورث ووليم كوبر بأن يعملا بائعين ، فإذا لم يربح المشروع فى الثلاثة شهور الأولى فلن ياخذا شيئا مقابل خدماتهما ، اما إذا حقق ربحا فيحصلان على ٣ بنسات فى الساعة ، وفتح الحانوت فى مساء يوم سانت توماس St. Thomas's day ١٨٤٤ .

ولعل الجمعيات الجديدة التى تظن أنها لن تنجح لأن أرباحها الأولى قليلة تلتمس الشجاعة من قصة كيرشو ففى نهاية ربع السنة الأولى دفعت جمعية روتشديل أرباحا قدرها ٣ بنسات عن الجنيه بعد استهلاك الأصول الثابتة وتخفيض قيمتها الى القيمة التى ينتظر أن يبلغها إذا بيعت أنقاضا ، وكان الربح فى الربع سنة الثانى ٤ بنسات والرابع ٧ بنسات والخامس ٩ بنسات والسادس ١١ بنسا والسابع ٢ بنس ١ شلن والثامن ٤ بنس ١ شلن والتاسع ٦ بنس ١ شلن ، وكان أكبر ربح ٨ بنس ١ شلن ثم بلغت بعد سنوات ما بين ٢ شلن و ٦ بنس ٢ شلن .

وضعوا لوائحهم بحيث تنص على تخصيص $\frac{1}{10}$ الأرباح للأغراض التعليمية ، لكن عندما أرسلت اللائحة الى مستر تيد برات Tidd Pratt المسجل رفض الموافقة على ذلك، وامتد النزاع معه عدة شهور وادخلت تعديلات على اللائحة مرة بعد مرة ، وحاولت الجمعية أن تدخل التعليم بوسائل شتى لكن المسجل كان دائما يلغى النص عليه ، « لم يسمح لنا بتعليم انفسنا لكن الجمعية لم تكن مستعدة للتنازل عن النص الخاص بالتعليم ، وأرسلنا مراسلات عديدة الى مستر تيد برات فى هذا الشان لكنه لم يغير موقفه « فقد كانت القوانين تمنع العمال من تعليم أنفسهم ، ورفضت الحكومة السماح لهم بذلك على أساس احتياجهم للعلم » .

They arranged their rules so that they could devote one-tenth of their profits to educational purposes. But when sent to Mr. Tidd Pratt, the Registrar, he refused to certify them. The contest with him lasted for some months. The rules were altered again and again. The Society tried to edge in education in several

different ways : but he always struck it out. "We were not allowed to educate ourselves, but the Society was very loth to part with its education clause. We had considerable correspondence with Mr. Tidd Pratt on the subject but he would never give way." These were the days when the law prohibited workmen from educating themselves and the Government refused them the franchise on the ground of their want of knowledge.

الفصل الثالث عشر

حلـــم النســـاجين

THE WEAVERS' DREAM



منذ ثلاثين عاما راود بعض العمال فى بلدة من الدرجة الثالثة بأقليم لانكشير حلم كحلم بنيان Bunyan لكن موضوعه مختلف عنه ، فكان هذا السكرى الشهير فى براد فورد يحلم بمملكة الخطيئة Kingdom of sin بينما كان نساجو روتشديل يحلمون بمملكة العمل غير أن كلا الحالمين كانت لهم رؤية واحدة هى الخروج من أرض الشر واليأس ، وتعب النساجون من السكنى فى أرض الغبن حيث لا يكافأ جهد العمل ، وحولوا أنظارهم الى الأراضى المسحورة حيث الخبرة والكفاءة مضمونة ذاتيا ، وكلاهما علم أن الرحلة شاقة ، لكن نساجى الفانيلا فى البلدة المذكورة بدأوا العمل بلا ابطاء شأنهم شأن كريستيان فى قصة بنيان الخالدة ٠

ولن نسير بعد ذلك فى تشبيه الرحلتين ، بل يكفى غرضنا القيام بمقارنة مختلفة وبسيطة فلم يكن التعاون شيئا مجهولا فى عام ١٨٤٤ ، بل أسوأ من ذلك ، كان كالسجين يساق الى محاكم البوليس ليقال عنه انه « رؤى هناك قبلا » ، فقد كان التعاون متهما قديما ٠٠٠ حوكم وحكم عليه مرارا ، وخسر كثير من العمال بسببه ، وعانى أكثر من هؤلاء الاحباط نتيجة له ، واعتبر مشروعا متفجرا أو بالتعبير الملاحى سفينة لا تصلح للملاحة فى البحار ، فكان التعاون فى الواقع ليس أكثر من قارب ضعيف مثقوب لا يفكر سوى القليل فى الابحار به فى بحار الصناعة ، ومن المشكوك فيه أن يتمكن من الوصول الى الميناء ، وحتى لو استطاع الوصول فسوف يستغرق وصوله زمنا طويلا غير أن فئة قليلة من الملاحين قررت المحاولة فهم لن يكونوا اسوأ حالا لو ذهبوا الى الأعماق ٠

We do not pursue any further the allegory between the two sets of pilgrims : a different and simpler comparison will be sufficient for our purpose. In 1844, co-operation was no unknown thing. It was worse than that. As sometimes happens at the police courts, it had, like the prisoner at the bar, "been seen there before." Co-operation was an old offender ; it had been tried and condemned many times. Many workmen had lost by it; more had suffered disappointment by it. It was regarded as an

exploded scheme. To use a nautical phrase, the vessel was not seaworthy ; in fact, co-operation was little better than a leaky, rickety cockboat, in which few would sail out into the sea of industry. It was doubtful whether it would ever get into port, and was sure to be a long time about it, if ever it did arrive. However, a few resolute mariners, who could not be much worse off if they went to the bottom, made up their minds to the attempt.

ومضى عام فى الاستعداد للرحلة كما يعلم القارىء(١) ، فأصلحوا جوانب جسم السفينة القديمة وسدوا ثقوبها وتم الاصلاح عام ١٨٤٤ ، وقد ظلت السفينة القديمة المثقوبة تمخر البحر ستة عشر عاما منذ أنزلت فيه عام ١٨٢٨ ببلدة برايتون ، وكثيرا ما طرحت أحوالها للمناقشة وهز المشاهدون من غير الأصدقاء روءوسهم يأسا ، وحاول آخرون تشجيع البحارة ورفع روحهم المعنوية وشارك واحد أو اثنين من الغرباء فى المجازفة بقسط صغير ، لكن الحمولة فى معظمها جاء بها طاقم السفينة وفى النهاية بعد ١٢ شهرا أعيد انزالها الى البحر ثانية وفيها ما يساوى نصف ٢٨ جنيها من المواد الغذائية معظمها قرطم وبلح ولحم خنزير ، وأعدت الترتيبات عموما توقعا لرحلة متعبة ، فقد كان أمام الرواد العدول عملا شاقا ليوازنوا انفسهم ، وأخيرا شقوا الصعاب فكانوا لحظة فوق زبد موجة عاتية وغابوا فى اللحظة التالية فى منخفض بين أمواج بحر متلاطم ، ووقف أهل البلدة على الشاطىء يشاهدون ، وأحس الطاقم بالخجل إذ يشاهدهم الناس فى قارب صغير لا قيمة له ، فكل شىء تافه حقير عليه طابع الفاقة والفقر متآكل الأطراف إلا شجاعة ملاحى روتشديل الذين حافظوا على شهرتهم القومية بأنهم مخاطرون لا يهابون ، وتمنى لهم بعض المشاهدين « سرعة إلهية God speed » لكن هؤلاء كانوا أفقر من أن يستطيعوا تقديم المساعدة وأشد قنوطا من أن يصدقوا الأمل الذى يتحرك فى قلوبهم الودودة ، وسخر البعض فلم يشاهدوا أبدا سفينة قديمة مهدمة ومثقوبة مثيرة للازدراء مثل هذه السفينة المسماة « حلم النساجين » ٠

---

(١) أى قارى الجزء الأول من هذا الكتاب ٠

وبعبارة أقل شاعرية وان لم تكن أقل صدقا يمكن القول بأن التعاون كان شيئا مشكوكا فيه وغير موثوق به عندما بدأ نساجو الفانيلا بروتشديل مشروعهم فى تودلين برأسمال ٢٨ جنيها كان نتيجة الادخار الصعب ، لكنهم حققوا مكاسب تدريجية وأعقب ذلك سنوات من التقدم ، وكبر « حانوت الرواد » كما قيل عنه ، وتضاعف الأعضاء ، وفتحت أقسام جديدة ، ثم حدث فزع وقيل مرة أخرى ان « حلم النساجين » سينتهى كما ينتهى كل حلم عادة الى لا شىء ٠

لكن الأمر لم يكن كذلك بل أبحرت السفينة عدة رحلات وحققت دائما ربحا متزايدا من حمولاتها ، وخيمت على رحلاتها أحيانا سحب وعواصف ، وكثيرا ما اصطدم البحارة بالصخور لكنهم أصلحوا سفينتهم كل عام وزادوها قوة وجددوا طلاءها ، وانزلوا سفنا جديدة من وقت لآخر وسط تعبيرات عن الثقة لم تعهد من قبل وابتهاجات لم يفكر أحدا أبدا فى أنه سيشاهدها ، وأخيرا جاء عام ١٨٦١ وهبت من الجنوب سحب المجاعة القطنية مهددة بأن تحطم كل شىء ، وهبت عبر الأطلسى رياح موسمية لحرب الرقيق طمست فى ليلة واحدة كل الصناعة الواسعة فى بلدان الشمال ، وكان لابد أن يعقبها تحطيم التعاون والمتاجر التعاونية ، وعندها يستيقظ النساجون أخيرا والى الأبد من حلمهم الطويل غير الحقيقى ٠

وجاء الاعصار حاملا الفزع والمجاعة وكل عواصف الحرب والكارثة ، لكن شيئا لم يحرك سفينة الرواد المخاطرة من مراسيها ، فقد أصبحت سفينة قوية لها صوارى جديدة واضلاع جديدة وزودت بأحدث آلات الملاحة التعاونية الحديثة ، وقامت برحلاتها المعتادة أثناء العاصفة وكأن شيئا لم يحدث ، وكانت تعود دائما سالمة الى الميناء بينما غرقت سفن أخرى كثيرة وعندما لاقت سفن أخرى متاعب وصعوبات سواء من قسوة الجو أو نقص المئونة كانت تتمهل وتقدم المعونة فى شهامة ، وقويت اخشابها وزود قائدوها أنفسهم بخرائط جديدة حددت فيها مواقع الصخور بدقة ، وعرف الربان أين يقترب من الشاطىء وأين يتجه الى عرض البحر ، وأصبح الطاقم مؤلفا من بحارة ذوى خبرة وقلب جسور ، فكيف أمكنهم أن يذهبوا فى رحلات مريحة وسط بحار خطرة ، هذه قصة سنرويها فى حينها لينتفع بها البحارة التعاونيون فى المستقبل ٠

الفصل الرابع عشر

الثمانية والعشرون المشهورون

THE FAMOUS TWENTY-EIGHT

روتشديل بلدة عرفت وقتها بالفقر والجرأة ، ومما يسعد أن حالة الشقاء وعدم الرضا الذى ساد البلدة قبل أيام قانون الاصلاح لعام ١٨٣٢ قد انتهت حتى فى أذهان الجيل الحالى من السكان الذى كف عن ذكرها فى ممارساته اليومية الشخصية ٠

وفى أيام قانون القمح والجوع من عام ١٨٢٥ الى ١٨٣٠ كانت أحوال عمال روتشديل شديدة السوء ، وكانت تلقى فى اجتماعات الطبقة العاملة بيانات عن انخفاض الأجور وبؤس الأحوال المنزلية بشكل لا يكاد يصدق فى أيامنا الحاضرة ، وأوفد العمال مندوبين الى البلدان المجـاورة ليصفوا الأحوال السيئة ويقصوا القصص البائسة عنها ، ولم يتصور أحد أن مثل هؤلاء الأشخاص كانت فيهم قدرة التعاون ، ولم يتصور أحد أيضا أن فى قدرة أى جهاز صناعى أن يقدم لهم خدمة ذات قيمة ، لكن الحقيقة أن رجال روتشديل برغم سوء ظروفهم لم تعوزهم روح الجماعة أو الروح العامة ، **وكان بالبلدة مسئولو شرطة من ذوى العقول غير المتفتحة ارتكبوا بعض المخالفات الرسـمية ، ورغم قـدرة هؤلاء على الانتقام من العمال الذين يقاومون أعمالهم فقد قرر النساجون أن يحاسبوهم ، واستطاعوا أن يدفعوا من مواردهم الضئيلة اشتراكات تمكنهم من « تطبيق القانون » على هؤلاء ونجحوا وتضم السجلات القديمة بالأبرشية بيانات عن هذه المسألة ولا ريب ، ويحتفظ مستر فرانسيس بلاس Francis Place بالتقرير الوحيد المكتوب عنها ، وهى قصة تستحق أن تروى ، ففى اماكن أخرى ارتكب كثيرون من الموظفين المحليين ـ ومنهم قضاة ـ « أخطاء » لكنهم لم يحاسبوا بالطريقة التى انتهجها نساجو روتشديل ٠**

وقد مضت عشرون سنة تقريبا على ظهور الجزء الأول من هذه القصة ، وعرف الثمانية والعشرون شخصا المغامرين الذين انشأوا حانوت تودلين باسم « الثمانية والعشرين المشهورين » ، وقد مضى أغلبهم الى آبائهم ، ويريد الجمهور أن يسمع التفاصيل النهائية عنهم ٠

ويقول أحد المراسلين الذى أدين له بفضل الحصول على هذه المعلومات منه أنه « فى حديث له مع عضو من أعضاء لجنة روتشديل التعليمية علم أن المتجر القديم فى تودلين حيث بدأ الرواد مشروعهم ظل يعرف باسم (حانوت الرواد) لسنوات قبل أن يشتغلوه فعلا لأنه كان يستخدم كمخزن للواء الرواد المرابط فى روتشديل قبل أن تنقل الثكنات من روتشديل الى بارى ، وما يزال المكان الواقع خلف الحانوت يعرف باسم فناء الثكنات ، وقد يكون فى هذا القول بعض الصدق ، وإذا صح ذلك فإن الرواد قد أخذوا اسمهم من هذه الواقعة أو قد يكون الأمر مجرد مصادفة » ·

واعتقادى أن الأمر مصادفة بحته ففى منشورات الاشتراكيين والنقابيين الصادرة قبل ذلك التاريخ نشرات تحمل اسم « الرائد Pioneer » أى أن فكرة الريادة كانت تشغل ذهن الاشتراكيين الأوائل ، وكان طموحا مشتركا بينهم أن يتقدموا ويفعلوا شيئا ، لكن الواقعة تستحق التسجيل لأنها لم تذكر أبدا من قبل ·

واختلط الميثاقيون التعاونيون فى أذهان الكثيرين من المراقبين الخارجين فى وقت نشأة التعاون بروتشديل بحيث لا يمكن الفصل بينهم واعطاء كل ذى حق حقه من فضل فى الحركة إلا بمضى الزمن وبشهادة الشهود وقيام الدليل ، لكن المعايشين للأحداث فى موقعها والعالمين بالحقائق لم يخامرهم شك أبدا فى أن الاشتراكيين كانوا هم الذين فكروا فى بدء التعاون وهم الذين أمدوا التعاون بالمشورة والتأييد وأنشأوه ونظموه وحافظوا على سيرته ونفذوه ، أما الميثاقيون فهم الذين كانوا عقبة فى سبيله ، وأكبر المعارضين وألد خصوم التعاونيين ، وأقل الناس اهتماما بالتعاون ويعتبرون أنصاره من المارقين ، وظلوا طويلا غير فاهمين له ولما فهموه لم يثقوا به ولكن بعد أن مرت ١٦ سنة ونجح التعاون وأصبح شيئا شهيرا يفخر به أخذوا يحاولون التظاهر بأنهم هم الذين بدأوه ، وحتى بعد مضى سنوات كثيرة على استقرار التعاون واكتسابه القوة والاعتراف به وقف أكبر زعمائهم مقدرة وثقافة مستر ارنست جونز Ernest Jones يعارض التعاون فى مناقشة علنية عقدت حوالى ١٨٥١ مع مستر لويد جونز ، وكتب لحركات أخرى غير التعاون أن يعارضها قوم أعنف معارضة وهى تكافح فى أيامها

الأولى ولما نجحت انقلب هؤلاء المعارضون واشد الأعداء يزعمون انها من مبتكراتهم وانهـا قضيتهم التى ناصـروها وصادقوها ، وتلك من علامات النصر لأنهـا تثبت أن القضية قد ارتفـع لواؤها وأصبـح أعدائها أكـثر الناس رغبة فى اكتساب شرف الانتساب إليها ، لكن تبقى من مهمة التاريخ أن يفصل فيمن يرجع اليه الفضل والشرف فيعطيه حقه من الفضل .

وعرضت مزاعم الميثاقيين عام ١٨٦١ فى جريدة روتشديل سبكتاتور Rochdale Spectator عرضها آمبروز توملنسون Ambrose Tomlinson مدعيا بتأكيد هذا الزعم ، وأنكر مستر توملنسون أن الحركة التعاونية نشأت عن اضراب نساجىالفانيلا عام ١٨٤٤/٤٣ قائلا أن جمعية للميثاقيين كانت موجودة فى روتشديل عام ١٨٤٣ ، وقال أن التعاون بدأ هناك فى اجتماع لتلك الجمعية عقد فى شارع ميـل **Mill** بينما أن الحقيقة أن الميثاقيين عارضوا الحركة فى مهدها ، ولما انضم عدد من أعضاء جمعية الميثاقيين الى جمعية الرواد العدول استنكر الميثاقيون مسلك زملائهم هؤلاء وقالوا عنهم أنهم « هاربون **Deserters** ، وكان شعار تلك الأيام الميثاق ، كل الميثاق ، ولا شىء غير الميثاق » وما تزال هده العبارة التى كانت تتكرر باستمرار ترن فى آذان من اشترك من الحركات العمالية فى ذلك الوقت ، واعتاد الميثاقيون أن يقولوا للتعاونيين ولأنصار قانون تحديد ساعات العمل بعشر ساعات وللمطالبين بالغاء قانون القمح — وهم أحزاب ثلاثة منفصلة كانت تشغل انتباه الجمهور — « إذا لم تساعدونا فى الحصول على ما نريد فسوف نمنعكم من الحصول على أى شىء » وقد صنعوه فعلا بقدر ما يستطيعون لكنهم لم ينجحوا فى انفاذ رغبتهم بسبب تلك الطريقة غير الودية التى لا يستحقون معها النجاح ، **ولكل حركة مطلق الحق فى أن تحرز لنفسها ما تريد لكن إذا جعلت همها عرقلة انجازات من يسيرون معها فى نفس اتجاهها لمجرد رغبتها فى الكسب أولا فإنها تساعد العدو المشترك للجميع وتجعله يقول بحق « انظروا كيف يتحارب هؤلاء المصلحون فيما بينهم » .**

ويصف مستر آميروز توملنسون ، وكان ميثاقيا نشطا فى روتشديل تلك الأيام ، ما حدث فيما بين زملائه فى كلمات تقرب مما يلى : « انهمك التعاونيون ، وهم القلة التى انبثقت عنها الحركة وكانوا جميعا من الميثاقيين ، فى حب التعاون حتى تناجوا به فى ركن من قاعة الميثاقيين فى شارع ميل ،

وعقـد الميثاقيون اجتماعات مجلســـهم فى الركن المقـــابل من القـــاعة ذاتهـا ، لـكن حدث فى اجتماعات متتابعة كثـيرة أن كان ركن مجلـس الميثاقيين أقل من عدد الحاضرين ، وعندئذ وجه الميثاقيون الذين يحضرون اجتماعات المجلس اللوم الى الميثاقيين التعاونيين الذين دأبوا على حضور اجتماعات التعاونيين واهمـــال اجتماعات الميثاقيين ، واســتاء التعاونيون وقرروا أن يجتمعوا معا فى بار العمل والصحة وكان يديره فى ذلك الوقت مستر تويديل Tweedale فى موقع لا يبعد أكثر من مائة ياردة من قاعة الميثاقيين فى شارع ميل ، وسهلت للتعاونيين استخدام قاعة الاجتماع فى بار العمل والصحة أن تويديل شقيقة صاحب البار وكانت تعاونية وأصبحت فيما بعد زوجة لبنيامين ستاندرنج وأقنعته بأن يصبح تعاونيا بعد زواجهما ، واجتمع التعاونيون هناك أسابيع قليلة ثم عادوا الى قاعة اجتماعات الميثاقيين مرة أخرى ، وظل الجميع يرتبطون برابطة الصداقة حتى أخذ الميثاقيون قاعة الاشتراكيين من هؤلاء عند فشل مشروع قاعة هارمونى ، وذهب التعاونيون مع الميثاقيين الى القاعة الواقعة فى شارع يوركشاير وبقوا معهم حتى سبتمبر التالى وكانوا فى ذلك الوقت يفكرون فى خطط لمستقبل التعاون ويضعون لائحة ويعدون لبدء العمل وعندئذ قرروا البحث عن مكان مناسب فاستأجروا مبنى تود لين الذى كان يعرف سابقا باســم « قاعة مدرســة بيثيل »(١) Bethel School Room

ويسرنا أن نسمع مرة أخرى عن البار الذى يحمل اسما جميلا هو « العمل والصحة » لكن نأمل الا يكون الحضور هناك قد تميز بالحماس الكبير ، إذ أن « العمل » فى مثل هذه الحالة قد يفقد « صحته » أحيانا فى تلك الأماكن ، ويبدو أن معارضة الميثاقيين للرواد الأوائل فى روتشديل كانت ضئيلة عام ١٨٧٧ أما الآن فقد زاد عدد الرواد الى عدة آلاف وانكمش الميثاقيين وانتهوا تقريبا ، لكن تلك المعارضة كانت شيئا مختلفا عام ١٨٤٤ وما بعدها عندما كان عدد الميثاقيين عشر أمثال الاشتراكيين أو عشرين مثلا ، وكل حزب جاد تسود مبادؤه قادته بدلا من أن يسود القادة على تلك المبادىء ، تعتريه أوقات جنون فيظن مناصروه أن مبادئه يجب أن

---

(١) جريدة أخبار التعاون ، ١٦ ديسمبر ١٨٧٦ .

تحظى بالأسبقية على كل ما عداها ، صحيح أنهم قد يحتجوا بأن هذه المبادىء الأخرى مؤذية جميعها ، لكن التعقل أجدى وهو يعرف بأن تدرك أين مكانك وتعمل فى إطاره .

وانشأ نساجو الفانيلا الاشتراكيون جمعية الرواد العدول بعد اضرابهم غير الناجح وبدأوا يجمعون الاشتراكات لتكوين رأسمال يقيمون به متجرا للمؤن ، واجتمعوا أولا حيث فعل النساجون أى فى قاعة مدرسة بيثيل فى تود لين ثم انتقلت اجتماعاتهم الى المؤسسة الاشتراكية فى شارع يوركشاير ، ويرجع تاريخ إنشاء جمعية الرواد العدول الى هذا المكان ، واصبح مستر جون هولت الذى كان أمين الصندوق فى مقر شارع ميل أمينا لصندوق جمعية الحانوت وظل يشغل هذا المنصب الى ما قبل وفاته بقليل ، ووضعت لائحة جمعية الرواد العدول فى المؤسسة الاشتراكية ، وكان شيوخ الاشتراكيين هم الذين وضعوها ونظموا الجمعية ، وقدم مستر توملنسون الى محرر جريدة روتشديل سبكتاتور(١) كتاب الجمعية التى كانت قائمة قبل تشكيل جمعية الرواد مباشرة ، وجدير بنا أن نذكر الأسماء الواردة به لأنها تستحق الذكر للقيمة التاريخية :

« جورج مورتون ، من مونت بلزانت ثم يتلوه تشارلز راتكليف ، شارع ريجنت روبرت وايتهد ، جون داوسون ، ريتشارد فارمر ، ريتشارد بريرلى ، توماس كيرشو ، مارى بروملى ، من مونت بليزانت آن تويديل ، مونت بليزانت ، تشارلز هولرويد ، من لوورفولد صمويل شور ، من هيلى جون كين ، شارع ريتشارد بنجامين رودمان ، من شو ولو آبنر ريلى ، من كالدربرو أبراهام برستويسل ، شارع ووتر فرد جرينوود من موس ميلز آشورث ، من سبوتلاند بريدج جيمس نوتال من بانك ســايد صمويل آشــورث من سبوتلاندبريدج جون هولت من شوولو » .

والموضوع الثانى فى الكتاب قائمة بمن تسلموا الأموال من مســتر جورج هاو George Howe الساعاتى من ووك ، عندما رفض أن يستمر فى منصب السكرتير ، وأسماء هؤلاء هى نفس الأسماء سالفة الذكر ، ثم جاء بعد ذلك بيان بما تلقاه مستر الدرمان ليفسى بوصفه أمين صندوق التعاونيين

(١) فبراير ١٨٦١ .

من مبـــالغ وصلت فى مجموعهـا الى ٦ بنس ١٣ شلن ٨ جنيــه فى ٧ فبراير ١٨٤٣ ٠

وكان راس المال الذى بدأ به الرواد عملهم كما يعلم كل الناس الآن ٢٨ جنيها وتصادف ان كان عدد الأعضاء الذين شكلوا الجمعية ٢٨ عضوا أيضا ٠

وبعد مضى ٢١ سنة من تأسيس الحانوت اى فى عام ١٨٦٥ كان قد بقى من هؤلاء على قيد الحياة ١٣ شخصا اقنعهم مستر سميثز ان يجتمعوا لتؤخذ لهم صورة فوتوغرافية جماعية بناء على طلب أصدقاء الجمعية(١) ٠ وفيما يلى وصف للرواد الذين فى الصورة استقيته من مستر كوبر واحتفظت فيه بكلماته الأصلية وهى لغة لا تخلو من قوة وتفرد :

« تعريف مختصر بالثلاثة عشر شخصا الذين كانوا من ضمن أعضاء جمعية الرواد العدول بروتشديل ويظهرون فى الصورة المأخوذة فى أواخر عام ١٨٦٥ :

« وإذا وضعت الصورة امامك ابدأ من الناحية اليسرى بالجالسين فى الأمام » ٠

« رقم١ جيمس ستندرنج وكانت مهنته عند تشكيل الجمعية نساج فانيلا ومن اتباع أوين اول مصلح اجتماعى،وكان سكرتير فى روتشديل لحركة قانون تحديد العمل بالمصانع بعشر ساعات وعندما رفض طلب نساجى الفانيلا فى ٤٣ / ١٨٤٤ للحصول على أجورهم مقدما وفشلوا فى تحقيق غرضهم ، حصل على نســخة من قانون جمعيات الأصدقاء ليرى ما إذا كان من المســتطاع الاستفادة بما بقى من الاتحاد بين النساجين لتكوين جمعيات صناعية أو جمعيات اخرى ليعملوا فيها ولكى تحمى مصالحهم وتعود عليهم بالنفع » ٠

« رقم ٢ جون بنت ، ومهنته ترزى ، وينتمى الى المجموعة الاشتراكية وكان من بين أوائل مراجعى حسابات الجمعية » ٠

(١) يقول مستر هولى أوك : كانت آخر رسالة تلقيتها من مستر كوبر تحتوى هذه الصورة وقد كتب مستر كوبر أسماء الأشخاص تحتهم وقد صنعت لها إطارا وعلقتها فى مسكنى وهى أمامى الآن ٠

« رقم ٣ جيمس سميثز ، فراز صوف وكاتب حسابات ، مصلح اجتماعي ، كان احد اعضاء مجلس الإدارة الأول ، وشغل منصب المدير والسكرتير والأمين وعضو مجلس الإدارة في الجمعية ، وجاهد دائما لنشر التعاون والمحافظة على الروح الأخوية فيه » .

« رقم ٤ تشارلز هوارث ، نساج قطن ، ينتمي الى الفئة الاشتراكية كان أحد أعضاء مجلس الأمناء الأول في جمعية رواد روتشديل العدول ، وقام بوضع معظم قواعد الجمعية ومبادىء تقسيم الأرباح حسب مشتريات العضو وشغل في وقت ما منصب سكرتير اللجنة وفي اثناء حركة المطالبة بقانون تحديد ساعات العمل بعشر ساعات اختير كمندوب للسفر الى لندن للتشاور مع اعضاء البرلمان ومراقبة القانون اثناء عرضه على مجلس العموم ، ونظرا لأنه كان عاملا في المصانع فقد كان على علاقة وثيقة باصحاب الأعمال وكان بعضهم لا يحب أن يتدخل القانون بينه وبين العاملين عنده ، وفي مناسبة من المناسبات استدعاه اصحاب العمل الى مكتبهم وعرضوا عليه أن يظل في المكتب وسوف يستدعون العمال امامه واحدا واحدا ويسالونهم هل يوافقون على قانون العشر ساعات مع تخفيض في الأجر يتناسب مع تخفيض ساعات العمل ؟، وقالوا انهم بذلك يتأكدون مما إذا كانت اغلبية العمال تؤيد قانون العشر ساعات أم تعارضه ، فوافق هوارث بشرط أن يسمحوا له اولا بعقد اجتماع مع العمال في احد قاعات المصنع ليشرح لهم الموضوع ، فلم يوافق أصحاب العمل ، وعليه لم يعتقد اجتماع ولم يستدع العمال » .

« رقم ٥ ديفيد بروكس ، طباع نسيج وميثاقي السياسة كان أول من عين ليشتري البضائع للجمعية ، وكان امينا ومتحمسا لم يدخر جهدا ولا وقتا ولا وسيلة للسهر على نجاح الجمعية » .

رقم ٦ بنجامين رودمان ، نساج فانيلا ميثاقي السياسة قليل الكلام لكنه مؤيد دائم للجمعية » .

« رقم ٧ جون سكروكروفت John Scrowcroft ، بائع جوال ، لا دخل له في السياسة من أتباع مذهب سويدنبورج Swedenborgian الديني ، وفي الأيام الأولى للحانوت كان الأعضاء يأتون ليتحادثوا ، وكانت الموضوعات السياسية والدينية وغيرها تطرح للحديث كثيرا في تلك الأوقات

وتفرد لها امسيات غير امسيات اجتماعات الجمعية فيحضر من يريد من الاعضاء للمناقشة فى موضوع معين ، وكان بعض الأعضاء المتدينين يرون من الخطيئة مناقشة مذاهبهم الإيمانية واقترحوا تحريم طرح الموضوعات الدينية للنقد ، لكن جون سكروكروفت قال انها موضوعات صالحة للنقاش كغيرها من الموضوعات ، وكان يؤمن طبعا ان مذهبه هو الصحيح وانه كلما طرح الدين للمناقشة كلما ازداد عدد المؤمنين به ، ولم يفلح اقتراح « التكميم فى ان يصبح نافذا » .

الواقفون ابتداء من اليسـار .

« رقم ٨ ، جيمس مانوك James Manock ، نساج فانيلا ، ميثاقى السياسة ، شغل مناصب فى اللجنة فى أوقات مختلفة كأمين وعضو مجلس إدارة » .

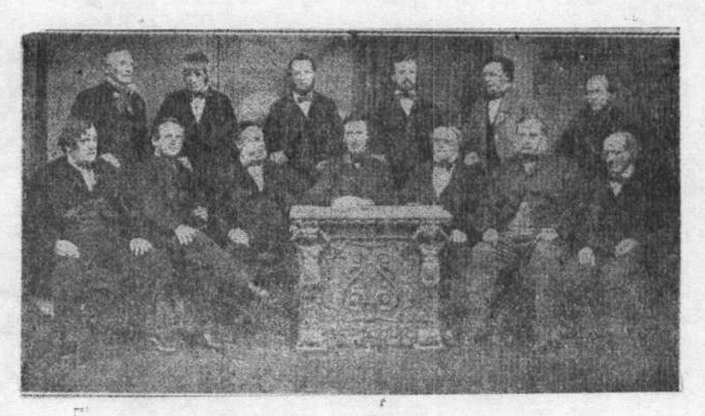
« رقم ٩ ، جون كوليير John Collier ، حرفته مهندس ، اشتراكى، خدم فى لجنة الجمعية عدة مرات ، ويتكلم بأسلوب لانكاشير العريض ولا عجب فهو حفيد جون كوليير الشهير (تيم بوبن) من ملنرو بقرب روتشديل ، الذى الف كتبا بالنثر والشعر فى أعوام ١٧٤٤ و ١٧٥٠ بلهجة لانكاشير مملوءة فكاهة ، كان نصيب « الساحر » و « راعى الأبرشية » من السخرية كبير ، ودفن جون كوليير (تيم بوبن) فى حوش كنيسة روتشديل القديم عام ١٧٨٦ ، وكتبت على شاهد قبره أبيات قيل أنه الفها قبل موته بنحو عشر دقائق :

« هنـا يرقد جـون ومعـه مـارى
خد الي لحية ولن يختلفـا أبـدا
ولا عجب أن يتفقا على هـــذا
فجون لا يريد خمرا ولا تريد مول شايا »

« رقم ١٠ ، صموئيل آشورث ، نسـاج فانيلا ، ميثاقى السياسـة كان أول من عين بائعا فى الحانوت » .

« رقم ١١ وليم كوبر ، نساج فانيلا ، عضو المنظمة الاشتراكية كان أول صراف يعين للحانوت » .

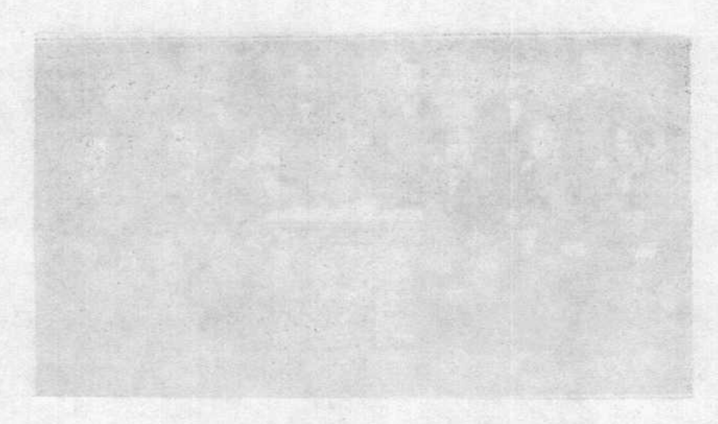
« رقم ١٢ جيمس تويديل ، صانع أدوات خشبية ، اشتراكى كان أحد أوائل أعضاء مجلس إدارة الجمعية » .



أخذت هذه الصورة فى عام ١٨٦٥ ، وهى توضح الأحياء من رواد روتشديل ٠٠ وصف الواقفين ويشمل : جـ٠ مانوك ، جـ٠ كولبير ، س٠ أشورث ، وليم كوبر ٠

وصف الجالسين يشمل : جـ٠ ستاندرينج ، جـ٠ بنت ، جـ٠ سميثيز ، س٠ هوارث ، د٠ بروكس ، ب٠ رودمان ، جـ٠ اسكوكورفت ٠

هؤلاء بالإضافة الى أشورث كانوا الذين مازالوا أحياء من بين الرواد الأصليين ٠



« رقم ١٣ جيمس سميث ، فراز أصواف ، مصلح اجتماعى ، كان واحدا من أوائل مراجعى حسابات الجمعية » .

وقال لى مستر كوبر فى مناسبة أخرى وبروح العدالة التى هى من أجمل السجايا فيه ، ان الصورة الفوتوغرافية لا تضم جميع الأشخاص الموجودين فى روتشديل ممن كانوا من الأعضاء الأول لجمعية رواد روتشديل العدول ، بل ينقص ثلاثة هم :

« جيمس مان ، نساج فانيلا ، من انصار منع المسكرات ، ولا شىء معين فيما يختص بالسياسة او الدين » .

« ميلز آشورث ، نســاج فانيلا ، ميثاقى الســياسة ، كان اول رئيس للجمعية » .

« جون كيرشو ، مهنته مخزنجى ، مذهبــه ســويد نبورج ، ونصف ميثاقى » .

ومن ناحية اخرى طلبت من مستر جيمس سميثز وهو لا يقل غيرة على حسن سمعه التعاونيين أن يوافينا ببعض المعلومات فارسل لى ما يلى فيما يتعلق بديفيد بروكس ، وهو رقم ٥ من الشخصيات التى تحدث عنها مســتر كوبر :

« مستر ديفيد بروكس ، طابع أقمشة ، لم يذكر اسمه مطلقا فيما يختص بجمعية روتشديل التعاونية فى مراحلها الأولى لكنه أدى خدمات جليلة فــكان أول مسئول شراء تعينه الجمعية وهو منصب يحتاج الى كثير من العناية والمقدرة ، الى جانب انه يتعرض لسخرية واســتياء أصحاب المتاجر ، ولم يتراجع ابدا عن العمل الذى اسند إليه رغم أن ملاحظ العمال فى المصنع الذى يعمل به كان صاحب متجر ، وظل يخدم الحانوت بولاء نادرا ما يبديه أو يفوقه أى إنسان آخــر يؤمن بحق بتحرير الطبقات العامـــلة بمجهوداتها الخاصة ، وكثيرا ما ترك عمـــله الذى يمكن أن يكسب منـه ٧ شلنات أو ٨ شلنات يوميا من أجل قضية التعاون حتى أصبحت الجمعية فى وضع تستطيع معه أن تدفع له نحو ٣ بنسات فى الساعة وظـــل يعمل مشرفا ومندوب مشتريات لمـــدة أربع أو خمـــس سنوات ، وكان كالزهرة « ولدت لتذبل دون أن يلاحظها أحد » وكذلك لم يعترف أحد بخدماته إلى أن جاءت الأزمة الحالية التى قضت تقريبــا على عملية طباعة القمـــاش

بالشكل القديم ، وقدمت مذكرة للاجتماع ربع السنوى للموافقة على منحه ١٠ جنيهات كهدية تبعد عنه عدوه الفقر ، غير أن احد اللجان كانت أكثر كرما ووجدت لـه عملا فى احد فـروع الحانوت ليصبح فى عداد موظفى الجمعية ، واكتفى راضيا بأن يعمل حيث كان يوما ما فى موضع الآمر » ٠

ولم يذكر مستر سميثز أنه هو الذى قدم الاقتراح المشرف الذى أنقذ مستر بروكس فى أيام محنته وتناقص وسائله وقوته اعترافا بخدماته ٠

وكان من الأفضل لو نفذ اقتراح مستر والتر وموريسون بالاحتفـاظ بمخزن تود لين الذى اشتراه الرواد فى حالته القديمة كمستودع ليـكون تذكارا للأيام الأولى مع استخدامه كقاعة أنباء وتعليق صور الرواد القدامى فى بهو مبنى تودلين ، ولو حدث ذلك لـكان تذكارا جميلا فى إمكان الجمعية الاحتفاظ به ليراه الزائرون الذين يحضرون من الأنحاء البعيدة ودارسو الاقتصاد التعاونى ، وتأمـــل أن تحاول الجمعية الثرية والتاريخية التى انبثقت من تودلين على أن تحافظ على الصورة الأصلية للمبنى المتواضع الذى بدأ فيه تنظيم التعاون ، ونذكر فى هذه المناسبة أن احدى جمعيـــات أولدهام لديها « غرفة حديث » فى أسفل مبنى تودلين قد تصلح للغرض ويمكن أن تستخدم الأجزاء الأخرى من المبنى لمكتبة مراجع منفصلة عن المـكتبة الـكبيرة ٠

وفيما يلى أسماء الثمانية والعشرين(١) :

جيمس سميثز	تشارلز هوارث	ولـيم كـوبر	ديفيد بروكس
جون كوليير	صمويل آشورث	ميلز آشورث	ولـيم مالا ليو
جورج هيلى	جيمس دالى	جيمس تويديل	صمويل تويديل
جون كيرشـو	جيمس مادن	جون سكراوكروفت	جـون هيـل
جون هولت	جيمس ستندرنج	جيمس مانـوك	جوزيف سميث
ولـيم تايلور	روبرت تايلور	بنجامين رودمان	جيمس ويلكنسون
جون جارسيد	جـــون بنت	آن تويديـل	جيمس بامفورد

(١) نورد فيما يلى أسماء هؤلاء الرواد باللغة الانجليزية للأهمية التاريخية لأسمائهم ، وخدمة للباحثين والمهتمين بالدراسات التعاونية :

The following are the names of the original Twenty-Eight :

James Smithies.	William Mallalieu.	John Scrowcroft.	Robert Taylor.
Charles Howarth.	George Healey.	John Hill.	Benjamin Rudman
William Cooper.	James Daly.	John Holt.	James Wilkinson.
David Brooks.	James Tweedale.	James Standring.	John Garside.
John Collier.	Samuel Tweedale.	James Manock.	John Bent.
Samuel Ashworth.	John Kershaw.	Joseph Smith.	Ann Tweedale
Miles Ashworth.	James Maden.	William Taylor.	James Bamford.

ولم تنشر قبل الآن قائمة « بالثمانية والعشرين الأصليين » ، وكانت توجد قائمة ينقصها أربعة أسماء وقد راجعها معى مستر جورج آدكروفت George Adcroft. مدير الحانوت عام ١٨٤٧ وقرر أن الأسماء الناقصة هى : جيمس ويلكنسون ، صانع أحذية ، جون جارسيد ، نجار أثاث ، جورج هيلى ، صانع قبعات ، صمويل توبديل ، وبين الثمانية والعشرين اثنان يحملان اسم تويديل : جيمس تويديل وكان صانع أدوات خشبية ويقيم فى واردولورث براو ، وصمويل تويديل ، وكان نساجا فى أولدهام رود ، وكان صمويل هو الذى ألقى أول محاضرة فى تودلين وكان موضوعها « الأخلاق وعلاقتها بالحياة اليومية » ألقاها فى مساء يوم أحد وكان يعتبر « الرجل البليغ » فى الجمعية ، وقد سافر إلى استراليا فيما بعد ، وبين الثمانية والعشرين ثمانية يحملون أسم جيمس وسبعة يحملون اسم جون .



الفصل الخامس عشر

العقبـات القانونيـة للاقتصـاد

LEGAL IMPEDIMENTS TO ECONOMY



عندما بدأت جمعية روتشديل لم تـكن الجمعيات المماثلة معترفا بها قانونا وظل الأمر كذلك لسنوات عديدة بعد ذلك ، فلم تـكن للأعضاء حقوق محددة بينما كانت مسئوليتهمغير محدودة ولم تكن لهم صلاحية التعامل مع الغير ولافيما بينهم،وعليه يمكن أن يختفى صندوق المال دون توقيع أى عقوبة على سرقته أو اختلاسه ، ولا يسمح للجمعية بتملك الأرض فوق قـدر معين صغيرة ولا يستطيع الأعضاء الاحتفاظ سوى بمبلغ محدود جـدا من المـال حتى بعد أن بدأ القانون يقيم جسور الصداقة معهم،ولا يستطيعون تخصيص مدخراتهم للتثقيف الذاتى ، ويتطلب الأمر صفحات كثيرة لو استرسلنا فى شرح كل المعوقات القانونية القائمة عندئذ ، فمن الذى جاهد بسخاء لتغيير الأمور ؟ ذلك مبسوط فى موضع آخر(١) ٠

When the Rochdale Society began, and for many years subsequent, such associations were not recognised by law. The members had no defined rights, and were under unlimited responsibility : yet they were incompetent to deal with outsiders, or even with themselves. Indeed, the cash box might disappear with impunity. The Society could not hold land above a small quantity ; members could only hold a very limited sum in the funds even after the law did begin to befriend them : nor could they devote their savings to self education. Indeed, it would take pages to explain all the legal disabilities then existing. By whose generous exertions all this came to be altered is related elsewhere.[1]

ولم يتفهم أحد الوضع القانونى للتعاون ولا اهتم به أكثر من رواد روتشديل ، فحق على مواطنى بلدة فيهم مستر توماس ليفساى عمـــدة ، ومستر كويدن عضوا ومستر برايت جـــارا أن تسبق بلدتهم غيرها من البلدان وقد كان ، وحصل الرواد بمساعدة أصدقاء بارنيه من حركة الاصلاح الاجتماعى فى لندن مثل مستر أ٠ف٠ نيل ، مستر توماس هيوز ، مستر ف٠ج٠ فيرنيفال ، مستر ج٠م٠ لادلو ، على التعديلات المطلوبة فى القانون ،

(١) تاريخ التعاون فى انجلترا المجلد الثانى ، فترة البناء ٠

وعندما نجحـــوا كرموا من عاونهم وسجلوا شكرهم لـكل واحد منهم ،
وفي عيد الميلاد عام ١٨٦٢ عقد في أولدهام مؤتمر سنوى ضم مندوبين
عن الجمعيات التعاونية في لانـكشير والمقاطعات المجـــاورة ، وممثلت في
المؤتمر ٧٥ جمعية ورأس المؤتمر مستر أبراهـــام جرينوود من روتشديل ،
وقال مستر وليام كوبر المندوب عن روتشديل والذى تولى سكرتارية المؤتمر
انه عندما عقد المؤتمر السابق في روتشديل يوم ٢٥ ديسمبر ١٨٦١ كان
مستر روبرت ا٠ سلانى ، عضو البرلمان الذى كان حتى ذلك الحين يتولى
شئون مشروع القانون في مجلس العموم ، قد سافر إلى أوروبا لســـوء
صحته ، وكانت اللجنة (بناء على موافقة مستر سلانى ونصيحة مســـتر
برايت الذى رافق وفدا لهذا الغرض) قد طلبت من الحكومة تقديم مشروع
قانون بهذا المعنى ، لـكن الحكومة رفضت تقديم المشروع كمبادرة حكومية
غير انها أوحت بأنها لن تعارضه إذا قدمه أحد أعضاء البرلمان ، وأوحى
مستر برايت للجنة بأن تطلب من مستر استكورت تقـــديم مشروع قانون
لدعم وتعديل قوانين الجمعيات الصناعية والادخارية ، فرحب بذلك وتولى
بصدق نيـــة شئون هذا المشروع في مجلس العموم ثم وصل عضـــو المجلس
مستر سلانى Robert A. Slaney (الذى نأسف لوفاته بعد ذلك بقليـــل)
فى موعد مناسب فأيد القانون فى قرأءته الأولى ، وأوفدت اللجنة ثلاثة وفود الى
لندن فى ثلاث مراحل مختلفة من مراحل نظر مشروع القانون أمام البرلمان لشرح
المشروع واستثارة اهتمام الأعضاء وكسبهم الى صفه ، وبالاضافة الى هذه
الوفود الخاصة ، كان صديق اللجنة الصدوق مستر أ٠ف٠نويل E.V. Neole
يقيم بالقرب من لندن ووضع نفسه رهن اشارة اللجنة ليعمل بما تراه كلما
احتاج الأمر ، ووافق نيافة و٠ن٠ مولزويرث W.N. Molesworth بكـــرم
أن يستخدم نفوذه لدى أعضاء البرلمان من أجل اللجنة ، وتبودلت فى تلك
الأيام مراسلات مكتوبة كثيرة بين من تولوا أمر مشروع القـــانون أمام
البرلمان وبين اللجنة ٠

وقدم مستر ادوارد هوسون Edward Hooson ، من مانشستر ، الاقتراح
التالى :

« يقدم هذا المؤتمر التعاونى عظيم تقديره وامتنانه الى السيد جون
برايت عضو البرلمان لنصحه القيم الذى قدمه الى من رعوا » مشروع قانون

تعديل قوانين الجمعيات الصناعبة والادخارية ولخدماته العظيمة ومساعدته الشخصية فى كل مرحلة من مراحل مشروع القانون ولاعداده مقابلات الوفد مع وزارة التجارة ولمساعيه الطيبة فى اقناع مستر ج٠ س٠ استكورت ليتولى أمر مشروع القانون فى مجلس العموم وهى خدمات ليست بالقليلة ولا يسعنا إلا الاعتراف بها بكل احترام لأنها غاية ما يمكن أن تتمناه الطبقة العاملة المصممة على تحسين شئونها بنفسها من مستر برايت » ٠

وكان رد مستر برايت على هذا الاقتراح خطابا بعث به الى مستر وليم كوبر ، أولدهام رود ، روتشديل :

روتشديل فى ١٩ يناير ١٨٦٣

« سيدى العزيز — لابد لى أن أشكركم والمندوبين فى المؤتمر على قراركم الذى ذكر خدمات أكبر مما استطعت تقديمه اليكم ولكنها ليست اكبر مما تمنيت تقديمه ، وآمل ان تكون عاقبة القانون خيرا كثيرا وهو ما يشيع الرضا فى نفوس كل من أيدوه » ٠

وقدم مستر جرينود ، رئيس المؤتمر ، الاقتراح التالى :

« يقدم هذا المؤتمر الى الرايت أونرابل سـوذرن استكورت عضـو البرلمان شكر واحترام جميع أصدقاء التعاون على تفضله وكرمه بقبول تولى أمر « مشروع قانون تعديل قوانين الجمعيات الصناعية » الذى أولاه فضل المزايا التى يتيحها له منصبه البرلمانى الذى مكنه من أن يجتاز بنجاح لجنة العرض على مجلس العموم » ٠

وكان مستر استكورت عندئذ فى إيطاليا فأرسل الخطاب التالى الى مستر جرينوود :

فلورنسا فى ١٦ فبراير ١٨٦٣

سـيدى — تلقيت توا القرار الودى الذى صـدر فى اجتماع منـدوبى الجمعيات التعاونية المنعقد فى أولدهام يوم ٢٥ ديسمبر اعترافا بما قمت به فى الدورة الماضية فيما يختص « بمشروع قانون تعديل قوانين الجمعيات الصناعية » ٠

وأرجو أن تنقلوا الى المندوبين مشاعر الرضا التى أحسستها حين تلقيت هذه اللفتة وأن تؤكدوا لهم سرورى بأنى قمت بهذا العمل ٠

ولا يسعنى إلا أن أذكركم بأنى خلال إعداد مشروع القانون وتمريره فى مجلس العموم تلقيت عونا عظيما من وزير التجارة والمستشار العام ، وأن القانونى القدير الذى عينته الحكومة لإعداد الإجراءات راجع مشروعى وأن لورد بورتمان Lord Portman تولى مشروع القانون فى مجلس اللوردات وساهم أجل مساهمة فى انجاحه بادارته الحكيمة ، وانى يا سيدى خادمكم المطيع » ٠

ج٠ سوذرن استكورت

وقدم مستر تشارلز هوارث أقدم منظم تعاونى فى روتشديل الاقتراح التالى :

« يصدر المؤتمر توجيهات الى رئيس هذا المؤتمر بأن يعرب للورد بورتمان ، نيابة عن المندوبين التعاونيين الحاضرين عن شكرهم الصادق للخدمات الجليلة التى اداها لمصالح العمال الانجليز بتفضله بقبول عمل ومسئولية تمرير « مشروع قانون تعديل قوانين الجمعيات الصناعية » فى مجلس اللوردات ، ويؤكد لفخامته أن التعاونيين فى انجلترا سيعرفون كيف يقدرون العطف الذى أبدى ازاء حقوق العمال بإصدار هذا القانون » ٠

وأرسل لورد بورتمان الرد الآتى الى مستر كوبر :
بربانستون ٠ بلاندفورد فى ٢٤ يناير ١٨٦٣

« سيدى ــ ثقتى عظيمة فى جمعيات الصداقة والصناعة التعاونية ولذا جاهدت فى مساعدتها منذ أن دخلت البرلمان أى منذ أربعين سنة حتى الآن ، ولذا لا يحتمل أن افشل فى محاولاتى مادامت عندى القوة التى تجعلنى ذا فائدة ، خادمكم المطيع » ٠

بورتمــــان

وقدم مستر سميثز ، من روتشديل ، الاقتراح التالى :

« ان هذا المؤتمر يسىء الى واجبه لو انفض دون أن يعرب عن أسمى تقدير التعاونيين فى انجلترا وما يليها للسير ادوارد فانسيتارت نيل لاهتمامه

العظيم بمصالحهم ويود هذا المؤتمر أن يسجل بصفة خاصة شكره القلبى لخدماته القانونيـة والمهنية التى قدمها بمناسـبة « مشروع قانون تعديل قوانين الجمعيات الصناعية » وهى خدمات قدمها فورا وبلاتحفظ ، ولنصحه ومساعدته ونفوذه الذى بذله بجد واستمرار فى كل مراحل مشروع القانون ويدين أعضاء كل جمعية تعاونية فى المملكة لمستر نيل بشكر شخصى » ٠

وكان رد مستر نيل من شأنه أن يضيف الى ما يدين به التعاونيون له ، وفيما يلى خطاب مستر نيل :

وست ويكهام

« سيدى العزيز – أرجو أن يكون مشروع القانون الذى ساهمت فى الحصول عليه لكم فاتحة عهد من الجهد التعاونى الصادق بين عمال انجلترا ، فمثل هذا الجهد لابد أن يثمر كما عظيما من الخير ، لكن يجب أن نصبر ونثابر ، وأعظم ما يجب أن يشغل اذهان العمال أهمية السعى لرفع شأن طبقتهم بدلا من قصر الجهد على رفع شأن كل منهم كفرد ، وتقع هذه الفكرة فى عمق الجدال الناشب حول اعطاء العمال – بصفتهم هـذه – حصـة فى الأرباح وقد يقول الرجل الذى ادخر رأس مال صغير : « سانال أكثر إذا أخذت كل الأرباح لنفسى » لكن هل سينال أطفاله أكثر ؟ أليس من الأجدى له وأكثر أهمية كعامل أن يعمل على ايجاد أوضاع بموجبها يشارك أطفاله وأقرباؤه الآخرين فى أرباح رأس المال مهما كانت أعمالهم وحرفهم بدلا من أن يحصل هو على شلنات قليلة أو جنيهات كل عام زيادة على ما يحصل عليه لنفسه بينما تبقى الأوضاع الحالية ثابتة لا تتغير بالنسبة لكل شخص يعرف أو له به صلة ولكن لم يدخر رأس مال أو لم يكن له حظ استثماره استثمارا مفيدا ؟

المخلص

أ٠ ف٠ نيـل

وقدم مستر جيمس دايسون عضو جمعية الترزية للعمال الاقتراح التالى الذى أيده مستر ادواردز من مانشستر :

« يود هذا المؤتمر المؤلف من ممثلى الجمعيات التعاونية أن يعرب عن تعاطفه العميق مع أسرة المرحوم الأونرابل روبرت أ٠ سلانى عضو البرلمان فى مصابهم ، كما يود أن يقدم لها أسمى المشاعر والشكر القلبى لمجهوداته الكثيرة القيمة فى مجلس العموم للمساعدة فى الموافقة على

القوانين التى منحت الأمان والاستمرار لهذه الجمعيات وبذلك يتمكن شعب بريطانيا العظمى من تنظيم صفوفه من أجل تحسين ظروفه الاجتماعية ، والمادية والمالية والمعنوية ، وستظل ذكراه أبدا لدى الطبقات العاملة ذكرى مقدسة اعترافا بالجميل •

ورد كابتن كينيون سلانى صهر نائب شروزبرى الراحل بما يلى :

والفورد هول ، شروزبرى

Walford Hall, Shrewsbury

« أتشرف بابلاغكم بوصول خطابكم المؤرخ ١٣ يناير المرفق به نسخة من القرار الصادر من مؤتمر لمندوبى الجمعيات التعاونية العمالية عقد فى أولدهام يوم ٢٥ ديسمبر يعرب فى أرق العبارات عن التقدير الحار للخدمات التى قدمها للجمعيات المرحوم مستر سلانى عضو البرلمان عن شروزبرى • مع تقديم العطف والتعزية لأسرته فى مصابها » •

« إن تسجيل خدمات مستر سلانى بهذه الطريقة والتقدير الذى قوبلت به تلك الخدمات لهو مما ينزل أعظم الرضا والارتياح على أولئك الذين وجهتم إليهم رسالتكم فهم يعلمون تمام العلم الأهمية التى كان يعلقها مستر سلانى دائما على الجمعيات التعاونية والحماس الذى عمل به فى البرلمان وخارج البرلمان لتحقيق نجاح هذه الجمعيات ، كما عمل بشتى الوسائل من أجل ازدهار مصالح الطبقات العاملة وتحسين أوضاعها ، غير أنه نادرا ما نالت هذه الأفعال اعترافا وتقديرا مثل هذا الذى من واجبى الآن أن اعترف لكم به ، وقد طلب منى أن أعرب لمندوبى الجمعيات التعاونية ، وأنتم تمثلونهم بحق ، عن الشكر القلبى الحار من جانب كل عضو من أعضاء أسرة مستر سلانى للشعور الطيب الذى انبثق عنه هذا القرار وبعبارات عرفان الجميل الكريمة والتحية والاحترام لذكراه ، وللعطف الكريم الذى عبرتم عنه لأولئك الذين يحزنون الآن لفقده » •

وأمضى المندوبون التعاونيون يوم عيد الميلاد لعام ١٨٦٣ بمشاعر الإمتنان والفخار بإصدار هذه القرارات التى تعرب عن الشكر والاعتراف بالجميل ، وأنشئت فى اليوم نفسه وفى الاجتماع ذاته وكالة البيع بالجملة لشمال انجلترا المذكورة فى فصل آخر •

ولم تكن أولدهام فى ذلك الوقت المكان الذى يشجع على زيارته فى يوم عيد ميلاد وظل كثير من المندوبين فى البلدة حتى ساعة متأخرة من المساء الى أن عادوا بالقطار الى مواطنهم ، وبينما كانت انجلترا كلها تقبل على الاحتفال وأكل الديوك الرومية والحلوى ، تحمل هؤلاء التعاونيون مشاق السفر بالسكة الحديد والعمل الشاق كمندوبين وهو أمر يحسب لهم ، ولاشك أن روتشديل كانت على أتم استعداد لتؤدى نصيبها من هذا العمل وهو ما يشهد به كل من له صلة شخصية بالرواد الذين تحلوا بالوعى والضمير الحى الذى يحفزهم للعمل من أجل الجمعية ومن أجل روتشديل أيضا ، فأرادوا أن يبينوا ما يمكن عمله حفزا لغيرهم على أن يفعلوا مثل ما فعلوا ، فهم يعنون بالغير ولذلك يعنى الغير بهم ، ويريدون رفع شأن الطبقة التى ينتمون اليها ، ويرون أن رفع شأن العمال كطبقة هو الضمان الأكيد لتقدم أعضاء هذه الطبقة كأفراد ، وهذا الشعور هو الذى أضفى الاحترام والنبل على التعاونيين فى روتشديل أكثر من أى نجاح حققوه ٠

وتجشم قادة الجمعية التعاونيون تقديم قرارات الشكر فى عبارات معبرة بقدر استطاعتهم ، وأعتقد أنهم علموا أن أكثر الناس يحملون فى نفوسهم قدرا من الكراهية وهم قادرون على ابدائه سريعا وبسهولة ، لكن الاطراء شىء آخر مختلف لا يصدر إلا عن كرم نفس وسماحة وتقدير وهذه صفات ومشاعر ليست ارتجالية بل تحتاج الى تفكير وتأنى ، فالإنسان يغضب بلا إعمال فكر لكنه لا يمكن أن يمدح متعقلا بدون فكر « ولذلك تتضح صفة الإنســان العقلية فى المدح الذى يصدر منه أكثر منها فى اعتراضه وتكشف المهاترات عن شعور الإنسان ويكشف المدح عن فهمه ، وإذا أراد أن يعرب عن احساسه القوى بخدمة قدمت إليه فأحسن الوسائل لذلك اظهار تقديره الصحيح لها وتعتبر تلك الوســيلة الطريقة الوحيــدة للمدح التى يقبلها العاقل ويراها التحية المعقولة له ٠

وعانى الرواد بعض المعاناة كى يصيغوا قراراتهم فى العبارة التى تروق لهم ودفعوا لى ١٠ شلنات لكتابة القرارات التى يجب أن تشمل كل منها الخدمات التى قدمها كل فرد والصفات التى يتصف بها ، حتى صدر كل قرار مختلفا عن الآخر ومستندا الى معلومات شخصية ٠

وقبل ١٦ عاما قدم الرواد لفتة شكر طيبة الى مطران سبوتلاند الحالى (وكان فى ذلك الوقت مشرفا على تلك الكنيسة) من أجل خدماته الجليلة لهم ، وهى خدمات يمكن القول بانها الآن تضاعفت مع السنوات التى مضت منذ ذلك الحين ، فقد حملوا يوما الى مستر مولز ورث نسخة مجلدة تجليدا جميلا من « السداسية الانجليزية » وعليها الأهداء التالى :

« الى المحترم و· ن· مولزورث (المشرف على كنيسة سبوتلاند) من اللجنة التثقيفية بجمعية رواد روتشديل العدول التعاونية اعترافا بخدماته القيمة بلا دوافع شخصية نيابة عن الجمعية والتعاون بوجه عام ·

٢٠ ديسمبر ١٨٦١ — صمويل نيوتون – السكرتير

Samuel Newton, Secretary

وكان مستر مولز ورث يهتم اهتماما شخصيا بالجمعية منذ نشأتها تقريبا وزار مستر وليم كوبر وتكلم معه عنها ، وخطر له أن ينضم لعضويتها حتى يتابع تقدمها عن كثب ، لكنه لم يستطع غض النظر عن أنه لو انضم إليها وحدث لها ما يسوء فربما يعد مسئولا عن ذلك شخصيا ، لأنه لو انضم شخص ذو مركز الى جمعية ما رغم عدم صلته بادارتها فقد يعتبر أنه يضيف نوعا من الضمان الى مركزها المالى القانونى ، مع أن كل قصده أن يساعد جمعية نافعة تعمل من أجل تحسين الوضع الاجتماعى للعمال ، ومن ناحية أخرى فان الجمعية حين لا تحظى بالاعتراف القانونى ولا تكون المسـئولية محدودة ، فقد يصبح العضو الثرى مسئولا عن الخسائر التى لا يمكن اسناد مسئوليتها الى الأعضاء الآخرين الذين لا يملكون المال لتغطية نصيبهم من الخسائر ، **ومبلغ علمى أن مستر مولز ورث سأل مستر كوبر « هل المسئولية محدودة ؟ » ·· وكان سؤاله من واقع تقديره لأحوال الآخرين أكثر من رعايته لمصالحه ، ورد مستر كوبر « بأنها كذلك » لكنه وجد نفسه على خطأ فيما بعد ، وعندها أوضح له مستر مولز ورث كيف أنه من غير المقبول أن يسأل كل عضو من أعضاء الجمعية عن خسـائرها إن حدثت وتكون أمواله كلهـا ضمانا للخسائر ، وانتبه مستر كوبر الى خطورة هذا الوضع ، وطلب الى مستر مولز ورث وواحد أو اثنين من كبار أعضاء الجمعية أن يجتمعوا فى مكتبه لتدارس الأمر ، وأجاب مستر مولز ورث هذه الدعوة وجاء ومعه عدة مقترحات وافق عليها المجتمعون بالصورة التى قدمت بها تقريبا وان لم تكن مطابقة لها تماما ، وأرسلت المقترحات الى مستر فانسيتارت نيل فأعادها موصيا باتباعها . وقد نشرت بعد ذلك بقليل على وضعها المتفق عليه ·**

الفصل السادس عشر

الأجانب المشاكسون المتشككون

QUERULOUS OUTSIDERS

معرفة كيفية التعامل مع الأجانب جزء غير قليل من فن التقدم والنجاح لاسيما ان كان لديك قضية عادلة ومبادىء واضحة وأنصارا صادقين ، ولذا فلننظر بفضول وذكاء وتشوق الى مسألة الأجانب ، فلو أننا عنينا باقناعهم منطقيا وتعاملنا معهم على هذا الأساس فسيأتى عليهم يوم يصبحون فيه من زمرتنا ، وأتناول هنا الأجانب المتشككون ، أولئك المستاءون غير الجاهلين ، الناقدون الذين يقصدون الأذى ويرونه ويتعمدونه ، وكثير من هؤلاء حاموا حول جمعية روتشديل لسنوات ، وتحول أصحاب المتاجر أحيانا الى معارضين غاضبين لأنهم أثيروا بلا ضرورة كأن يعلن متحدث تعاونى مفاخرا فيقول « انظروا الى الأرباح الكبيرة التى حققتها المتاجر الرئيسية ٢٠٫٠٠٠ أو ٣٠٫٠٠٠ أو ٤٠٫٠٠٠ جنيه فى السنة ، وكل هذه المبالغ انقذت من براثن أصحاب الحوانيت » وليس الأمر كذلك أبدا فلم يؤخذ شىء من أصحاب الحوانيت انما تحقق الربح بتجميع المشتريات وشرائها بالجملة ، وبالوفر فى التوزيع ، وقلة عدد الحوانيت وقلة عدد المستخدمين ، والاستغناء عن الاعلانات وتكاليف العرض ، ويربح التعاونى من عدم تعدد الحوانيت وبالتالى التوفير فى الايجارات والضرائب والاستغناء عن كثرة المستخدمين غير الضروريين للخدمة الفعلية ، وعن الاعلانات ، والبعد عن الاسراف فى الاضاءة ، وتلافى الخسائر الناشئة عن تقادم السلع بلا بيع وعن الديون المعدومة ويثرى التعاونى بالمحافظة على ما اعتاد صاحب الحانوت الفرد أن يفرط فيه .

وما التعاونيون إلا كالمشتغلين بالتعدين ، غير أنهم يعملون فى حقول التجارة الذهبية عثروا على ما غفل عنه أصحاب المتاجر وما أكثر التجار الذين حزنوا على ظن أنهم فقدوا أرباحا لم يكونوا ليحققوها ولو لم يولد التعاونيون أبدا ، ويربح التعاونى لأنه ينتهج طريقة عالية فى العمل وبسبب الوفورات الطبيعية للتنسيق .

وينشرتعاونيو روتشديل تقويما سنويا يعتبر بيانهم السنوى لأنه يسجل تقدمهم وآراءهم ويصنف هذا التقرير عدة أشخاص ويظهر بين الحين والآخر

مقال يدل على أن الكاتب قادم جديد لا يفهم تقاليد هذه الجمعية العظيمة ، ويتضمن التقويم بين حين وآخر هجوما على التجار مما يتجنبه عادة التعاونى الحكيم ، ومن أمثلة ذلك ما جاء فى تقويم ١٨٦٠ من انكار لمبدأ المبادرة الذى يجعل من التعاون قوة ذات أثر صحى ، وفيما يلى الفقرة المشار اليها :

« لا تسعى الحركة التعاونية الحالية الى تسوية التفاوتات الاجتماعية المتنوعة الموجودة حاليا فى المجتمع فيما يتعلق بالثـروة إلا فيـما يختص بتمكين الرجل العامل من أن يشارك بجزء من رأس المال المطلوب أولا لشراء سلع الاستهلاك من أولئك الذين ينتجونها أو ممن هم أقرب إليهم ما أمكن بحيث يتملك لنفسه الأرباح التى تجرى الآن الى جيوب تجار التجزئة ، ثم تمكينه أيضا من المساعدة فى تقديم رأس المال اللازم ليمارس حرفته الصناعية الخاصة ، وبذلك تتوافر له فرصة المشاركة فى أرباح عمله ، مع أبعاد الفرصة عن أصحاب رأس المال الصغير لكسب ثروات ضخمة من جهد ونشاط الناس الذين لا يكادون يحصلون على الغذاء والملبس فى أحسن الأحوال ، وفى كلمة واحدة فإن الحركة التعاونية الحالية لا تسعى الى فرض أو تنفيذ أى مبادىء معينة لأى شخص معين ، وهذه الفكرة المسلمة من جانب تعاونى اليوم من شأنها إبطال الادعاء الذى يلقى تصديقا عاما من أن التعاون ليس إلا الفكرة اليوتوبية التى دارت فى أذهان المتحمسين من أمثال سان سيمون ، وروبرت أوين ، ولوى بلان وغيرهم ، وأنها بسبب ذلك غير قابلة للتنفيذ عمليا » ٠

هذا مدح لا ضرورة له للعجز الجماهيرى ، وهذا الجحود لكل سوابق التعاون ربما يخدم غرضـا أيام الكفـاح الذى خاضته الحركة أما فى يوم انتصارها فلا مبرر له ، فلولا سان سيمون وروبرت أوين ولوى بلان وغيرهم لما أمكن للتعاون أن يرفع رأسه لأجيال عديدة ولولا عبقرية سان سيمون وتضحيات أوين النبيلة ، والمخاطرات الشجاعة من جانب مناصرى التعاون البلغاء من أمثال لوى بلان لمات مئات الآلاف من العمال الذين لهم وزن الآن مينة البروليتارى الأعمى الشاكر لفضل السماح له بأن يعمل ويتكاثر ويعانى ويهلك(١) ٠

---

(١) يفسر محرر المقال الذى ظهر فى التقويم آراءه بقوله : « نحن متهمون (بالاشتراكية) و (الشيوعية) وهى فى نظر من نريد الاتصال بهم تعال (الكفر)
=

وبما كان المقصود من تلك اللهجة بعث حسن النية فى قلوب الأجانب المشاكسين الذين يجددون محاولاتهم للاضرار بخصمهم ، لكن يجب الاعتراف بأنه كان يوجد فى روتشديل ابان الأيام الأولى للحانوت التعاونى قلة من أصحاب المتاجر ذوى الشراسة ويجدر بنا أن نقص حادثة طواها النسيان وقعت فيما قبل أيام الحانوت ، فلما أضرب نساجو الفانيلا عام ١٨٤٤ لم يكونوا زبائن طيبين للتجار ولم يكن لدى هؤلاء أدنى سبب ليميلوا الى النساجين ، ولا شك أن حاجة العمال جعلتهم يقبلون اقبالا شديدا على التعامل بالأجل وزاد الطين بلة ضعف قدرتهم على السداد وطلبهم المساعدة ليستمروا فى الإضراب ، وعندئذ قام تاجر فى يوركشير ستريت يحمل اســـما أجنبيا هو بوتسى Pozzi وأراد ـ مثله فى ذلك مســز كودل Caudle ـ أن يعطيهم « بعضا من فكره » ، فقال لهم أنهم « أوغاد » ويجب أن يعودوا للعمل ، لقد كانوا فقراء لكنهم ليسوا كسالى ، وكانوا جوعى لكنهم أصروا كما قالوا على « معاقبة أصحاب المتاجر الذين أهانوهم » ، وهكذا عمل الاستياء الى جانب الفلسفة الاجتماعية فى التشجيع على إنشاء الحانوت ، وهو تصرف انجليزى حقيقى ، فنادرا ما يخرج اصلاح من هذه البلاد الى حيز الوجود لأنه معقول ، بل يحفزه للظهور غضب أو اهانة وعندئذ تلتهب العقائد الاصلاحية ، وانبعث كثير من التعاونيين القدامى الذين خبت فى صدورهم نار المبادىء من جراء الصعوبات التى صادفوها ، فاشتعلت النيران من جديد لاستيائهم من « بوتسى هذا » ، وحتى بعد مضى ١٧ عاما كما يقول تقويم ١٨٦٠ مازالت ذكرى هذه الاهانة المثيرة ماثلة فى الذهن التعاونى ، وطبيعى أن يعتقد العمال المضربون أنهم ماداموا ينفقون معظم أجورهم فى المتاجر فمن مصلحة التجار أن يحصل العمال على زيادة فى الأجر ، لكن العمال لم يحصلوا إلا على مساعدة ضئيلة للغاية ، فكثير من التجار لم يستطيعوا المساعدة لضعف مواردهم ، وأكثر من هذا العدد امتنعوا لأنهم لا يتعاطفون

=

و (الفوضى الاجتماعية) ونحن لا نهتم بأصحاب الحوانيت ونعلم من تجاربنا أنهم ضدنا ، لكن اهتمامنا بالجماهير الغفيرة من العمال الذين نريد أن نجلب لهم منافع لم يعرفوها أبدا ، ولو اكتفى كاتب المقال بالقول بأن رواد روتشديل يسيرون فى طريق متميز عن طريق هؤلاء المفكرين العظام ولكن فى نفس الاتجاه الرامى الى تحسين الأوضاع التى أشار اليها هؤلاء المفكرين العظام الذين تأثروا بهم لكان قد دافع عن النساجين دفاعا طيبا يخلو من سوء التقدير الضار ».

مع العمال ، وكان بينهم عدد غير قليل من الفقراء بسبب الائتمان الذى منحوه للعمال •

لكن إذا أمكن أن يكون التعاونيون والنقابيون غير منصفين ، فيمكن أن ينزلق أصحاب المتاجر الى الغباء وفعلا أبدى كثير من تجار روتشديل رغبة ومقدرة على الميل الى هذا السبيل ، وفى عام ١٨٥٩ بعد سنتين من صدور الجزء الأول من هذا التاريخ وعندما أدرك التجار جيدا أن التعاون ـ كروج جون براون John Brown ـ « يسير قدما » نزلوا الى الميدان معادين ريتشارد كوبدن Richard Cobden لأنه عرف بصداقته للعمال التعاونيين ، وفى انتخاب تال أيد أصحاب المتاجر مستر باليول برت Baliol Brett ، وهو محام من المحافظين لم يفعل شيئا ولم يقدم شيئا أبدا ، ولم يعرف أنه أسدى مطلقا أى خدمة إنسانية للناس وحاول كثرة من تجار روتشديل ، وان لم يكن كلهم ، أن يعطوا مقعد ريتشارد كوبدن الى محام محافظ مغامر ، ولم يكن ذلك بدافع من التقاء فى الفكر السياسى ولكن من واقع المصالح التجارية •

إذا عدم الإنسان مبدأ الأمانة فى التجارة أصبح لصا وهو الأسم الذى تعرفه المحاكم الجنائية فى هذا الصدد ، وإذا تخلى الإنسان عن المعتقدات الشريفة والمعرفة الواضحة فى الشئون العامة مفضلا المصالح والطموح على الصالح العام فقد أصبح لصا فى السياسة وليست مصادقة التعاون ولا عداوته مبررا للتصويت لأى مرشح بل يجب أن يكون الأساس وحدة قدرة المرشح على خدمة البلاد •

To be without honest principle in commerce, is to be a thief-that is what it is called in criminal courts. To be without honest conviction and clear knowledge in public affairs and prefer your private interest or ambition to the public good-that is to be a thief in politics. Neither friendliness to co-operation nor opposition to it is a reason for voting for any candidate. His general fitness to serve the country is the only ground for preferring a member, as nations go in their daily and ordinary march.

وفى عام ١٨٥٩ اختار تجار روتشديل رجلا محافظا أسمه رامسى على أنه المرشح المعادى للحانوت التعاونى ، وكان اختياره على الأساس المحترم فى ميدان السياسة المحلى وهو أنه لم يفعل شيئا مطلقا ، فلم يكن

أبدا باعث أى اصلاح عام ولم يجاهد مطلقا من أجل مصلحة عامة ، أى انه متميز انتخابيا لعجزه وفشله ، وهكذا دفعه التجار الى الميدان ، وفيما يلى فقرة مقتبسة من أحد اعلاناتهم كان ملصقا على الحائط وانتزعه البعض واحضره لى :

احترســـــوا !

LOOK OUT !

مـن الأفضـــل لتجـــار روتشـــديل أن « ينتبهوا قبل أن يقفزوا Look before they leap » فى الكفاح القادم ، ويحسن بهم أن يسألوا هذا السؤال الهام » من هم الرجال الذين يشغلون أنفسهم فى اتخاذ الوسائل لانجاح ريتشارد كوبدن Richard Cobden فى الانتخاب ؟

هـل يعلم أصحاب المتـــاجر أن انصـــار فئـــة برايت وكوبدنيت Bright-and-Cobdenite هم ايضا طليعة أعضاء الحوانيت التعاونية ؟

أليس من قبح السمعة أن يكون جورج آشفورد (واقربائه) وجاكوب برايت ، وجون بترى وباجن (واقربائهم) وليفسى ، وكيمب ، وكلسال (واقربائهم) الذين هم فى صفوف الراديكاليين هم جميعا قلبـا وقالبـا مع هذه الحوانيت ومن أنصار ومؤيدى هذا النظام السىء ؟

وهل لن يدرك أصحاب المتاجر فى روتشديل دروس الماضى ؟ وهل لن ينتبهوا أبدا للواقع الحقيقى لشئونهم ؟ وهل يستمرون فى مساعدة الرجال الذين يؤيدون نظاما يتجه فى فترة غير بعيدة الى انتزاع خبزهم اليومى من بين فكيهم ؟

إذا كان أصحاب المتاجر فى روتشديل على وعى كامل بهذه الحقيقة فإنى أسأل هل سيوجهون طعنه نجلاء الى مستقبلهم بأن يصوتوا عمدا الى جانب فئة برايت وكوبدن ؟

ليس هناك إلا سبيل واحد رشيد بالنسبة لهم هو أن يصوتوا من أجل رامسى من أجل العدالة والحرية لا من أجل كوبدن وأنصار ليفسى .

صاحب متجـر

ولا يحمل هذا الاعلان اسما لشخص بعينه ، لكن أصحاب المتاجر لم يذكروا نسبته إليهم ، ولا يحمل اسم طابعه ليمكن الاستدلال على مصدره بسهولة ، وجاء الرد عليه يحمل عنوانا عريضا وموجزا وجافا وذا دلالة ، وفيه اسم الطابع ومذيلا بتوقيعات عدة أسماء ممتازة وشريفة :

أكاذيب المحافظين

جرى بنشاط عظيم توزيع اعلان يدوى ، صادر من مجهولين ولا يحمل اسم الطابع ، فيما بين أصحاب الحوانيت فى هذه المقاطعة ، وهو يحاول بالأكاذيب المطلقة الواضحة أن يثير هؤلاء ضد ريتشارد كوبدن ·

وتهدف الأقوال المشار اليها الى أن قادة مؤيدى ريتشارد كوبدن متصلون بحانوت روتشديل التعاونى ·

ودون أن نبدى أى رأى فيما يتعلق « بالحانوت » نعرب نحن الموقعين على هذا بصفتنا جميع الأشخاص المذكورين فى الاعلان عن مخالفتنا التامة غير المشروطة للإعلان ونؤكد أنه ليست لنا علاقة بهذه المنشأة سواء مباشرة أو غير مباشرة ·

ولا شك أن قضية سير الكسندر رامسى **Sir Alexander Ramsay** يراها أصدقاؤه لا أمل فيها وإلا لما اضطروا للجوء الى هذه الوسيلة المشينة فى محاولة يائسة لتحقيق أهدافهم ·

فيا أصحاب المتاجر فى روتشديل لا يصرفكم عن مصالحكم الحقيقية محاولات المحافظين البلهاءلذر الرماد فى عيونكم ، فلم يصنع أحد للتجارة فى هذه المقاطعة عامة ولأصحاب المتاجر خاصة اكثر مما صنع ريتشارد كوبدن ، أعطوه أصواتكم ، واثبتوا للمحافظين أن الألاعيب والأكاذيب لن تنجح مع الشرفاء ·

جورج آشــــفورد
جورج بترى
جاكوب برايت
جون باجان
كيلسال وكيب
توماس ليفسى

روتشـــــيدل ١٨ ابريل ١٨٥٩

وتلقيت أثناء احتدام المعركة الانتخابية اعلانا عليه هذه الكلمات : « ريتشارد كويدن سيكون نائبا عن روتشديل – وليم كوبر » وقد كان ، ولن يجد التجار سببا للشكوى من معاداة التعاونيين لهم أحيانا ماداموا يلجأون لهذه الألاعيب ، وهذا مثال كاف عن مشاكسات التجار ٠

ويبرز عادة فى جمهرة الأجانب عن الحركة شخصيات مثل مراسلى الصحف ومصدرى النشرات تحت اسم « التاجر » و « المراقب » و « العامل » وهى الصفات المفضلة لدى هؤلاء ، وهناك بعض الحق فى اعتراضات أصحاب المتاجر الواردة فى تلك النشرات ، فقد كانت الحوانيت التعاونية قليلة الكفاءة ،ولاشك أن اعتراضات المعترضين هؤلاء كانت سببا فى احداث كثير من التحسينات ، وعندما اصدرت نشرات ردا على تلك النشرات قلت للتعاونيين أن الأمر يحتاج فى معظم المناطق الى إنشاء مستودع مركزى جيد الموقع والتجهيز يشترى البضائع وعندئذ يمكن اختيار السلع بدقة وتكثر الأرباح ويصبح اصغر حانوت تعاونى كفؤا لأكبر صاحب متجر ، لكن الجمعيات التعاونية كانت تحتاج الى وقت لتدرك مصالحها وتعى ما يقال لها ، واختار بعضها ان يسير وحيدا ويخطىء ويشترى مشتريات سيئة ابتغاء ربح عاجل بينما هى فى الحقيقة تخسر طبيعتها وتؤذى نفسها والأعضاء والمبدأ نفسه على المدى الطويل ، لكن هذه الحالة من قصر النظر سوف تشفى مع الوقت ، وعلاجها ممكن بالصبر والتعقل لا باللوم ، ويحق لكل جمعية طبعا أن تشترى من حيث تريـد وينبغى أن ننتظر الى أن يتغلب العقل والحكمة والمصلحة المستنيرة فرجال مثل العاملين محركى الفتن يظهرون فى كل مكان لكن عددهم يقل ويقل كلما سار المبدأ العظيم فى طريقه ، ربما تقع أخطاء ويحدث فشل لكن ذلك يقع ويحدث فى كل مكان ، لكن يغطى النجاح على كل ذلك وهو نجاح غير منتظر وهام جدا بحيث يدفع بالإصلاح الاجتماعى الى الأمام ويجعل التعاون المبدأ المقبول الآن لتنفيذ سياسة المساعدة الذاتية للجماهير ٠

وفى كل مجتمع معارضون « للرجال العاملين » وهم يظهرون فى كل بلدة وغالبا ما يكونوا من نوع سىء للغاية ، يزحفون من حماة المنافسة ، وقد يقصدون خيرا أحيانا ويقصدون شرا أحيانا ، وقد رأيتهم من قبل وأعلم ما يريدون قوله قبل أن يتكلموا ولا يصعب الرد عليهم فى الظلام ، ومن المفيد ملاحظتهم فى المراحل الأولى من اية قضية وهم يحبون ذلك ، فان كتبوا

كما يكتب المخلصون فقدم لهم احترامك وإذا لم يفعلوا رد عليهم فى حــدود معينة ، فالأخطاء والتضليل وسوء الفهم والتحامل حيات تضطرم بالحياة من طرفيها ، فلو قطعتها نصفين من وسطها فستواصل الحياة ، ومادامت تستطيع التلوى فهى تستطيع النهش ، لكن القطع يؤذيها على كل حال ولذا فمن حسن السياسة مهاجمتها وتقطيعها ٠

الفصل السابع عشر

أربع سنوات خطرة

FOUR DANGEROUS YEARS

عندما نشبت حرب الرقيق او بالأحراى الحرب التى شنها حزب جنوب الولايات المتحدة دفاعا عن الرق أصبح معروفا أن المجاعة القطنية ستاتى فى أعقابها وستتوقف مصانع لانكاشير ويوركشاير وتفقد مئات الألوف من الأسر مورد رزقها ، وهذا يعنى نقص الطعام واضطرار جون بول أن يمضى بلا قماش قطن من الدبلان ، وفقد أصحاب المصانع لمنبع الربح ، وتنبأ الناس أن التعاون سيقف مع توقف دفع رخاء الطبقة العاملة ٠

وهز الاقتصاديون السياسيون رؤسهم الثقيلة بطريقتهم الحكيمة ، ولا نعنى ذلك الطراز الجيد مثل مستر ج٠ س٠ ميل J.S. Mill أو بروفسور فاوست الذين ناصروا التعاون دائما ، ومع ذلك فقد أرسل البروفيسور فى « ماكملان » أنينا مهنيا عبارة عن تحذير هين ، لكنه مع ذلك غير واثق من قدرة القوى الجديدة المنسقة للصناعة على تحمل صدمة السنوات الخطرة القادمة ، فقال : « هل تستطيع جماعة من العمال مجتمعة فى مصنع قطن أن تبقى معا سنتين أو ثلاث سنوات مع انخفاض الأرباح وتتحمل صعوبات الأزمة المالية ؟ تلك مشكلة تتطلب حلا »(١) ٠

وعندما بدأت السنوات الخطرة (من ١٨٦١ الى ١٨٦٤) كان فى روتشديل مراسلون لجريدة التايمز يكتبون من هناك ، ولاشك أن ما يكتبونه سيظل لسنوات عديدة من أمتع الكتابات وفى عام ١٨٦٢ لم تنفق لجان الاغاثة كثيرا على الأسر ، وفى ١٩ ديسمبر من هذا العام كتب مراسل التايمز من روتشديل قائلا : « ليس من السهل أبدا التأكد بأى درجة من الدقة الى أى مدى استنفد المتعطلون مواردهم الخاصة لمواجهة الكارثة التى ألمت بهم ؟ ، وتختلف الاستثمارات المفضلة لدى الطبقات العاملة باختلاف البلدان ، ففى بلدة يعتبر بنك الادخار المكان المفضل لإيداع الأموال ، وفى بلدة أخرى تروج جمعيات المبانى بين الناس ، ثم حدث مؤخرا أن أقبل الناس اقبالا شديدا على الجمعيات التعاونية ، ولذلك فان مقارنة حسابات بنوك الادخار لا تعطى دائما

---

(١) بروفيسور فاوسيت Professor Fawcett « مجلة ماكميلان » اكتوبر ١٨٦٠ ٠

مؤشرا صحيحا على ما يجرى بالفعل ، ففى عدة بلدان حيث أجريت تحقيقا فى هذا الأمر وجدت أن المسحوبات فى هذه السنة من سنوات الأزمة لم تتجاوز مسحوبات السنة الماضية إلا قليلا ، وكان التفسير أن الناس بدأوا فى سحب ودائعهم لاستثمارها فى الحركة الجديدة ، **ويمكن القول بالنسبة لروتشديل أن الجمعيات التعاونية قد استوعبت كل مدخرات الطبقة العاملة تقريبا ، وتوجد هنا ثلاث منشآت كبيرة تدار على هذا المبدأ : الحانوت ، والمطحن ، ومصنع نسيج القطن ، ورأسمالها جميعا يقرب من ٠٠٠ر١٤٠ جنيه** » ٠

وقد أخذت « المشكلة » طريقها الى « الحل » ، وتسهم الجمعيات التعاونية بنصيب غير قليل فى مساعدة سكان المقاطعتين الكبيرتين المشتغلتين بغزل القطن على مقاومة قيام دولة الرق ، ويسرد المراسل حقائق غير متوقعة عن حانوت روتشديل فيقول :

« فى الربع الأخير بلغت الأرباح الموزعة على الأعضاء عن مشترياتهم ٥ بنس ٢ شلن لكل جنيه ، وبعبارة أخرى يحصل العضو مقابل ٧ بنس ١٧ شلن على بضائع قيمتها جنيه ، أى أنه بدلا من أن يظل مدينا الى الأبد كما كان قديما ، يحصل العضو لنفسه على الربح الذى كان يذهب الى جيب التاجر(١) ٠ وقد يحصل على بضائع جيدة بأسعار معتدلة ، وكلما أصبحت معيشته أكثر رخاء كلما زادت حصته من الأرباح فى نهاية السنة ، **وقد اخترت عشوائيا أحد الحسابات من دفاتر الحانوت فوجدته يظهر بجلاء مزايا النظام بالنسبة للطبقة العاملة ، وهو حساب عضو كان رصيده الدائن فى سبتمبر ١٨٥٤ سبعة جنيهات وعشرة شلنات ، وقد ظل طوال ثمانى سنوات يطعم أسرته ويكسوها من الحانوت ، ولم يدفع أبدا أى مبلغ يزيد حسابه بل على العكس سحب من حسابه فى تواريخ مختلفة مبلغ يقرب من ٩٠ جنيها ومع ذلك بقى له ٥٠ جنيها فى حسابه فى آخر ربع السنة الماضى ، فقد حصل أثناء السنوات الثمانى الماضية على أرباح على مشترياته وفوائد**

(١) سبق أن أوضحنا أن هذه الأرباح لا تذهب كلها الى جيوب التجار ويحصل العضو على الوفر الناتج عن التعامل بالنقد٠ وعدم وجود ديون معدومة، وتوفير الايجارات ومصروفات العرض والاضاءة ، وتلف البضائع وقلة عدد المستخدمين والشراء بالجملة وهذا لا يتوافر لصغار أصحاب المتاجر بل ينفقون نفقات كبيرة تستهلك كثيرا من ربحهم ، والقول بأن الأرباح التعاونية كانت تذهب لجيوب التجار قول خاطىء ويثير حفيظة التجار ولا يجوز للتعاونيين أن يقولوا ذلك ٠

بلغت ١٠ شلن ١٣٢ جنيه أى أكثر من ١٦ جنيها سنويا ، ولو انه استمر يتعامل مع متجر عادى لأنفق ١٠٪ أكثر مما انفق ولأصبح مدينا فى آخر المدة المماثلة لتلك المدة بما لا يقل عن ٥ جنيهات ، فلا عجب أن يزداد عدد الأعضاء وحجم التعامل ازديادا سريعا ومضطردا ، وأن تقبل الطبقات العاملة فى مختلف انحاء البــلاد على محاولة تقليد هــذا النموذج الطيب النــاجح جــدا ، وزاد رأس المال سريعا أيضا برغم جميع التوسعات حتى فاق الاحتياجات الواقعية للجمعية وأصبح لزاما البحث له على اوجه توظيف أخرى ، فانشىء أولا مطحن قمح مضى عليه فى التشغيل تسع سنوات حتى الآن وحقق ربحا قدره ١٠٫٠٠٠ جنيه فى عام ١٨٦١ بينما كان رأس المال الأصلى المستثمر ٢٠٠٠ جنيه ارتفع الآن الى نحو ٣٠٫٠٠٠ جنيه منها ٩٠٠٠ جنيه اكتتب بها الحانوت ، وهو يمارس تجارة واسعة فى المنطقة المجاورة ، ويمد متاجر الجمعيات الأخرى المجاورة بالبضائع بســعر الجملة كما تفعل جمعية الرواد من حانوتها ، **ثم قفز التعاونيون من هذا الى ما هو اسمى ودخلوا تجربة تبدو من النظرة الأولى ليست أقل خطرا ، فقد ادركوا فكرة اقتران العمل ورأس المال ، بحيث يصبحوا هم أصحاب العمل الذى يعملون فيه بأنفسهم ويقتسمون فيما بينهم ثمار عملهم » ٠**

ولم ينشر من قبل أى تقرير أروع من هذا عن الاقتصاد العملى للتعاون ، فلاشك أن العمل المنسق فى حكمة له ثماره ولا أدل على ذلك من انه منح أسرة العامل أرباحا سنوية بلغت ١٦ جنيها ، ويجدر بنا أن نستمع الى كاتب سرت كلماته فى العالم أجمع فيقول « أنشئت الجمعية التعاونية الانتاجية عام ١٨٥٧ وتمتلك الآن مصنعا من أحسن مصانع البلدة مجهزا بأفضل الآلات ، وقيل لى ان مصنعا آخر مماثلا فى طور الإنشاء ، ويبلغ راسمالها الآن ٦٨٫٠٠٠ جنيها ووزعت ربحا بلغ ٥٫٥٩٩ جنيها عام ١٨٦١ ، ويبدو أنها تدار بمهارة منذ البداية ، ورغم أنها تعانى الأزمة العامة التى يعانيها الجميع فإنها مازالت قادرة على تشغيل مصنعها ثلاثة أيام فى الأسبوع ، وأود أن أوضح كيف أن وجود الجمعيات التعاونية هنا استطاع تخفيف الضائقة وازالة ثقلها ، وواجهت الحركة فى مراحلها المبكرة معارضة ليست قليلة من جانب هؤلاء الذين لهم رائحة الشيوعية والاشتراكية وكل ما فيها من أنواع التهديدات والتخويف ، لكن الحركة أثمرت آثارا واضحة فى تحسين أحوال وشخصية الطبقات العاملة لا ينكرها إلا أكثر الناس انانية ، وأدى ذلك إلا أن أصحاب

المصانع أخذوا يفضلون تشغيل التعاونيين فى مصانعهم لأنهم اكتسبوا من اتصالهم بالجمعيات التعاونية عادات الاعتماد على النفس والحكمة والاستقامة والنظام وهى صفات تميزهم وتجعلهم فى مرتبة أعلى كثيرا من العامل العادى ، كمـا أن اقتصـادياتهم وضعتهم فى موقف أفضـل من حيث قدرتهم على احتمال ضغوط هذه الأيام » ٠

No more impressive account of the practical economy of co-operation has ever been given. The good sense of concerted action pays when it yields £ 16 a year profit to a working man's family. It is worth listening to a writer whose words have gone all over the world. He says further :— "The Co-operative Manufacturing Society, which was formed in 1857, owns now one of the finest mills in the town, fitted with first-rate machinery, and another of equal dimensions, I am told, is in course of erection. Its capital is now £ 68,000, and in 1861, it divided profits to the amount of £ 5,599. It appears to have been skilfully managed from the first, and, though it suffers in common with other concerns, it is still able to run three days a week. I wish to point out how materially the existence here of the co-operative societies must have alleviated the pressure of the distress. In its early stages the movement had to encounter no little opposition from those who scented Communism, Socialism, and all sorts of bugbears in it ; but its improving effects on the character and condition of the working classes are so unmistakable that none but the most selfish could refuse it their support. Manufacturers, as a rule, prefer co-operatives as workmen ; the habits of self-reliance, prudence, and order which their connection with these societies engenders raise them considerably over the ordinary class, and their economy has certainly put them in a better position to bear the strain of the times."

وهكذا « حلت » « مشكلة » الاقتصادى السياسى ، واثبت التعاون انه ليس من نباتات الصوبات يحتاج الى هواء ساخن ومراقبة دائمة ورعاية بل وتدليل لكنه شجيرة شتوية قوية تضرب بجذورها فى أية تربة طيبة ويقويها التعرض للعوامل الخارجية ويسرها أن تواجه العواصف ٠

وكتب هذه المقالات التى نشرت فى جريدة التايمز رجل ذو مقدرة على سرد الحقائق ولا ينقصه العطف على حركة المساعدة الذاتية المنتشرة بين

الطبقات العمالية ، ولم توضح المكاسب التى تنالها الأسرة من التعاون المنظم فى حسن ادارة وقوة اشراف ، وتقدم فى عبارة أوجز ، ولم يقدم لعين الرأى العام فى صورة أروع مما فعل الكاتب فى العبارة التى يقول فيها : « وفرت أسرة واحدة لغاية ١٦ جنيها فى السنة لمدة ثمانى سنوات بينما لو استمرت تشترى من المتاجر العادية لدفعت ١٠٪ أكثر مما دفعت فعلا فى البضائع التى اشترتها ولأصبحت مدينة فى النهاية بما لا يقل عن ٥ جنيهات »٠ فهذه عبارة واضحة ورصينة وكاملة ترسم صورة تامة ، عبارة يمكن أن يحملها أى قارىء عادى فى ذهنه ، والفن فى التعبير كالذوق الرفيع فى عرض الكنوز الفنية إذ يجب أن تعرض الصورة أو التمثال لتراه العين فى ضخامة الفراغ حوله ، وكل ازدحام فى الأشياء حوله يصرف عنه الانتباه ، وليس فى التكدس روعة كما يظن غير المتعلمين ، وتجد التفاصيل مكانها فى العبارة لتصبح فى موضعها الصحيح ، فإذا خرجت عن هذا الموضع صارت كالأشياء الخسيسة التى تتكدس حول الأشياء النبيلة فتحجب جزء من الجمال مما يثير العين الخبيرة ويؤذيها ويغضبها ، **ويلاحظ مراسل التايمز أن قدرة رواد روتشديل على التواصل مع الناس هى التى جعلت حانوتهم أعظم دعاية لهم فيقول : « قليل هم الذين يماثلون رواد روتشديل فى قدرتهم على الاتصال أى توصيل أفكارهم للغير ، وقد ثبت الرواد واستقروا بحيث لم يعودوا يخشون حتى هذه الضائقة فى الوقت الذى أثر فيه أنكماش التجارة ونقص رأس المال على عدد كبير غيرهم ، لقد انكمش التعامل فى حانوت روتشديل خلال أثنى عشر شهرا بمقدار الثلث وسحب من الأموال فى الجمعية ٢١٫٠٠٠ جنيه منها ١٦٫٠٠٠ جنيه على الأقل سحبها العمال العاطلين من أعضائها بسبب الضائقة ورغبتهم فى مواجهتها وهذا المبلغ الأخير عاد كله الى الحانوت فى شكل أثمان للمشتريات من المؤن ، وحقق الحانوت أرباحا من هذه المشتريات كما حصل على دفعات من ثمن الأسهم المكتتب فيها وكل هذه الإيرادات أنقصت الخفض الفعلى فى رأس المال الى ما يزيد قليلا على ١٫٠٠٠ جنيه فقط ، ولا يوجد فى الجمعية ما يسمى تحويل الأسهم بل يجوز لكل عضو أن يسحب من رأسماله المستثمر فى الجمعية بقدر ما يريد حتى يبقى له ٥ جنيهات ويمكن أن يواصل السحب بموافقة خاصة من لجنة الجمعية حتى يصبح رصيده جنيهين وهو الحد الأدنى الذى لا يسمح بالسحب الى ما وراء ذلك وأى عضو تقتضيه ضروراته أن يسحب من رصيده ما يجاوز هذا الحد انخفاضا**

فعلية أن ينسحب نهائيا ، وهكذا اضطر نحو ٣٠٠ عضو الى ترك الجمعية على أمل العودة إليها عندما تدور الأيام وتعود الأوقات الطيبة ·

وعادوا جميعا فيما بعد ، وكما قد يقول الأيرلنديون ، « عاد أكثر منهم ممن لم يغادروا الجمعية أبدا » Many more came back who had never left ، وتتضمن العبـــارة الســابقة بيــانات عــن قواعــد وممارسات حانوت روتشديل يرحب بها القراء لأنها تضيف إلى معلوماتهم ، فالحديث الروائى يجب أن يكون مثل الافتتاحية الصحفية شبيهــا بالمنزل الاسكتلندى فى أنه قائم ويكتفى بنفسه ، وقد أصبحت التايمز « الصحيفة القائدة » بسبب هذا الفن ، وعندما ظلت أعمدتها مزدحمة لمدة خمسة أيام من الحديث عن « **محاكمة بالمر** » **Palmer's trial** ظهـــرت افتتاحيتها فى اليوم السادس وفيها القصة الكاملة لمحاكمة هذا الرجل السمين الوغد القاتل بالســم بحيث يمكن للرجل المشــغول أن يحيط بها ويفهمها ولو لم يكن قد قرأ الأنباء عنها من قبل ، فقد كان المقال الافتتاحى مكتفيا بذاته تضيئه حقائق ووقائع خارجية ، وهكذا دخلت فى القصة تفاصيل تجعلها كاملة فى حد ذاتها دون حاجة إلى تــكرار لا حاجة إليه ، ولا يفيد الاستماع إلى متــكلم أو قراءة مؤلـــف إذا كنت تحتاج لفهمـــه إلى الاستماع إلى شخص آخر أو قراءة ما كتبه شخص آخر من قبله ·

لــكن الموضوع المباشر الآن أمام القارىء هو أن يفهم وضع روتشديل وكيف تحملت حرب الرقيق والمجاعة القطنية ، فقد وقف التعاون شامخا كمنارة ايديســتون **Eddystone Lighthouse** لا يتزعـــزع كالقطب الشمالى North Pole ·

وعندما بدأت أزمــة القطن فى ديسمبر ١٨٦١ وما صحبها من ذعر بلغ إيراد الحانوت من مبيعات المواد الغذائية والبضائع المنزلية الأخــرى وسلع الاستخدام الشخصى ١٧٦٫٠٠٠ جنيهـــا وزادت الايرادات النقدية عام ١٨٦٥ إلى ١٩٦٫٠٠٠ جنيها بفرق ٢٠٫٠٠٠ جنيه ، وكان رأس المال ٤٢٫٠٠٠ جنيه عام ١٨٦١ فأصبح ٧٨٫٠٠٠ جنيه عام ١٨٦٥ ، وبلغ عدد الأعضاء قبل أربع سنوات ٣٩٠٠ عضو فأصبح ٥٣٠٠ عضو أى بزيادة ١٤٠٠ عضو أثناء هذه السنوات الأربع المسماة بسنوات الذعر ، مما يبدو معه أن التعاون صار مكانا آمنا وسط العواصف ·

وأنشأ االرواد عام ١٨٦١ حانوتا آخر فى بلوبيتس Blue Pits تكلف ٧٠٠ جنيه ، وفى العام التالى بنوا مجزرا واسطبلات بتكلفة قدرها ١٠٠٠ جنيه ، وبنوا أيضا حانوتا فى بنفولد Pinfold تكلف ١٠٠٠ جنيه ، وهو انجاز كبير لعام ١٨٦٣ ، وافتتحوا فى عام ١٨٦٤ حانوتا فى سبوتلاند بريدج Spotland Bridge بتكلفة ١٥٠٠ جنيه ، وآخر فى أولدهام رود تكلفته ١٧٠٠ جنيه ، وأكملوا عام ١٨٦٣ فرع بورسيل Buersil بتكلفة ١٠٠٠ جنيه ، وفى تواضع شديد قال الرواد أن هذه المبانى لا تشين الأماكن التى أقيمت فيها ، والحقيقة أنه لم يكن هناك عيب قط ، فليس فى جوارها أى مبانى ذات روح أو حيوية بينما كانت هى حوانيت ذات منظر بهيج وصحية وجميلة وباعثة على الارتياح ، وليس فيها ما يسوء ، ولم تكن قاعة البلدة فى روتشديل قد أقيمت فى ذلك الوقت وهى تعد مفخرة البلدية .

وليس ذلك كل شىء ، بل بدأ الرواد الحفر فى تودلين (التى يجب أن تسمى طريق الرواد لأنها تصعد فى التل وقد ذللوا التل) من أجل إنشاء المخزون المركزى الكبير الذى يأملون أن يصبح حلبة البلدة ، وهو أمل له ما يبرره لأن روتشديل كانت تحتاج إلى بعض التحسينات المعمارية التى تستحقها ، وخلال سنوات « المجاعة » الأربع سحب الأعضاء ٦٣٫٠٠٠ جنيه ، وأدت الجمعية وظيفة بنك ادخار على هذا النطاق الواسع ، وفضلا عن ذلك وخير منه أنها قدمت ٧٥٠ جنيها لإغاثة الذين مستهم الضائقة ولغير ذلك من الأغراض الخيرية ، والتزم الرواد بواجبهم فكانوا نبلاء ازاء عقولهم بقدر ما كانوا إنسانيين فى تبرعاتهم فخصصوا ١٨٤٠ جنيها للتثقيف الذاتى ، ويكفى ذلك دلالة على أن عمال روتشديل يعرفون كيف يحلمون وأن جمعية النساجين التعاونية تعرف كيف تحول الحلم إلى حقيقة واقعة .

وإذا كانت لدى القارىء الشجاعة ليقرأ فقرة تتضمن أرقاما (إقرأ نهاية فصل رقم ٢١ من هذا الكتاب) فسيرى كيف سار حانوت روتشديل أثناء السنوات المليئة بالأحداث التى حارب فيها مالكوا العبيد ليظل السوط فى أيديهم ، وقد حذفت الكسور من الجنيهات والشلنات والبنسات مفترضا أن القارىء ليس محاسبا ولا مراجع حسابات بل يريد الأرقام

خالصة بينما المعتاد فى كل قصة تتناول ارقاما أن تحشد فيها كل الأرقام الصغيرة والكسور كما لو أن القارىء سيطلب الدفاتر ليطلع عليها ويختبر صدق البيانات • وفى هذه الحالة على الكاتب أن ينتظر أسبوعين قبل أن يتمكن القارىء من متابعة التقرير •

وسيجد القارىء فى البيان الأرقام مجملة بلا كسور ليسهل عليه فهمها وتذكرها ، وتبين التقارير من روتشديل موقف التعاون فى هذه البلدة للسنوات الأربع السابقة على الحرب الأهلية الأمريكية والتالية لها ، فزاد عدد الأعضاء فى الفترة من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٠ من ١٨٠٠ عضو إلى ٤ر٦٠٠ ورأس المال من ١٥ر٠٠٠ جنيه إلى ٥٧٥٠٠ جنيه ، وحركة المعاملات من ٨٠ر٠٠٠ جنيه إلى ١٧٤ر٠٠٠ والأرباح من ٥ر٠٠٠ جنيه سنويا إلى ١٥٠٠٠ جنيه •

وزادت الأرباح بين ١٨٦٠ و ١٨٦٤ أى طوال مدة أزمة القطن ، بتدرج غير متساو من ١٥ر٠٠٠ جنيه إلى ٢٢ر٠٠٠ جنيه وفى ربع السنة المنتهى بشهر مارس من عام ١٨٦١ الذى أحست فيه الجمعية بآثار ندرة القطن كانت متحصلات المبيعات ٤٧ر٠٠٠ جنيه هبطت فى الربع سنة المنتهى بشهر ديسمبر إلى ٤٢ر٠٠٠ جنيه ، واشتدت وطأة أزمة القطن عام ١٨٦٢ وأصبح ثلثا التعاونيين فى روتشديل تقريبا بلا عمل ، وأغلقت معظم المصانع واضطر الناس الى العيش على مدخراتهم السابقة ، ونقص عدد الأعضاء فى تلك السنة ٥٠٠ عضو ونقص رأسمال الجمعية ٤ر٥٠٠ جنيه ونقصت المتحصلات من البيع ٣٢ر٠٠٠ جنيه لكن أرباح العام بلغت ١٧٠٠٠ جنيه ، ولم يقف التعاون ثابتا على أرضه فحسب فى فترة صعبة ظن البعض أنها ستدمره ، بل تبرع الحانوت والمطحن والمصنع بما جملته ١٥٠٠ جنيه لإغاثة المتعطلين ، وحقق الحانوت وحده ربحا قدره ٧٠ر٠٠٠ جنيه للأعضاء ، وحققت جمعية المطحن ١٠ر٠٠٠ جنيه ربحا فى السنة لعامى ١٨٦٠ و ١٨٦١ وهبط الربح إلى ٨٠٠٠ جنيه عام ١٨٦٢ لكنه عاد وارتفع فى السنة التالية إلى ١٠ر٠٠٠ جنيه ، واستمرت الجمعية الانتاجية فى دفع أجور عمالها بالكامل أثناء فترة أزمة مجاعة القطن وقامت بتشغيل مصنعها وقتا أطول من أى مصنع آخر فى المنطقة وتبرعت بثلاثة جنيهات أسبوعيا لصندوق الإغاثة •

ووقفت جمعيات العمال الثلاث هذه إلى جانب المنتجين فى المصنع والسوق ولم يبد منها ما يدل على أنها تراجعت عن أى مسئولية اعتاد النبلاء من الناس أن يحملوها أثناء فترات الضيق العام ٠

وتصرف الصناع المنتجون بطريقة لا تقل أملا إلى أبعد مدى يستطيعونه ، وقد اعتدنا على عبارة الصناع المنتجين للتفرقة بين الانتاج والتوزيع ، وطبيعى أن جميع الصناع منتجون سواء للربح أو عند حدوث عجز وهم يصنعون دائما سلعا نافعة أو مرغوبة ، لكن التصنيع لم يدخل حتى الآن الطريق التعاونى الكامل ، فكانت المصانع التى تسمى تعاونية عبارة عن مشروعات مساهمة مع لمسة تعاونية فى برنامجها ، **وكانت الجمعيات الصناعية التى من هذا النوع فى روتشديل تعمل أثناء عام ١٨٦٢ ثلاثة أيام فى الأسبوع وهو ما يجاوز متوسط التشغيل المعتاد لمصانع البلدة فى ذلك الوقت ، وكان من غير المنتظر أن يتمكن مصنع نصف تعاونى يتوقع منه أن يكون أول من يقع فى أزمة القطن ، من أن يعمل وقتا أطول من أى مصنع آخر منافس وهو أمر يحسب له ٠**

وثار تساؤل أثناء فترة الضيق التى عانى منها العمال هو ما إذا كان التعاونيون يستحقون الاغاثة ، ونظرت اللجنة المركزية التنفيذية للإغاثة التى يرأسها لورد دربى Lord Derby فى ذلك الوقت موضوع حرمان التعاونيين وغيرهم من الأشخاص من المشاركة فى الاكتتابات القومية ، وقدم لورد دربى نظاما لإدارة صندوق الإغاثة إدارة عادلة تميز بالأريحية والحكمة وهو مالم يعتريه نسيان لفضله حتى الآن ، فقال لورد دربى : « **تقف الجمعيات التعاونية على أساس خاص متميز ، فالجمعيات المشهورة بهذا الاسم لها متاجر للمؤن والملابس ومطاحن تدار كلها على المبادىء التعاونية الى حد كبير ، لكن مصانع القطن المسماة تعاونية فهى بوجه عام وإن لم تكن جميعا ، عبارة عن مجرد شركات مساهمة ذات مسئولية محدودة اكتتب فى رأسمالها العمال أساسا المقيمون فى مناطق صناعة القطن ، وأسهم رأس المال زهيدة القيمة ، وغالبا ما تقام وتدار بمساعدة القروض ، وقد نهضت بدوافع تضفى أعلى درجات الشرف على الطبقات العاملة ولاشك فى أنها بثت عادات الاعتدال والبعد عن المسكرات وضبط النفس مما أفاد الطبقات العاملة فائدة كبرى معنويا**

وماديا ، ولا جدال في أن أسهم بعض الجمعيات التعاونية قد استهلكت وأصبحت غير ذات قيمة في الواقع ، فهل يعتبر امتـــلاك سهم أو أكثر في هـــذه الجمعيات مبررا لحجب حاملها عن الافادة من صندوق الإغاثة ؟ وعلى أساس المبدأ المطبق على بنوك الادخار يجب أن يكون الرد بالايجاب لاسيما وأن الاستثمار قد أثمر حتى الآن فائدة أكبر قدرا ، لـكن يجب ألا يغيب عن الذهن من ناحية أخرى أن ما يستثمر في بنوك الادخار يحقق عنـــد سحبه كل قيمته الاسمية ، بينما الأسهم التعاونية لا تفقـــد بعض قيمتها فحسب في كثير من الأحيان بل لو اضطر حاملها لبيعها فقد لا يحقق من وراء ذلك كثيرا بل قد لا يحقق شيئا ، ولذا فغاية ما يمكن أن يطلب بحق وعدالة هو أن يكون حامل الأسهم قد رهنها وأصبح لا يستمـــد منها أى ربح مادى نقدى ، وأعتقد أن المساهم في هذه الحالة يحق له الاستفادة من الإغاثة بصفته ـ والحالة هذه ـ لا يملك موردا آخر » ٠

وفي الجلسة التي قرأ فيها هذا التقرير قال دكتور واطس **Dr. Watts** ان أسهم المتاجر التعاونية غير قابلة للرهن ، وأشار الى حالات من العسر الشديد اضطر فيها الناس الى سحب مبالغ مقابل خسارة كبيرة قبل أن يتمكنوا من الحصول على الإغاثة ٠

ورد لورد دربي قائلا : « لم أقل أن هـــذه الشروط يجب الاصرار عليها دائما وفي جميع الأحوال ، والقصد مما أوردته هـــو التخفيف في تطبيق المبدأ المتشدد » ٠

وأشار لورد فجرتون **Lord Fgerton** الى بيان اللجنة وقال ان تلك أمثلة من الرفق وليس من الحكمة عدم تشجيع عادات الرفق وأضاف قائـــلا « استطيع أن أؤكد لدكتور واطـــس أن الرأى الذى تراه اللجنة التنفيذية عموما أن هذه الحالات يجب مقابلتها بأكبر قدر من الرفق والنظر إليها بعناية شديدة بحيث لا نترك من استفادوا بفرصة إقامة متجر صغير لهم بغير عون في أيام الشدة الراهنة » ٠

ولم يجد التعاويون لدى اللجان المحلية نفس شعور العـدالة الذى بثـــه لورد دربي في لجنته ، وأدارت اللجنة المحلية أذنا صماء لهـــذه التوصيات القوية ولالتماسات المساهمين في الجمعيات التعاونية ، ومن

هنا نشأت اللجنة المركزية للإغاثة لمساهمى التعاونيات التى أصدرت بيانا للجمهور جاء فيه : « أن مجرد رفض صرف المال هو جزء فقط من الظلم وعلى هذا الأساس لم يسمح لبنات التعاونيين بالالتحاق بفصول تعـــليم التفصيل والخياطة وحرم التعاونيون من أصناف الملابس التى يتبرع بها بسخاء برغم أن التعاونيين قد يكونوا أحوج الناس إليها ، فكثير منهم رهنوا ملابسهم ومع ذلك عندما فك رهن المرهونات منذ بضع أسابيع فى هيزلنجدن Haslingden لم يكن بينها شىء واحد مما كان يملـكه مساهمو التعاونيات » .

واتخذ لورد دربى موقفا عادلا ومنصفا من مطـــالب التعاونيين ، لـكن أصحاب المتاجر الذين فى اللجنة ثاروا من منافسيهم المتواضعين ثأرا لا يليق ، ومع ذلك لم يتأثر التعاونيون فواصلوا طريقهم بقلوب لا يأس فيها ولا حزن .

الفصل الثامن عشر

التوقف فى الطريق

HALTING ON THE WAY

أنشأ الرواد العدول حانوتهم عام ١٨٤٤ بعد فترة طويلة من المنازعات وعدم الثقة ، انشأوه على أساس مبدأ عضوية المشترين ، ومن ذلك الوقت بدأ التاريخ الناجح للتوزيع التعاونى الذى كان قبل اتباع هذا المبدأ غير مؤكدومهتز فى كثير من المدن بل كان مشينا فى كثير من الاحوال ، ثم مضت سنوات‌عديدة وانتصر مبدأ المشاركة فى الاستهلاك بعد أن وضع موضع الاختبار ، وتقرر تطبيقه على التعاون واتخذت فى عام ١٨٥٥ خطوات لإقامة مصنع غزل بدأ العمل وبه ٩٦ مغزلا ، وجهز مصنع آخر بآلات حديثة عام ١٨٥٥ ، وكان اساس انشاء هذين المصنعين أن يكون العمال شركاء فيهما على أن تصرف لهم حصة معقولة من الارباح التى كانت النتاج المشترك لرأس المال والعمل والنشاط والنية الطيبة والمهارة والعناية والدقة من جانب العمال ، وكان المأمول ان تستطيع حكمة رجال روتشديل اقامة الصناعة بنجاح على نفس الأساس العادل الذى أقاموا عليه التوزيع، واستقر رأى المشرفين على أمور المصنعين على أن يدخلوا فى المصانع نفس المزايا الاجتماعية التى أدخلوها على الأسر فى بيوتها ، وساد الاعتقاد فى أن نجاح روتشديل فى ايجاد المشاركة الصناعية الدائمة سيكون له أثر عظيم يمتد الى المدن الأخرى ، بل أن التجربة أثارت اهتماما حتى فى بلاد القارة الأوروبية حيث أخذ الناس يتابعون فى شوق شديد أنباء نجاح التجربة ، فالمعروف كقاعدة عامة أن العمال أسوأ الرؤساء فقد عاشوا خاضعين معتمدين على غيرهم ينقاضون أجورا لا تليق إلا بالمتسولين (إذ يضطرهم الفقر والمنافسة الى بيع خدماتهم بأقل الأجور) فيحيون حياة ضنك وشظف فرضت عليهم ، ولقد دخل كل ذلك الى صميم أرواحهم فأشاع فيها اليأس وأساء ظنهم بزملائهم ، وعندما يصبح العامل رئيسا صاحب عمل فغالبا ما يغار من نجاح زملائه ويرى انه إذا دفع أجورا طيبة مقابل عمل جيد يعود عليه بالربح فكأنه يخرج هذه الأجور من جيبه بلا عودة ، ويهدف الى استخلاص اكبر جهد وعمل ممكن من العمال الذين فى خدمته مقلدا فى ذلك أسوأ صاحب عمل سبق أن اشتغل عنده ، وينسى ما كان يتمنى أن يعامله به صاحب العمل عندما كان عاملا ، فقد كان

صاحب العمل يستأثر بكل الربح فى يده ، وهـــو يريد أن يصنع بعماله ما صنعه صاحب العمل به ، ولذا كان أصدقاء التقدم الصناعى فى قلق وشوق لمعرفة انباء نجاح المصنع التعاونى ، وأعربوا عن تقديرهم العظيم لعمال روتشديل الذين اقاموه لأنهم اظهروا روحا عالية بانشاء مشاركة صناعية حقيقية ٠

وظهرت رؤيا العدالة التى طالما انتظرها الناس فى أمل لكنها تراءت على البعد فاضاءت قليلا ثم اختفت عن الأنظار ، وفتحت « قائمة المساهمة » للبلدة كلها ، واشترى منها كثير من الناس الذين لم يعرفوا شيئا عن التعاون على الاطلاق ، وغيرهم ممن كانوا اهتمامهم به ضئيلا وكثيرون آخرون كانوا كارهين له ، واغفلت قاعدة منح العمال نصيبا فى الربح ٠

وكان قد ركب بالمصنع محركان قوة ٦٠ حصانا سميا اسمين نبيلين الأول « تعاون Co-operation » والثانى « مثابرة Perseverance » ، لكن كان الآخرى تسميتهما « شركة مساهمة » و « طمع » ، وعندما انتقل اللفظ بذلك الى الخارج توقف أنصار الحرفيين عن أن يتخذوا من روتشديل مثـالا على التنظيم الصناعى الذى قد ينهى الحرب المتصاعدة والضارة بين رأس المال والعمل وهكذا توقف التعاون فى طريقه ٠

وجاء فى مقال عن الجمعيات التعاونية فى جريدة سبكتاتور اللندنية (١٦ ابريل ١٨٦٤) ما يلى : « فى روتشديل هجرت طريقة السماح للعمال بالمشاركة فى الربح بعد أول تجربة » ٠

وتوحى عبارة « هجرت بعد التجربة » بأنها جربت ولم تنجح ، لكن الحقيقة أن العقبات وضعت فى طريقها اثناء تجربتها الناجحة ، فالطريقة لم تهجر بل قتلت ٠

وأبدى بروفيسور نيومان Professor Newman الملاحظة التاليـة فى خطاب ارسله الى هولى اوك (بتاريخ ٢٣ يناير ١٨٦٣) : « لا ينطلق التعاون الصناعى الى هدفه بسبب أن مصلحة الأعضاء كراسماليين تتغلب على تعاطفهم مع الأجراء ، فإذا صح انهم لا يكسبون شيئا كراسماليين من بعث اهتمام الأجراء برواج المنشاة وازدهارها فمعنى ذلك أن رأس المال

التعاونى يصبح على اتم المساواة مع راس المال الخاص يتنافس معه على قدم المساواة وهكذا تصبح المشكلة شديدة البساطة ، فكل رجل يمكنه ان يصبح راسماليا فى مكان ما إذا استطاع ان يدخر برغم كونه اجيرا فى مكان آخر ، ومع وجود المتاجر التعاونية وبالامتناع عن الشراب الكحولى القوى يستطيع كل رجل فى صحة وشباب ان يدخر شيئا ، اما إذا لم يستطع رأس المال التعاونى او حيث لا يستطيع ان يتنافس على قدم المساواة مع رأس المال الخاص فمن مصلحة الراسماليين التعاونيين فى هذه الحالة ان يعملوا فى إطار شبه مشاركة وأن ينالوا شيئا من الحوافز او المكافأة على النجاح العام ، وارى ان الطريق مفتوح بأى من الطريقتين او بهما معا ، امام الأشخاص الذين يتصفون بالحكمة ليعم الرخاء بقدر متوسط ، ولكن الى ان يدرك سكان المدن ان قضية الريفيين هى قضيتهم الخاصة ايضا وان ازمة اهل الريف تؤثر على الحرفيين فانى لا انتظر تقدما عاما او كبيرا ٠

ورغم أن بروفيسور نيومان عالم فى الاقتصاد السياسى فانه يدرك بوضوح مصلحةالعمال حين يصبحوا راسماليين فى ان يدخلوا العاملين لديهم فى مشاركة معهم ، وكان المعتقد فى ذلك الوقت ان نظام المشاركة جرب فى روتشديل وأن التعاونيين انفسهم تركوه باختيارهم ، لكن الحقيقة أنهم لم يفعلوا ذلك ابدا ولم تتزعزع ثقتهم فى المبدأ مطلقا ولم يتركوه ابدا لكنه اسقط من أيديهم قسرا فى السنة الرابعة من التجربة ، فكانوا مثل العاهل السويدى تشارلز Charles « غلبوا على امرهم ، وظهر عليهم الخصوم ، وازدادوا عليهم عددا "Were overmached, overpowered and out numbered" ، ولم يكن العيب عيب التعاونيين حينئذ ، وسنوضح اى صنف من الناس الذين وقع الشر على ايديهم ٠

جاء فى تقويم عام ١٨٦٠ : « غرض جمعية روتشديل التعاونية الصناعية توفير الظروف التى بموجبها ياخذ الأعضاء الارباح الناتجة عن توظيف راسمالهم وقوة عملهم فى صناعة الاقمشة القطنية والصوفية وبذلك يمكنهم تحسين أحوالهم الاجتماعية والمعيشية الأسرية ٠ ولكل عضو نفس القدر من الأصوات والنفوذ مهما كان مبلغ استثماراته ، وتوزع الارباح الناشئة من المشروع (بعد سداد الفائدة على راس المال بواقع ٥ جنيهات عن كل مائة جنيه فى السنة) بين الأعضاء بنسبة مئوية متساوية لكل من راس

المال المساهم(١) به والعمل الذى يؤديه العضو ، وكرر محرر التقويم هذا القول الواضح المعقول العادل الباعث على الأمل فى تقويم عام ١٨٦١ ٠

وفى تقويم ١٨٦٤ لم يقل التعاونيون شيئا جديدا لكنهم أوردوا فقرة تعتبر تراجعا ،فقالوا : « كان الغرض الأساسى لمؤسسى هذه الجمعية توزيع الأرباح الناشة عن صناعة الأقمشة القطنية والصوفية توزيعا عادلا ، ويعتقدون أن جميع من يساهم فى تحقيق الثروة يحق له المشاركة فى توزيعها واثبتت الجمعية أنها تراجعت عن هذا المبدأ وهو ما يأسف له مؤسسوها الأصليون أشد الأسف » ٠

ولذا عندما استطاع المضادون للتعاون فى روتشديل أن يأخذوا بخناق القاعدة التى تعطى للعمال حصة من الربح وتمكنوا من خنقها لمعت عين الرأسمالية ذات الطلاء الذهبى فى كل مكان عندما سمعوا بذلك ، وساد السرور فى عديد من أقسام الحسابات بالمصانع حيث اعتاد أجيال من العمال أن يعملوا كما يعمل الحصان ويموتوا كما يموت الكلب ٠

واخذ العدو يظهر فى الميدان فى أوائل عام ١٨٦٠ ، وعقد اجتماع كبير فى شهر سبتمبر بالقاعة العامة بشارع بيلى لمناقشة مسألة : « مكافأة العمل أو عدم مكافأته » ولاشك أن كلمتى « المكافأة والحوافز » الكهربيتين كانتا بداية الشر لأنها تجعل المساهم الجاهل يعتقد أن أمواله وحقوقه توزع فى سفه بينما فى الحقيقة أن الأرباح الموزعة على اليد العاملة تمثل الأرباح التى تحققها اليد العاملة فوق تلك التى قد توجد على المدى الطويل إذا استمرت المشاركة ، فالعامل الذى لا يلقى رعاية لا يعطى أكثر من مجرد الخدمة البليدة بلا عناية ولا اهتمام والتى فى أثنائها يتآمر مع النقابات أو مع غيرها ليبتز من صاحب العمل كل ما يستطيعه لأنه يعتقد أن صاحب العمل يتآمر على أن يمنع عنه كل ما يستطيع منعه ، وهذه العلاقة الصناعية ليست سوى كراهية صامتة ، وظهر فى الاجتماع الكبير كل خطباء الجشع ليدلوا بحجتهم ويقولوا أن العامل يحصل على القيمة السوقية لعمله وهذا

---

(١) لا يعتبر هذا تعاونا خالصا لأنه يعامل رأس المال على أنه مساو للعمل ويجعله شريكا بدلا من مجرد عامل لكن التعاون لم يتقدم كثيرا عما كان عليه فى تلك الأيام ٠

منتهى العدالة بالنسبة له ، وظلت لهذا النوع من الحجج قوة عظيمة لسنوات عديدة فى متاجر التوزيع ، فقيل ان المشترى يحصل على بضائع تعادل القيمة السوقية لنقوده فماذا يريد اكثر من ذلك ؟ **وعاش وكذب ومات جيلان من الناس تقريبا راجت بينهما تلك الحجج قبل أن يتعلموا ويدركوا أن منح الزبائن مصلحة فى المجىء الى المتجر يجعلهم يزيدون من مشترياتهم بحيث يخلقون هم انفسهم الربح الذى يوزع عليهم ، وربما يستلزم الامر مرور نفس الوقت حتى يدرك الناس أن العمال فى المصنع يحققون الربح الذى يوزع عليهم ، ويلاحظ أن ظروف الإنتاج الصناعى تختلف عن ظروف التوزيع ويقتضى الأمر وقتا وصبرا لاكتشاف جميع الطرائق التى بها يقتنع العمال فى المصنع بان يبذلوا قصارى جهدهم فى مقابل مشاركتهم فى الربح ، وفى الاجتماع الكبير عام ١٨٦٠ وقف الرواد القدامى وقفة قوية الى جانب المبدأ الذى يعترف بالعامل شريكا وقال واحد منهم : « من واجب الرواد إنشاء المصنع على نفس المبدأ الذى انشىء عليه الحانوت ، ومن واجبهم أن يروا أن العمل ياخذ حقه « وكان هـذا هو المبـدأ الكريم الذى اعلنـوه على الملأ فى الاجتماع الكبير الأول وعنـد اخذ الأصـوات كان المؤيدون للمشاركة ٢٧٠ صوتا والرافضون لها ٥٧١ صوتا ، وهزم الاقتراح لأن القواعد كانت تقضى بأن يحصل الاقتراح باجراء تعديل فى القانون على ثلاثة أرباع الأصوات ، ونظم العدو صفوفه ونزل الى ساحة المعركة ثانية بعد سنتين وانتصر وارجع عقارب ساعة التقدم للوراء** ، وعندما حدث ذلك انتشرت الصيحة بأن مشاركة العمال فى الصناعة فى روتشديل قد فشلت ، وإذا انكر احد هذا القول فإنه يواجه بسؤال هو : « إذا لم تكن فشلت فلماذا الغى قانون المشاركة ؟ » ، قد تلغى قاعدة من جراء الجشع لكن ليس معنى ذلك فشلها ··· لقد ادى طمع حملة الأسهم الى الغاء قانون يظنونه ضارا بهم ، ولم يكن لدى الذين بيدهم السلطة لتنفيذ رغبتهم اى شعور بالعدالة ازاء الغير ، وقد قيل ان « الجمعية تسير نحو التصفية » لأن الأعضاء يسحبون قيمة اسهمهم ليوظفوها فى شركات أخرى لا تطبق قاعدة المشاركة ، والحقيقة أن عدة اشخاص سحبوا قيمة اسهمهم فعلا وهدد آخرون بأن يفعلوا نفس الشىء ، لكن عدد الساحبين لم يكن اكبر من العدد الذى يفعل ذلك عادة فى اى جمعية كبيرة ومع ذلك تستمر ولا يضيرها انسحابهم ، **وقد كان اشرف لمن لا يوافقون على مبدأ مشاركة العمال أن يوظفوا اموالهم فى مكان آخر**

يتفق مع آرائهم لا أن يدخلوا الجمعية ويستمروا فيها بهدف الغاء المبدأ الأساسى الذى يميزها عن غيرها وكانت الجمعية قد توقفت عن قبول أعضاء آخرين قبل الغاء هذا القانون بعدة شهور وبالتالى رفضت اخذ اى أموال إلا من الأعضاء الفعليين ، لأن الناس كانوا يقبلون على الإنضمام الى عضويتها فكثر الأعضاء وكثرت الأموال حتى أن الجمعية لم تستطع استخدام كل ما لديها من أموال استخداما مربحا ، وكان معروفا أن عددا كبيرا يريد الإنضمام الى عضوية الجمعية منذ فتح باب الإنضمام ثانية ، وتعرف الجمعيات كلها أن طبقة معينة من حملة الأسهم يهددون بالأنسحاب عندما يريدون إدخال بعض تغييرات خاصة ، وينشدون القول بأنهم لو انسحبوا لتهاوت الجمعية ، وهؤلاء لا يجوز المغالاة فى تقدير أهمية بقائهم او تنفيذ انسحابهم ، ومع ذلك فقد دلت التجربة على أن الجمعية لا تفشل دائما لأن قلة من الناس يظنون أنها ستفشل او يعتقدون أنها يجب أن تفشل حين يتركونها ، ومازال بعض الكتاب حتى اليوم يدافعون عن القرار الرجعى الذى اتخذه حملة الأسهم ، ومنهم من يوقع على خطاباته مختفيا تحت اسم « رائد قديم » ويؤكد هذا الكاتب أن « خصوم المزايا » كما يسميهم لو انسحبوا من عضوية الجمعية الصناعية فلن تستطيع مواصلة عملها ، وهو مجرد وهم ، بل ان روتشديل تصبح احسن حظا لو فعلوا واقاموا جمعية اخرى على أساس فكرة الشركة المساهمة ، وهذا حقهم ولو فعلوه لما لامهم أحد ، وبذلك يتركون الجمعية الأصلية لتواصل تجربتها بنفسها فإما صمدت على أساس المبدأ التى انشئت طبقا له واما فشلت ، **وتتلخص التهمة الموجهة الى « خصوم المزايا » انهم حين وجدوا انفسهم على قوة كافية للاستيلاء على الجمعية التى لم يشتركوا فى إنشائها فى مبدأ الأمر لم يترددوا فى أن يستولوا عليها ووقفوا فى طريق تجربة عامة شريفة لتستوفى طريقها وجلبوا العار على التعاون ذاته وشوهوا صورته امام من لا يعرف حقائق القضية ، فقيل ان تعاونيين لهم وزنهم وقدمهم الراسخة صوتوا فى جانب الغاء قاعدة مشاركة العمال وتحطيم هذا النظام ، ولو كان الأمر كذلك لما استحقوا مكانتهم ، لكن الحقيقة ان التعاونيين القدامى جاهدوا بكل ما فى قدرتهم وباصواتهم من اجل الإبقاء على تلك القاعدة وانقاذها من الدمار ، ويعرف مستر وليم كوبر كل الأشخاص الذين وصموا الجمعية الصناعية بوصمة التحول الى شركة مساهمة ، وكان مستر كوبر عضوا فى جمعية رواد**

روتشديل العدول الأولى قبل واثناء وضع القواعد التى وضعت قبل عدة شهور من افتتاح حانوت تودلين ، وشهد مستر كوبر بان تلك الوصمة من فعل « الأعضاء الجدد » ، وعندما جاءت تلك الليلة الليلاء التى القى فيها رداء الذل على المشاركة فى الصناعة بروتشديل صوت ١٦٢ شخصا الى جانب الإبقاء على قاعدة مشاركة العمال فى الربح وصوت ٥٠٢ شخصا ضدها ٠

وعندما يتجلى ضوء مشاركة العمل لأول مرة فى احد المصانع ، فلا يبتهج الإنسان حين يرى ظلام عبودية العمل يعقبه ٠

When the white line of partnership of labour is for the first time drawn across a manufactory, it is not a matter of rejoicing to see a black line of the subjugation of labour supersede it.

ولا شىء « يثمر » ، ولا يجوز أن يثمر ، ان كان لا يقوم على اساس العدالة إزاء كل من شارك فى خلق قيمته ، وليس هرم الكسب غير القائم على العدالة سوى كومة خبيثة اجدر بالرجل الشريف الا يمسها ٠

وفى الليلة المدلهمة حين حطم المساهمون من خصوم التعاون قانون المشاركة الصناعية الباعث على الأمل كان عدد اعضاء الجمعية التعاونية الصناعية ١٥٠٠ عضوا لم يحضر منهم سوى ٦٦٤ عضوا اى ان نصف الأعضاء إما لم يحضروا أو حضروا ولم يصوتوا ، وهؤلاء يمكن أن نسميهم محايدين أو غير مبالين او راضين عن الجمعية فى شكلها عندئذ ، ومما يبعث على شىء من الرضا أن نلاحظ أن ٥٠٢ عضوا فقط من بين ١٥٠٠ عضو هم الذين رفعوا أيديهم فعلا ضد الاعتراف بحقوق العمال ، ولو ادرك هؤلاء العواقب التى اصابت سمعة روتشديل منذ تلك الخطوة لامتنع كثير منهم عن اقتراف ما فعلوا ولاءا لبلدهم قبل ان يكون بدافع الاهتمام بمصلحة العمال ، ولانسـحبوا الى مكان آخـر وانشـاوا جمعية اخرى ، وعرف كبار المحركين ضد مشاركة العمال فى الأرباح عندئذ بانهم من المديرين ، والمراقبين وصغار التجار وما اشبه ، وكان مقدم اقتراح الغـاء القاعدة العظيمة والذين تحدثوا مؤيدين الإلغاء من بين تلك الطبقات ، ولم تكن لجنة الجمعية الصناعية مشكلة كلها من التعاونيين وإلا لكانت تلك القاعدة **مقدسة لديهم ولكرسوا كل اهتمامهم ونفوذهم ضد الغائها لكن غالبية اللجنة**

كانوا يحرضون ضد المبدأ وأنفقوا وقتهم فى ذلك حتى أهملوا مصالح هامة من مصالح الجمعية ، وقد جاءنى احد من كانوا داخل « الحلقة » ويعرف كل شىء عنها ووضع بين يدى كافة الحقائق عندئذ ، واعترف(١) بأن بعض أعضاء اللجنة كانوا مندفعين وليسوا من الرجال الذين يعنون فى العادة بالتمسك بالمبادىء ، وكانت حجتهم المفضلة ضد مشاركة العمال فى الأرباح الناشئة عن عملهم أنها « نظرية اشتراكية » ·

كانت « نظرية اشتراكية » بالطبع ، وقد قامت جميع المتاجر التعاونية على نفس هذه « النظرية الاشتراكية » التى تعطى الربح للمشترى والرأسمالى على السواء ، ويتصرف الآن أصحاب المتاجر من ذوى الحكمة طبقا لهذه « النظرية الاشتراكية » ذاتها ويعطون زبائنهم حصـــة من الربح الذى يشاركون فى تحقيقه ·

وتعمل « النظرية الاشتراكية (الصناعية) » على زيادة تأمين صاحب رأس المال بل وزيادة أرباحه بأن توجه اهتمام العامل الى التعاون معه فى إنتاج المزيد من الربح ·

وفى المناقشة التى انتهت بحرمان العامل من أن يكون شريكا فى ربح عمله ألقى مستر جيمس سميثز خطبة من أحسن خطبه فى هذه المناسبة ، وكان مستر ابراهام جرينوود ومستر وليم كوبر فى مقدمة أنصار مطالب العمال ، وتكلم مستر هولدن أيضا مؤيدا لهذا الحق ولدى تقرير كامل عن جميع الخطب التى نشرت فى جريدة روتشديل سبكتاتور التى كانت تصدر حينئذ ، وعليها ملاحظة تحتوى أسماء جميع المتحدثين الذين لم تنشر الجريدة أسماؤهم ·

وفى الجداول التالية بيان ما حققته الجمعية الى عام ١٨٦٦ عندما حرم العمال من الأرباح ·

---

(١) هذه الحقيقة يرويها جورج جيكوب هولى أوك فى معرض حديثه عن تاريخ رواد روتشديل ·

السنة ـ يوليو	الأمــوال	حركة الأعمال	الربــح
	جنيـــه	جنيـــه	جنيـــه
١٨٥٤	—	—	—
١٨٥٥	—	—	—
١٨٥٦	—	—	—
١٨٥٧	٤٫٣٥١	١٢٫٠٨١	٨٨٨
١٨٥٨	٨٫٧٩٠	١٣٫٣٨١	٦٧٩
١٨٥٩	٢٥٫٦١٣	١٦٫٤٨٣	١٫٧٧٠
١٨٦٠	٥٦٫٨٥٧	٢٣٫٦٣٤	٣٫٦٤٣
١٨٦١	٦٩٫٣١٧	٤٧٫٢٢٩	٥٫٢٣٧
١٨٦٢	٦٧٫٥١٣	٦٥٫٣٦٨	٣٫٣٢٥
١٨٦٣	٨٢٫٨٥٠	٨٦٫٤٣٧	٣٫٦٨٨

وما تزال هذه الشركة تحتفظ بنمطها القديم « الجمعية التعاونية الصناعية » بعد ١٤ عاما من ترك قاعدة المشاركة ، وفى غضون ذلك كان على التعاون أن يعود الى إشراك العامل فى ارباح الصناعة ، ويجوز أن يرجع أصحاب العمل عما قرروه كما رأينا فى ويتوود كوليريز Whitwood Collieries لكى لا ينبغى ذلك للتعاونيين ، **ويستطيع النقابيون النهوض بالمبدأ وسينهضون به عندما يكون لديهم مستشارون يمكنهم التفكير فوق مستوى الإضرابات** ، وقد رأيت عمالا هولنديين فى زويدر ذى Zuyder Zee يحققون ما لم يجد النقابيون الإنجليز فى انفسهم الشجاعة لمجرد محاولته ، ومع ذلك فإن الأمل فى النقابيين كبير ، وبذلت عام ١٨٧٢ محاولات لاعادة الصناعة التعاونية الى روتشديل بالبدء فى صناعة التمشيط ، لكن فشلت جهود الحصول على رأس المال الكافى .

وافضل فى هذا المقام وفى غيره أن استخدم كلمة « مطالب Claim » العمال بدلا من « حق right » العمال فالحق فى ميدان العمل كما هو فى ميدان السياسة هو ما يمكن أن يقضى به أو يسلم به أما المطلب فهو ما يجب التسليم به اخلاقيا ، فالحق هو ما يسلم به والمطلب يظل قائما

ويجب التمسك به ، وإذا كان العمال نبلاء فى وسائلهم فلن يجرؤ اى صاحب عمل على انكاره ٠

ولا تنطبق الملاحظات الخاصة بالأشخاص الذين هم مديرون او مساهمون فى شركة تعاونية ويعلمون انها كذلك وينضمون إليها بصفتهم تعاونيين ثم يخونونها او يحطمونها ، على الأشخاص الذين لم يكونوا ابدا تعاونيين ولم يتشرفوا بأن يكونوا كذلك ، فهؤلاء من نوع شركات المساهمة ، نوع مختلف من المخلوقات التجارية ، **لكن التعاون يعنى شيئا اكثر واسمى من ذلك ، فهو يعنى الاعتراف بالعمال لا بطريق غير مباشر - اى ليس بطريق غير محسوس ، ولا محسوب ، وبشكل نظرى افتراضى - بل بطريق مباشر واضح وشخصى ومطلق ومستمر بوصفه صاحب حصة عادلة فى ارباح عمله ٠**

فالجمعية التعاونـية جمعية تشـرك بعدالة فى ارباحها جميـع من شاركوا فى تحقيق تلك الارباح سواء فى الصناعة او التجارة ٠

وتحادث مستر جون برايت مع مستر ابراهام جرينوود فى شان قرار الجمعية فاعرب عن عدم موافقته وسال عما إذا كان يمكن سحبه واتاحة الفرصة لتجربة المبدا مرة اخرى **فابدى مستر جرينوود رايه وهو أن من المستحسن تجربة الفكرة مرة أخرى ولكن من جديد اى باعضاء يؤمنون بهذه الطريقة وانه يجب التدقيق فى السماح بالعضوية** ، وقال مستر برايت أن عددا كبيرا من اعضاء البرلمان ابدوا اهتماما عظيما بالتجربة ، وانه يعرف بعض اصحاب المصانع الذين على استعداد لمنح عمالهم حصة فى قدر معين من الربح ، إذا امكن تنفيذ ذلك دون أن يشاركوا فى الأمر ، وإذا رضى العمال بقبول ما يعلنونه على أنه الربح المحقق دون أن يسمح لهم بالتدخل ، واكد مستر جرينوود لمستر برايت أن العمال يؤمنون بالمشاركة فى الأرباح وأن الفكرة اجتذبت طبقة عالية من اصحاب الأعمال فاجاب مستر برايت بانه لو نجحت الطريقة لاضطر اصحاب الأعمال الآخرون الى أن يعرضوا على عمالهم حوافز من اجل المزيد من العناية وتحسين العمل ، وان هذه الحوافز يجب الا تعطى كمنحة بل كمقابل لجعلهم راسمال صاحب العمل اكثر ادرارا للربح والآلات اكثر إنتاجا وللوفر فى المواد(١) ٠

---

(١) دليل مؤتمر روتشديل لعام ١٨٩٢ ، وليم روبرتس William Robertson

ويعتبر اهتمام مستر برايت بهذه المسالة واحدا من انبل اهتماماته فى حياته العملية ، وتدل التجارب على انه بمجرد هزيمة احدى التجارب الاجتماعية التى اثارت آمالا عريضة يندر أن يعاود نفس الجيل التجربة ذاتها مرة اخرى ، ومن المؤسف ان نصيحة مستر برايت لم تؤخذ ماخذ الجد مع انه لا يبذل النصيحة أبدا إلا ومعها قوة نفوذه وتاثيره ، ولو بذلت محاولة لإلغاء القرار الصادر ضد مبدا المشاركة فى الربح والذى انشىء المطحن طبقا له لتشجعت الأقلية المؤيدة للمبدا وكثر عدد المناصرين واغلب الظن انهم سيشعرون برغبة فى العودة الى تجربتهم الحيوية ·

وكان « مستر جون ت· و· ميتشل » الذى أوردنا اسمه من قبل واحدا من مشجعى إنشاء هذه الجمعية الصناعية ورئيسا لمجلس ادارتها (انظر سجلات مؤتمر روتشديل – ولابد انه بصفته هذه كان من المؤمنين بنظرية المشاركة فى الربح ، ولو انه ظل مخلصا لهذا المبدا لصارت جمعية الجملة من المشجعين بدلا من الاحباط المنظم للتعاون الصحيح ·

وما تزال روتشديل تتمسك بجزء كبير من أرضها القديمة وتسير قدما بطرق ممتازة كثيرة لكن الحماس القديم – الذى يدفع الى طرق جديدة أو يحارب للعودة الى المبادىء القديمة عندما يعصف به خارجها بأصوات معارضة – لم يتمسك به الجيل الجديد من التعاونيين وإلا لرأينا مبـدا المساعدة الذاتية العظيم يقدم فى الصناعة فى روتشديل من قبل كل ذلك ·

الفصل التاسع عشر

قصة مطحن القمح

STORY OF THE CORN MILL

اغتيل المبدأ الصناعى العادل فى ميتشل هاى Mitchell Hey بالاستيلاء على الجمعية التعاونية الصناعية وإخراجها عن مبادئها ، فكان لذلك دوى نشر الاحباط فى كافة أرجاء الأرض ، ولاشك أنه نوع من التقدير والتشريف لروتشديل أن ما يحدث فيها يفكر فيه الناس كثيرا خارجها ٠ فقد وصل رجال روتشديل فعلا الى درجة اعتبروا فيها الرواد الحقيقيين للتقدم الصناعى ولذا كان هجر المبدأ التعاونى فى الجمعية الصناعية شيئا خطيرا أعتبر وكأنه « فشل » لهذا المبدأ ، وافترض الناس أن هذا المبدأ جربه رجال مخلصون حكماء يتصفون بالصبر والمثابرة وبذلوا فى تطبيقه كل قواهم واستنفذوا كل مواردهم فى هذا الصدد ، وقدموا تضحيات كبيرة لمدة طويلة كى يثبت ويؤتى ثماره وكان لديهم كل الوقت الكافى لاختبار المبدأ واستيفاء التجربة ، ومع ذلك فشلت تلك التجربة وكان فشل المبدأ حاسماً ، وقد أوضحنا الآن مقدار الخطأ فى كل هذه الافتراضات ، وإذا كان أهل أولدهام يمكنهم بناء مصنع جديد كل أسبوع ، فلابد أن سكان روتشديل الأكثر عددا ونشاطا قادرون على بدء جمعيات صناعية جديدة واختبار التجربة مرة بعد مرة وعلى استرداد سمعة بلدتهم التاريخية بل وزيادة هذه السمعة الطيبة ثباتا وشهرة ٠

وعندما ذهبت الى المعرض الصناعى فى امستردام تبعا لاهتمام مستر سومرست بومومنت Somerset Beaumont عضو البرلمان به ، كان أول سؤال وجهه لى البارون مكاى Baron Mackay فى لجنة التحقيق التى كان يرأسها هو : « هل فشل مطحن القمح ؟ » إذ كان الانطباع السائد فى هولندا أن الفشل قد دب الى روتشديل وأن كل ما هو عادل وشريف وباعث على الأمل وطيب قد ابتلعه تنين الربح العنيف الذى لا مبادىء له ٠

انشئت شركة مطحن القمح ـ كما جاء فى الجزء الأول ـ فى عام ١٨٥٠ ، وكتب مستر و٠ كوبر قصة سنواته الأولى التى مضى عليها الآن ١٦ عاما ، بدأ المطحن بطريقة ظريفة ، فقد اكتسب التعاونيون ذوقا جيدا من عملهم فى الحانوت وتعلموا اكتشاف وكراهية الغش وقرروا أن ينسجوا

على المنوال الناجح فى ليدز فيقيموا مطحن قمح تابع لهم وتولى وضع قواعد ولائحة المطحن نفس الأيدى الأمينة الحكيمة التى وضعت لائحة الرواد منذ ست سنوات أى مستر تشارلز هوارث الذى كان عاملا فى مصنع لكنه كان أيضا « قانونى » الرواد » وكان على استعداد أن يكرس لياليه لتقنين القواعد ، وقد تتطلب ذلك منه وقتا طويلا حتى يرى طريقه لكنه وجدها بالتأكيد لأنه كان واحدا من أولئك الذين يديمون البحث والنظر حتى يجدوا الشىء الذى يريدونه .

ورغم أن المطحن يشق الآن طريقه سابحا فى بحار النجاح إلا أن المشروع كان فى بدايته رحلة ملاحية خطرة ، وعقد مؤسسوه المخاطرون اجتماعاتهم - كما سبق القول فى فندق اليفانت آند كاسل Elephant and Castle بشارع مانشستر فى روتشديل ، ثم اجتمعوا فى ويفرز آرم وأخيرا فى قاعة الاجتماعات بحانوت الرواد فى تودلين ، وكانت جمعية الحانوت قد اشترت عشرين سهما قيمة الواحد منها ٥ جنيهات من أسهم مطحن القمح ، وتولى جون باترورث John Butterworth مهمة أول صندوق خزينة للجمعية ، وفى هذا يقول مستر كوبر « لم يكن الصندوق ثقيلا أبدا لأنه لم يكن به أكثر من ٦ جنيهات فى أى وقت » وعندما تجمع رأسمال قدره ١٠٠٠ جنيه اتخذت الخطوات للبحث عن مطحن ، واستأجروا أولا مطحنا قديما يسمى « مطحن هولمز Holme Mill » يبعد نحو ميل ونصف عن روتشديل بايجار ١٥٠ جنيها ، وأحضر الأعضاء ما أمكنهم من المال ، وكان من بين أعضاء اللجنة الأولى لورنس ميلادى ، جيو جرينوود ، جون تيرنر ، ادموند هارتلى ، جون باترورث ، أمين الصندوق ، واكتتب كل منهم بما يستطيع ، واستثمر آخرون جزء من أموالهم بينما وظفوا الباقى فى مشروعات أخرى خشية أن يطحن المطحن مع القمح أموالهم التى استثمروها فيه ، واكتفى البعض بمساعدة مطحن القمح بتمنياتهم الطيبة وانتظروا ليروا كيف ينجح قبل أن يساعدوه بطريقة أكثر تكلفة ، لكن رواد تودلين استثمروا ١٠٠ جنيه أخرى وهو مبلغ كبير بالنسبة لهم ومخاطرة كبرى حين كانت جمعيتهم فى سنتها السادسة ، وعينوا مندوبين ليكون استثمار الأموال باسمهم وهى خطة اتبعتها الجمعيات الأخرى فيما بعد ، وتقضى الخطة بتعيين مندوب لكل ٥ جنيهات ، وقبل نهاية عام ١٨٥٠ كان للرواد العدول ثلاثون مندوبا

– ويالها من كتيبة – ليراقبوا استثمار ٢٠٠ جنيه ، وعلى بعد ميل ونصف من روتشديل كانت توجد جمعية رواد بريكفيلد Brick field العدول ، ورغم أن أعضائها أقل عددا من جمعية رواد روتشديل فانها لم تتخلف عنها فى تأييد المطحن وكان أعضاؤها « لبنات "bricks" » حقا كما سموا فى ذلك الوقت ، وعينوا بدورهم مندوبين عنهم ودفعوا استثماراتهم ، وعندما بدأ المطحن فى الإنتاج أخذت جمعية بريكفيلد تشترى كل دقيقها منه ، ولم تتجه الى بيع غير هذا الدقيق سواء كان جيدا أم سيئا ، وفعل رواد روتشديل نفس الشىء ٠

ووقع بعض الأشخاص الذين انضموا الى جمعية المطحن على خطة ذكية لاستخلاص بعض الربح منها فاقترحوا أن يأخذوا بالإيجار جزء من مطحن هولمز مع القوى المحركة اللازمة لإدارة آلات ندف القطن وغيره من المخلفات ، ونظرا لأن هذا الاقتراح يؤدى الى تخفيض مخاطرة المطحن عن طريق تخفيض الايجار فكان من المحتمل أن يتأثر به كل الأعضاء الذين يساورهم الخوف ، أما الآخرون من ذوى الحكمة والحنكة فقد قالوا ان الغبار المتصاعد من القطن المندوف سيدخل فى الدقيق وأن المشـترين لن يقبلوا دقيقاممزوجا بغبار القطن ، وبعد مناقشات تقرر العدول عن تأجير جزء من المطحن ٠

ويقول التقويم السنوى عن مطحن القمح : « أغراض الجمعية تزويد أعضائها ومن يتعاملون معها بالدقيق النقى الصحى غير المغشوش من سعر وجودة يماثلان السعر والجودة اللذين يعرضهما أى صاحب مطحن فى المنطقة ، وتقسيم الأرباح الناشئة عن المتاجرة من الأعضاء بنسبة المبالغ المستثمرة بعد دفع فائدة على رأس المال بواقع ٥٪ سنويا(١) وتماثل قواعد جمعية المطحن من حيث المبدأ قواعد جمعية الرواد العدول فيما عدا استثناء العمال من الربح ٠

---

(١) هذا هو الشكل الصحيح للتعاون الإنتاجى فإنه يؤجر رأس المال ويقسم جميع الأرباح بين المشترين منه غير أن التقويم لا يفصح عما إذا كان التقسـيم يشـمل العمال أيضا ٠

وفى عام ١٨٦١ ولأول مرة تغيرت عبارة « بواقع ٥٪ سنويا » الى « بواقع ٥ جنيهات لكل مائة سنويا » وكان قد مضى على جمعية تودلين قبل اكتشاف أن التحديد التجريدى للأرباح المالية كان أمرا غير مفهوم لذهن روتشديل العملى ، فإن الأعداد الكبيرة التى بدأت تؤم الحانوت للشـراء وتشترى الدقيق من المطحن لم تفهم تماما المقصود من عبارة « خمسة فى المائة » حينما تفهم عبارة « خمســة جنيهات » ، والواقع أن اكتســاب فن الإبانه عن المقصود بالضبط يحتاج الى وقت طويل ٠

ولم يكن هناك مطحن أكثر عنادا من مطحن هولمز ، فالدقيق غير جيد ، والمطحن لا يثمر ، والأرباح لا تأتى ، وخجل التقرير الأول للجمعية من أن يبدى وجهه ، وأظهر التقرير الثانى الصادر فى يونيو ١٨٥١ خسارة قدرها ١٠٣ جنيهات كما أظهر التقرير الثالث لشهر سبتمبر خسارة قدرها ٣٣٨ جنيها فى معاملات ربع السنة وكانت الخسارة الكلية ٤٤٤ جنيها وهو مبلغ يجتذب جيشا من الناقدين المتذمرين ، ولم يجد مستر داروين مشقه تتبع مكامنهم فى البلدة التى أخرجت جمعية تودلين ، ولكن المتذمرين لم ينشأوا حول المطحن فقد قيل عن الرواد أنهم أخطأوا ، وكان ظاهرا لكل فرد وللجميع أنهم لا يفهمون فى صناعة طحن القمح ، وقيل عن المدير أنه أساء الإدارة وطردته الجمعية ، وذهب أعضاء مجلس الإدارة والرئيس ، مستر أبراهام جرينوود الى السوق بأنفسهم ومعهم أحد الطحانين للحكم على نوعية القمح وجودته وادار مجلس الإدارة المطحن بغير مدير له ٠

وعقدت الجلسة الثورية فى قاعة الاجتماعات بمقر الرواد ، حين تدخل أدعياء الشر وكانوا كعادتهم شديدى البلاغة والفصاحة فى تزيين الهرب ، وقال بعض الأعضاء أنهم يفضلون التخلى عن مساندة المطحن ، وقالوا أن حانوت تودلين بإصراره على بيع دقيق المطحن دون غيره يخسر زبائنه ، وأن جمعية المطحن تخسر الأموال ، وأن على الحانوت أن ينفض يده من المطحن ويشترى دقيقه من حيث يستطيع شراءه أرخص وأجود وإلا فإن المطحن سيجر الحانوت معه الى الخراب ، **وقال آخرون أن الأفراد يكسبون ثروات من المطاحن فلماذا لا يفعل التعاونيون ؟ ، وأوضحوا أن أسباب الخسائر ترجع الى قلة الأموال اللازمة لسير المشروع مما يضطر المطحن الى شراء القمح ممن يرضون بمنحه الائتمان ، كما ترجع الى**

الإهمال أو قلة المهارة أو لكليهما من جانب رئيس الطحانين ، وترجع ايضا الى ضعف المساندة من جانب الاعضاء والمتاجر التعاونية ، وقال البعض انه لو فشلت جمعية مطحن القمح لكان فشلها اختبارا عنيفا للتعاون فى روتشديل إذ كيف تستمر الثقة فى رواد روتشديل العدول بينما يمكن أن يشير الناس الى فشـل جمعية تعاونية فى البـلدة ، وقد أوضحنا من قبل كيف كان أثر هذا الشعور القوى والثقة والإيمان العظيم بفكرة الرواد ورفع مسـتر جيمس سميثز لواء هذا الواجب وشرف التعاون والريادة وأهاب بالأعضاء ألا يتخلوا عن المطحن فصوتت أغلبية مع استمرار الجمعية ، وهز بعض المعارضين رؤوسهم قائلين ان الأغلبية لا تدرك مقدار سفهها الى أن تجلب الخراب على جمعية الرواد وبرغم حصول جمعية المطحن على صوت مؤيد فى جمعية الرواد إلا أنها لم تتأكد من النجاة بعد إذ يجوز أن يصدر صوت مضاد فى اجتماع آخر لنفس الجمعية ، وتفرق الأعضاء احزابا بعضهم يرفع المطحن الى عنان السماء بكل حماس وبعضهم يخفضه الى حضيض الأرض بكل هيستيرية ، ولما كان نفس الأعضاء ينتمون الى لجنة مطحن القمح والى لجنة الحانوت فكان عليهم أن يهرولوا من حجرة الى اخرى ليحولوا دون صوت معادى ، ويقدم لنا مسـتر كوبر صـورة للصعوبة الاجتماعية فى عمل ذلك ، فى مخطوط يبين تضحيات المصلحين التى نادرا ما تنشر على الملأ برغم أنها جزء هام من التاريخ الاجتماعى : « كانت هناك الاجتماعات الشهرية للجمعيتين الى جانب الاجتماعات العارضة الخاصة ما يتطلب من الأعضاء من أصحاب المناصب حضور اجتماعات اللجان ليلة أو أكثـر كل أسبوع ، وطبيعى أن يتغيب الرجـال عن المنزل لحضور هذه الاجتماعات ٠ وكانت الزوجات فى الغالب من مؤيدى المطحن كأزواجهن يتحملن متاعب الدقيق عندما يكون سيئا ، وعندما تخبزن خبزا جيدا يعرضنه على الجارات والزائرين لاقناعهم بأن المطحن ينتج دقيقا جيدا ، ويحدث أحيانا أن يتشاحن الزوج مع زوجته عندما يجد الخبز سيئا ويتهمها بأنها « أفسدت الدقيق » وترد الزوجة بأنها « تستطيع أن تخبز كالأخريات أو خيرا منهن ان كان لديها نفس الدقيق ، وأنه يجب العدول عن استخدام دقيق جمعية المطحن إذا كان الخبز الناتج لا يعجب لأنهـا لا يمكنها عمل خبز جيد من دقيق سىء » ، ويبتعد الزوج عن البيت ليحضر الاجتماعات وترسل الزوجة أطفالها ليناموا وتبقى وحدها دون أن تجد من

تتبادل معه كلمة واحدة حتى يعود الزوج من الاجتماع ، وفى تلك الأثناء يخيم السكون التام فلا صوت إلا صوت الساعة الرتيب أو صوت المطر يضرب النافذة أو صوت الرياح تصفر أو تزمجر وكأنها فى ثورة على القيود التى فرضتها عليها الطبيعة ، وتبدو الدقائق للزوجة كأنها ساعات وتشعر بالإهمال ، فزوجها يحضر كل شىء إلا أن يحضر الى البيت ، وفى بيت آخر ظلت الصغيرة اليزابيث مريضة بضعة أيام وظل أبوها فى العمل طول اليوم وحين انتهى العمل ذهب الى الاجتماع ، ولا تستطيع الزوجة تهدئة الطفلة التى تشعر بأن حالتها تزداد سوءا ، ويعود الزوج فتخبره زوجته بأن ابنته مريضة وما كان له أن يذهب للاجتماع لو كان يفكر فيها ، لكنه يرى أن الطفلة سوف تتماثل للشفاء فى أيام قليلة ويعد بأنه سيمرضها ويعنى بها حتى تشفى ، ويقول لزوجته أنه عاد فورا انتهاء الاجتماع ، لكنه لا يستطيع اقناعها بأن من الواجب عليه حضور الاجتماع وأنه لا يستطيع إلا أن يحضره ، يحدث مثل ذلك وكثير غيره من الأحداث لمعظم الأشخاص المشتغلين بالشئون الاجتماعية أو الاصلاحات الأخرى ، **لكن ينبغى ألا نقول أن النساء يعارضن التعاون بل هن دائما على اهتمام به وحماس له ولنجاحه كالرجال تماما ، وحدث كثيرا أن أبدى الزوج فتورا تجاه التعاون ولم تستطع الزوجة التأثير عليه للإنضمام الى الجمعية التعاونية ، لكن ذلك لم يثنها عن مناصرتها للتعاون فانضمت هى للجمعية ، وبعد قليل يرى الزوج أن من الأفضل أن يرى أسمه فى السجلات وعندئذ تنسحب الزوجة تاركة مكانها لزوجها أو يظلان معا اعضاء فى الجمعية » ٠**

وبنهاية عام ١٨٥١ أصبح عدد المتاجر المتعاملة مع مطحن القمح ١٥ متجرا ثم زاد عددها بنهاية عام ١٨٥٢ الى ٥٢ متجرا ، وكان من بين الأفراد الأعضاء فى جمعية المطحن أبان أيام صراعها : مارى هوكس ، اليزابيث سكوت ، جيمس سميثز ، ابراهام جرينوود ، وليام كوبر ، وغيرهم من الأسماء المعروفة للقارىء ، وفى السنة الأولى كان لكل من : صمويل آشورث ، توماس بارلو ، جون جريندرود ، جون كولير ، جون بكلز ، ادموند هارتلى ، جورج هولت ، أدموند رودس ، جون كلج ، وليم كوبر ، ١٠ جنيهات فى المطحن وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت ٠

وكانت المتاعب حقيقية فيما يختص بالدقيق ، بالإضافة الى أن بيع الدقيق لم يكن يحقق أرباحا لأنه لم يكن جيدا نظرا لأن القمح لم يكن جيدا ،

وعندما كان الدقيق جيدا حقيقة ، كان كثير من الزبائن ينفرون منـه ويسمونه « الدقيق الأصفر » للونه المائل الى لون الكريم بدلا من اللون الأبيض الناصع الذى اعتادوا عليه ، ولم يكونوا قادرين على معرفة الدقيق الجيد عندما رأوه ولم يحبوه عندما ذاقوه ، فلم يعرفوا أبدا من قبل طعم الدقيق النقى واستلزم الأمر وقتا طويلا لتعويدهم على الذوق والطعم الصحيح ،**وعندما آل مصير المطحن سيىء الحظ الى مستر جرينوود اضطر أن يتعلم فن شراء القمح وصـناعة الطحن والإدارة السليمة لمطاحن القمح ، وقـام بهـذه الواجبات الصعبة بالإضافة الى غيرها فى مطحن كان مختلفا كل الاختلاف فى نوعه فأثر ذلك على وقته وعلى صحته بشكل خطير ، ومع ذلك استطاع أن يتقن كل هذه الأعمال ويقود سفينة المطحن الى بر الأمان بعيدا عن عواصف المتاعب والصعوبات** ، وسانده فى جهوده روبرت هويل ، ريتشارد هويل ، وليم اليس ، وليم تيلور وغيرهم ، حتى أن الجمعية حققت فى ربع السنة التى لم يكن لها فيه مدير ربحا قدره ٢٠ جنيها ، ونصل الآن الى حقبة من الزمن سهلة ومذللة هى عـام ١٩٥٥ عنـدما دخل مطحن وير سـتريت Weir Street الى الذهن البشرى أى الى تلك المنطقة من العقل البشرى التى تفهم العمل التعاونى فى روتشديل ، وتبلغ قيـمة الأصـول الثابتـة أو التركيبات والآلات فى مطحن هولمز حيث بدأت جمعية المطحن عملها ١٢٧٥ جنيها ولو أنها فى الحقيقة تزيد عن هذا المبلغ بنسا وأربع شلنات (واذكر هذا المبلغ الأخير لئلا يتراءى لأحد الناس الشك فى دقة قصتى ويريد التأكد من التكلفة بالضبط) ولم يكن فى استطاعة الجمعية أثناء مراحلها الأولى أن تخصص أى مبلغ للاستهلاك بسبب الخسائر التى عانتها **ولما تحسنت الأحوال واستهلكت الخسائر تضمنت التقارير التالية ٥٠ جنيها أو مائة وأحيانا حتى ٣٠٠ جنيه كمبالغ مخصصة للاستهلاك وبقدوم نهاية عام ١٨٥٥ كان كل شىء قد استغرق ثمنه فيما عدا ٢٧ جنيها .**

وفى عـام ١٨٥٦ أنشىء مطحن جديد بآلات جديدة بتكلفـة قدرها ١٠½ بنس ١٦ شلن ٦٨٢٧ جنيه (لوحظ نصف البنس هذا !) **إذ معناه أن التعاونيين عرفوا بالضبط مقدار ما كلفهم المطحن الذى عرف بأسم المطحن الجديد لجمعية مطحن القمح التعاونية بجهة روتشديل بشارع وير بروتشديل** « وطبقا للصورة المحفورة (الكليشية) للمطحن والتى نشرتها لدى فليت ستريت هاوس Fleet Street House منذ ١٦ عاما يبدو المصنع وكانه

أكثر المصانع كآبة ، فهو مظلم رطب سميك محاط بسحب داكنة بينما خط الأفق ورائه كأنه حافة تابوت ، ويقابل الزجاج الأبيض للواجهة البسيطة للعين كأنه شبح مصنع ، وأمامه عربة بائسة تحمل أكياس القمح يقودها سائقون كأنهم جثث وتشق العربة طريقها فى موكب سيبيرى Siberian البرودة ، وكان يمكن لمقاول البناء أن يجعله ممتعا للعين بقليل من النفقة الإضافية ، لكن فى تلك الأيام لم يكن أحد يفكر فى الجمال أو تجميل المبانى التى يعمل فيها الناس طول اليوم ، والحقيقة أن الجزء الجميل حقا فيما يختص بمطحن القمح كان فى أذهــان التعاونيين الذين أقاموه وأداروه واحتفظوا به عاملا ٠

ويكرر التقويم : « أهداف هذه الجمعية تزويد الأعضاء والمتعاملين معها بالدقيق النقى الصحى غير المغشوش وتقسيم الأرباح الناتجة عن التعامل مع الأعضاء بنسبة المبالغ التى ينفقونها بعد دفع فائدة على رأس المال (لا شىء للعمال) بواقع ٥ جنيهات فى المائة فى السنة ، تحكم الجمعية بقوانين هى نفس القوانين التى تحكم جمعية الرواد العدول من حيث المبدأ (وهو ما ليس صحيحا) » ٠

واســتمر الإجراء الحكيم الرامى الى انقاص تكلفــة المطحن بعمل مخصصات للاستهلاك وعندما يبيع المطحن بالمزاد عام ١٨٦٠ كانت قيمته فى الدفاتر كأصــل من الأصــــول ٣٨٦٢ر٣ جنيها فقط بينما بيع بمبلغ ٦٠٠٠ جنيه ٠

وفى الربع سنة المنتهى بشهر يونيو عام ١٨٦٠ كانت المعاملات بهذا المطحن الكئيب المنظر ٣٣١٤٠ جنيها ، وأعلن أعضــاء مجلس الإدارة أن « المطحن الحالى بآلاته الحالية لا يمكن التوسع فيه بطريقة نافعة ومفيدة » ووصل « عدد الأعضاء عندئذ الى ٥٥٠ عضو من ضمنهم ممثلو المتاجر التعاونية وجمعيات مساعدة المرضى ودفن الموتى ، فقد كان من مصلحة هذه الجمعيات أن تستثمر أموالها المتراكمة فى مشروع تعاونى ، لأن هذه الأموال إذا أودعت فى البنك فلن تغل أكثر من ٢ أو ٣٪ ، ولن تعرف الجمعيات شيئا عن أموالها بعد إيداعها سوى أنها أودعتها هناك ، أما فى الجمعيات التعاونية فإنها تأخذ ٥٪ وتعرف أين أموالها وكيف تدار ولها صوت فى الإدارة لتتأكد من سلامة أموالها ، وقد استلزم الأمر شيئا من الجهـــد

والتعب لاقناع أعضاء جمعيات مساعدة المرضى ودفن الموتى باستثمار أموال جمعياتهم فى المطحن وإيضاح أن المطحن مأمون كوعاء استثمار ، وعندما مضى على المطحن أربع أو خمس سنوات وهو يعمل تشجع محفل البلدة وقرر استثمار بعض أمواله فى المطحن وعين ثلاثة مندوبين ليحملوا النقود الى هناك، **ويقول مستر كوبر : « عندما جاءوا الى المطحن ورأوا لجنته لم يجرؤوا على ترك المال » ، وأصابهم الإضطراب والارتباك ولم يعرفوا كيف يشرحون انطباعاتهم فانسحبوا مرتبكين تنتابهم الشكوك دون أن ينطقوا بكلمة ، وعادوا الى المحفل حيث بدوا مثل عمدة لنلنجو وكأنهم « مسهم طوربيد أو رأوا ذئبا » وقالوا « أنهم رأوا عمال نسيج فى لجنة المطحن وأنه ليس من بين أعضاء اللجنة من يعتبرون من أثرياء الناس ، ولذا أعادوا المال الى المحفل حيث يتوافر له من الأمان مالا يتوافر له وهو فى أيدى العمال » ، لقد تعرضوا لعمليات نصب واحتيال من قبل على يد فريق من السادة ، كما حدث عندما أفلس بنك الادخار فى البلدة فجلب الاحباط لآلاف من الأسر الفقيرة لكنهم لم يتعرضوا أبدا لعمليات نصب واحتيال على يد عمال ، وهكذا رأوا من الواجب أن يفقدوا أموالهم على يد مجرمين محترمين فقط لكن المحفل نظر للأمر بحكمة وأجرى مشاورات فى الموضوع وانتهى الى أن عمال النسيج يمكن الثقة بهم كالبنوك تماما ، وعين المحفل مندوبين آخرين لهم قدر أكبر من الشجاعة وحملهم مزيدا من الأموال ، وتم استثمارها وبقيت فى المطحن منذ ذلك الحين ٠**

ويقدم لنا التقويم فى السنوات التالية تقريرا ممتعا عن تقدم المطحن **فيقول** « رغم أن هذه الجمعية كانت فى بدايتها أكثر الجمعيات تعرضا للمتاعب فقد أصبحت الآن من أقوى وأصح الجمعيات ، ونسبة معاملاتها مع الجمعيات التعاونية ٧/٨ جملة معاملاتها تقريبا ويتعامل معها نحو ٥٠ جمعية تعاونية وتزود أعضاءها والآخرين من المتعاملين معها بدقيق الطعام النقى الصحى غير المغشوش ، واعترض بعض الناس على دقيقها بحجة أنه لا يبدو جيد المنظر بعد اعداد الخبز منه وخبزه رغم أنه نقى ومعنى ذلك أنهم حين يتعرضون لأقصى درجات الخداع يحسون بأقصى درجات الارتياح ، وإذا اختار بعض الناس أن يغشوا الدقيق ليغشوا أنفسهم فليفعلوا ذلك ، وقد استدعى التوسع التدريجى فى معاملات الجمعية التوسع فى القدرة الانتاجية ، ولذا قررت الجمعية عام ١٨٦٢ أن تضيف (الى آلات الموجودة)

محرك بخارى قدرة ٢٥ حصان وسنة أزواج من حجارة الطحن الفرنسية وهى تعمل الآن فى المساعدة على الوفاء بالطلب المتزايد ، كما أنشأت الجمعية فى السنة الماضية مساكن على شكل فيلات ٠

وتغلبت الجمعية على مشكلة الغش التى ظلت خطيرة لوقت ما ، فقد أصبح الأعضاء أكثر ذكاءا ومعرفة بطبيعة الدقيق الجيد عنـــدما يرونه وتعلموا المذاق الصحيح حتى فاقوا فى ذلك كثـــيرا من سادة الطبقات الوسطى ، واستطاع أعضاء مجلس الادارة أن يقولوا للمشترين بلا اهتمام « إذا أردتم غش الدقيق فافعلوا ذلك بأنفسكم » وأخذت الجمعية على عاتقها مسئولية تقديم النصح فى انشاء مطاحن القمح فى مختلف أنحاء البلاد حيث يوجد عدد من الجمعيات التعاونية يمكنها أن تساند تلك المطاحن ، ولاشك أن الطبيعة الدعائية كانت دائما من أهم مميزات روتشديل ، ولهذا الغرض استشارت الجمعية مستر جون هولمز John Holmes المقيم بمدينة ليدز وكان دائما قديرا على إيضاح المبادىء التعاونية فى جلاء وخصوبة واقتدار وكانت له تجربة كبرى مع مطحن ليدز وكان فى مجلس أمنائها ، فقال انه بوجه عام قد لا تؤيد ١٠٠٠ أسرة مطحن القمح بينما من المحتمل أن تؤيده ٢٠٠٠ أسرة ولـكن سوف تؤيده ٣٠٠٠ أسرة بكل تأكيد ، وينطبق ذلك طبعا على الطلب وحده ، وفى ليدز لا ينجح المطحن اذا كان عـــدد الأعضاء ١٠٠٠ عضو ، وفى جارفورث المجاورة لبلدة ليدز حيث ١٥٠٠ عضو قام المطحن بصعوبة ، أما فى روتشديل فقد نجح المطحن بعدد من الأعضاء مقدار ٢٠٠٠ عضو لـكل المطحن أخذ يبيـــع للجمهور أيضا ، وفيما يختص برأس المال بدأت جمعية ليدز بمبلغ ٢١ شلنا للعضو وبهـذا المبلغ يمكن التعامل مع ١٠٠٠ عضو ، واذا كان المطحن مستأجرا فيحتمل أن يجد آلات لألف عضو مقابل جنيهين من كل عضو أو مقابل ٣٠ شلنـــا لألفى عضو ، أما اذا كان المطحن ممـــلوكا للجمعية فان ٢٠٠٠ عضو يلزمهم ٥٠ شـــلنا لـكل واحد بغرض أن كل شىء يتم بطريقة سليمـــة ورخيصة ٠ ولا يمـــكن بناء مطحن ــ شاملا الأرض والآلات ــ بأقل من ٥٠٠٠ الى ٧٠٠٠ جنيه ليطحن من أجل ٢٠٠٠ شخص ٠

ووصلت جمعية روتشديل الى نتيجة هى أنه فى أى منطقة يوجد بها مجموعة من المتاجر التعاونية لا تبعد أكثر من ٨ الى ١٠ أميال وبهـــا

٣٠٠٠ عضو يستطيع كل منهم أن يدفع ٢٥ شلنا كرأسمال ، فمن الممكن استئجار مطحن وتزويده بالات ، وبالطبع فان التكلفة أكبر الآن ٠

وتظهر تقارير جمعية مطحن القمح بناحية روتشديل سير الجمعية وتطوراتها خلال ٢٥ عاما كما يلى :

السنة	رأس المال	المعاملات	الربح
	جنيه	جنيه	جنيه
١٨٥٠	ــــــ	ــــــ	ــــــ
١٨٥١	٢ر٦١٣	*	لاشىء**
١٨٥٢	٢ر٨٩٨	٧ر٦٣٦	٣٣٦
١٨٥٣	٤ر١٤٣	١٦ر٦٧٩	٢٠٨
١٨٥٤	٣ر٩٧١	٢٢ر٠٤٧	٥٥٧
١٨٥٥	٤ر٦٢٦	٢٨ر٠٨٥	١ر٣٧٦
١٨٥٦	٨ر٧٨٤	٣٨ر٠٧٠	٧٧٣
١٨٥٧	١٠ر٧٠١	٢٤ر٣٢٦	٢ر٠٠٧
١٨٥٨	١٤ر١٨١	٥٩ر١٨٨	٣ر١٣٥
١٨٥٩	١٨ر٢٣٦	٨٥ر٨٤٥	٦ر١١٥
١٨٦٠	٢٦ر٦١٨	١٣٣ر١٢٥	١٠ر١٦٤
١٨٦١	٢٩ر٦٠٠	١٦٦ر٨٠٠	١٠ر٠٠٠
١٨٦٢	٣٠ر٢٥٤	١٥٥ر٦٩٦	٨ر٢٢٧
١٨٦٣	٤١ر٧١٤	١٥٢ر٤٩٢	١٠ر١٣٨
١٨٦٤	٤٦ر٧٢٩	١٤١ر٣٠٩	٧ر٨٠٦
١٨٦٥	٥٥ر٢٦١	١٤٨ر٥٣٣	١٢ر٥١١
١٨٦٦	٧٢ر٠٢٠	٢٢٤ر١٢٢	١٨ر١٦٣
١٨٦٧	٨٩ر٠٠٠	٣٥٧ر٤٤٠	١٥ر٠٠٠
١٨٦٨	٨٦ر٤٠٠	٣٤٩ر٤٣٩	٤ر٨٢٤
١٨٦٩	٩٥ر٩٦١	٢١٩ر٦٧٤	ــــــ

* الحساب لم يستدل عليه ٠

** خسارة قدرها ٤٤١ جنيه ٠

السنة	رأس المال	المعاملات	الربح
	جنيه	جنيه	جنيه
١٨٧٠	٥٦ر٠٠٠	١٨٥ر٦٠٣	———
١٨٧١	٦٣ر٥٧٠	١٩٠ر٧٥١	٣ر٦٦١
١٨٧٢	٦٤ر٦٩٢	٢١٥ر٢٣٨	٣ر١٣٣
١٨٧٣	٦٧ر٨٩٨	٢٤١ر٣٩٩	٥ر١٤٥
١٨٧٤	٧١ر٢٩٤	٢٤٤ر١٨١	٦ر٤٧٤
١٨٧٥	٧٩ر٦١٥	٢٠٤ر٢٤٢	٢ر٥٣٢
١٨٧٦	٧٧ر٢٧٩	١٧٦ر٦٧١	٣ر٣٧٠
١٨٧٧	٧٨ر٢٣٤	٢٥٢ر٠٤٥	٥ر٣٣٣
١٨٧٨	٨٣ر٩٨٥	٢٨٥ر٩٢٠	٣ر٨٦٠
١٨٧٩	٨٨ر٨٥٧	٢٧٠ر٠٣٧	٥ر٨٢٢
١٨٨٠	٩٧ر٤١٤	٣٠١ر٨٣٥	٧ر٩٨٩
١٨٨١	٩٦ر٦٠٩	٢٩٩ر٦٧٠	٦ر٩٣٣
١٨٨٢	٩٩ر٨٨٥	٢٨٦ر٩٦٨	٢ر١٤٤
١٨٨٣	١٠١ر٣٢٣	٢٥٩ر٣٩٧	٣ر٢٩٥
١٨٨٤	١٠١ر٨٥٠	٢٠٩ر٩١٠	١ر٥٤٣
١٨٨٥	٩٩ر٩٨٠	١٩٢ر٦٣٢	———
١٨٨٦	٩٥ر٣١٩	١٦٧ر٦٥٤	٣٣٠
١٨٨٧	٨٧ر٨٦٨	١٤٨ر٧٢٦	———
١٨٨٨	٨٨ر١٩٨	١٨٣ر٥٢٤	٤٤
١٨٨٩	٨٥ر٣٤٠	١٩٦ر٠٣٧	٢ر٦٤٢ خسارة
١٨٩٠	٨٦ر٨٩٩	٢٣٥ر٢٧٤	٤ر٥١٠
١٨٩١	٩٣ر١٢٢	٣١٥ر٥٩٨	٩ر٠٢٢
١٨٩٢	١٠٣ر٣٥٨	٢٥٤ر٠٦١	٢ر٣٨٤

الفصل العشرون

منشأ جمعية الجملة

ORIGIN OF THE "WHOLESALE"

مما يميز روتشديل أنهـــا ابتدعت الشكل العملى لفـكرة اتحـــاد المشترين وأعطتها قوة ودفعة ، وهى الفـكرة التى تبلورت فيما بعد فى « الجمعية التعاونية لتجارة الجملة بشمال انجلترا » وتعرف أيضا باسم جمعية مانشستر الـكبرى لتجارة الجملة Great Manchester Wholesale Association

ولم يتنبأ أحد بالطبع بالأهمية العظمى التى ستبلغها هذه الجمعية يوما ما ، فنادرا ما يستطيع أحد أن يرى صعود أى شيء بينما هو لا يزال على الأرض وعندما يستقر عاليا على قمم الجبال يعلن الأنبيـــاء الذين توقعوا له الفشل انهم أول من تنبأ بصعوده ويعتقدون انهم هم الذين جعلوه يطفو ويصعد ٠

وطبيعى أن أى شيء يجب أن يبدأه شخص ما ، وسنرى فيما بعـــد الى من يحب أن ينسب منشأ جمعية الجملة ٠

ويقص علينا مستر جرينوود تاريخ المحاولات التى بذلت لإنشـــاء وكالة بيع بالجملة فى « الخطة » التى وضعها ونشرت على الناس ، وعلى أساسها تألف اتحاد مشتريات شمال انجلترا فيقول : « بذلت محاولة فى هذا السبيل (عام ١٨٥٠) على يد الاشتراكيين المسيحيين الذين برز منهم ادوارد فانسيتارت نيل Edward Vansittart Neale ، بروفيسور ف٠ د٠ موريس F.D. Maurice ، نيافة كانون كنجسلى Canon Kingsley ، ج٠م٠ لادلو J.M. Ludlow ، تومـــاس هيوز Thomas Hughes ، ج٠ف٠ فيرنفال J.F. Furnival ، جوزيف وودن Joseph Wooden ، لويد جونز Lloyed Jones ، وأنشأوا الوكالة التعاونية المركزية لغرض « **مقاومة نظام الغـــش والتدليس السائد فى التجارة ، وامداد المتـاجر التعاونيـة بسلع ذات جودة يمكن الاعتماد عليها ونقيـــه الى أقصى درجة** » ولم تنجح الوكالة مما أوجب صرف النظر عنها بعد أن تحمل المنشئون خسارة كبيرة ، لـكن بقيت منها بقية تعرف بشركة وودن وشركاه ، شربورن لين ، (شارع آرشر الآن) لندن ٠

ونهدف أساسا هنا الى تتبع دور روتشديل فى اضفاء الفاعلية على الفكرة وتنفيذها ، ولم تكن المعلومات المحفوظة فى صفحات سجلات محاضر تود لين كافية فى هذا الصدد ، فقد تمثل مستر سميثز الذى تولى سكرتارية جمعية الحانوت فى مراحلها الأولى بصفات الرواد وانتهج طريقتهم فى الاقتصاد فى الكلمات كاقتصادهم فى الأموال ، ولاشك أن القصد من الكلام فضيلة ولو أنه لا يحسب دائما فى جانب الوفورات المرغوبة ، ويقول مستر بامفورد Bamford أن « مستر سميثز لم يتخيل أبدا أن يبحث شخص ما عن المعلومات التى يريدها فى صفحات هذه السجلات بعد سنوات » وأول ما كتب عن البيع بالجملة كان فى يوليو ١٨٥٣ وهى فقرة : « يشرف جوزيف كلج على قسم الجملة » وهذا يعنى اما أنه كان هناك قسم للجملة من نوع ما أو أنه لم يوجد لم يستطع أحد تتبع نشأة أنواع الجملة من السجلات السابقة سوى دكتور داروين نفسه ، ويفترض مستر بامفورد أن القرار المشار اليه يشير فقط الى قسم الأقمشة إذ توجد اشارات متكررة الى تجارة الأقمشة مما يوحى بهذا الافتراض ، وفى اجتماع عام للأعضاء عقد فى ١٨ سبتمبر من نفس العام تقرر « قبول شروط المؤتمر لتكوين المستودع المركزى » والمفترض أن المؤتمر المشار اليه هو الذى عقد فى ليدز ، وفى اجتماع الأعضاء المنعقد فى الشهر التالى ـ ٢٣ أكتوبر ١٨٥٣ صدرت الموافقة على أول لائحة للجملة وكانت تنص على ما يلى :

١ ـ تقسم معاملات الجمعية الى قسمين تجارة الجملة وتجارة التجزئة .

٢ ـ تدير هذا القسم لجنة مكونة من ثمانية أشخاص ومن أمناء الجمعية الثلاثة ، وتجتمع مساء كل يوم أربعاء الساعة السابعة والنصف ، وتراقب الشراء والبيع للسلع التى يوافق مجلس الإدارة على أن يحتفظ هذا القسم بها فى مخازنه ، وتختار هذه اللجنة فى الاجتماعات ربع السنوية فى أبريل وأكتوبر وتسقط عضوية ٤ أعضاء بالتبادل .

٣ ـ غرض قسم الجملة تزويد الأعضاء الراغبين فى ذلك بالبضائع بكميات كبيرة .

٤ ــ تحسب على هذا القسم فوائد بواقع ٥٪ سنويا فيما يتعلق برأس المال الذى يقدمه له مجلس الادارة ٠

٥ ــ تقسم الأرباح التى يحققها هذا القسم بعد سداد تكلفة الادارة والمصروفات بما فيها الفائدة المشار اليها آنفا الى ثلاثة اقسام كل ربع سنة ، يخصص القسم الأول لمواجهة اية خسارة تتحقق اثناء التعامل الى أن يصبح المبلغ مساويا لرأس المال الثابت المطلوب اما الثلثان الباقيان فيقسمان على الاعضاء بنسبة مشترياتهم من القسم المذكور (لم يرد ذكر للعمال) (١) ٠

توقيعات : جون كوكروفت
ابراهام جرينوود
وليم كوبر
جيمس سميثز ــ السكرتير

وكان يجب تسجيل هذه اللائحة بالطبع ، لكن لم تذكر اية اشارة اليها حتى اجتماع مجلس الإدارة عام ١٨٥٥ حين ذكرت بهذه العبارة : « تقرر أن نسير الآن طبقا لأحكام اللائحة الجديدة » ، وأيد اجتماع فى فبراير التالى هذا القرار ، أما الاشارة الواضحة التالية لذلك الى تجارة الجملة فجاءت فى محضر لاجتماع ربع سنوى عقد يوم ٢ أبريل ١٨٥٥ حين عين الأشخاص التالى بيانهم كلجنة الجملة : توماس هالوز ، ادوارد فاراند ، ج٠ك٠ كلج ، جوناثان كرابترى ، جنواسيدان ، جيمس مينوك ، تشارلز كلج ، اد هولت ، وجاء فى محضر جلسة مجلس الادارة بتاريخ ٥ أبريل ١٨٥٥ ما يلى : « يقابل المجلس لجنة الجملة مساء الأربعاء القادم الساعة السابعة والنصف ، وكانت تقلبات حظ تجربة الجملة فى باكورتها كثيرة ، فورد فى محضر اجتماع المجلس فى ٨ نوفمبر ١٨٥٥ القرار التالى : الدعوة الى اجتماع خاص للنظر فى افضلية تعديل اللائحة الخاصة بقسم الجملة » وفى ١٧ ديسمبر من نفس العام قررت اللجنة

---

(١) تشبه هذه الخطة تلك التى وضعها مستر ل٠ جونز ويحتمل أن يكون واضعوها قد اقتدوا بها لأن مستر سميثز كان قد نسخها ، وتقسم خطة جونز الأرباح أربعة أقسام يخصص قسم منها لانشاء جمعيات عمالية تعاونية وتسقط خطة روتشديل هذا القسم ويدخل بعض التبسيط والملامح المحلية ٠

« يرى المجلس وجوب الغاء لائحة ١٥ ، ١٦ ـ ١٧ الخاصة بقسم الجملة » وفى الاجتماع ربع السنوى التالى (٧ يناير ١٨٥٦) وفيه انتخب مستر ابراهام جرينوود رئيسا ، كان القرار السابع ، « الاستمرار فى قسم الجملة » ، وكانت لجنته مكونة من : صمويل ستوت ، جون مورتون ، جون ميتشل ، ادوارد فاراند ، جون ناتال ، جيمس توديل ، أ· هوارد ، وفى ٣ مارس ١٨٥٦ اختير ابراهام هيل ، دافيد هيل ، صمويل فيلدنج ، وليم اليس مندوبين لحضور مؤتمر الجملة ، ولم يذكر المكان الذى سيعقد فيه المؤتمر لكن يبدو أنه قد نوقشت فيه خطة لجمعية جديدة للجملة ، لأن الأعضاء أصدروا فى الاجتماع ربع السنوى بتاريخ ٧ أبريل ١٨٥٦ القرار التالى : « يؤيد مندوبونا الاقتراح الذى يقضى بأن يأخذ كل عضو أربعة أسهم قيمة كل منها ٥ جنيهات وذلك فى مؤتمر الجملة الذى يعقد فى ١٢ أبرايل » وفى اجتماع مؤجل تقرر قبول تقرير اللجنة المشكلة للتحقيق فى بعض الشكاوى بالشكر ، وفى اجتماع عقد يوم ٥ مايو ١٨٥٦ عين الأشخاص التالية أسماؤهم فى لجنة الجملة : « توماس لورد ، ادوارد لورد ، وليم هدلستون ، جوناثان ، ولفندن ، وفى الاجتماع التالى للمجلس يبدو أن لجنة شكلت لوضع قواعد جمعية للجملة لكن لم تذكر أسماء أعضائها ، ويبدو أن هذه القواعد عرفت للبحث فى الاجتماع ربع السنوى التالى اذ ورد قرار بشطب كلمة « يقترح » من القاعدة رقم ٢٥ ، كما صدر القرار التالى : « تستثمر جمعيتنا ١٠٠٠ جنيه فى جمعية تجارة الجملة بشمال انجلترا » وعين مستر جوناثان كرابترى مندوبا ، وستكون السنوات الأولى لنمو مشروع الجملة مثيرة الاهتمام فيما بعد أكثر منها الآن ·

وصدر قرار فى الاجتماع ربع السنوى (٧ يوليو ١٨٥٦) بتفويض المندوبين الذاهبين الى مؤتمر الجملة « بتأييد اللائحة التى وضعتها اللجنة لجمعية الجملة فى اجتماع المندوبين التالى الذى سيعقد فى ١٢ يوليو ١٨٥٦ » وفى ٤ سبتمبر ١٨٥٦ أعطى المجلس مستر كوبر سلطة « تحصيل المصروفات التى تحملها مستودع الجملة من المتاجر المختلفة » وفى ٧ ديسمبر ١٨٥٧ عين الأشخاص التالية أسماؤهم كلجنة « لفحص قسم الجملة » : وليم ديجل ، صمويل فيلدنج ، ماثيو أورميرود ، ديفيد هيل ، ادموند هيل ، وقدم تقرير هذه اللجنة الى الاجتماع ربع السنوى المنعقد

فى ٤ يناير ١٨٥٨ وتقرر « كتابة التقرير بوضوح وتعليقه فى مكان ظاهر ليقرأه الأعضاء والنظر فيه فى الاجتماع الشهرى التالى وكان الاقتراح التالى الصادر فى نفس الاجتماع : « تأجيل لائحة قسم الجملة لأجل غير مسمى » وأصدر المجلس فى اجتماع له عقد بعد ذلك بثلاثة أيام القرار التالى : « تنفيذ القرار الصادر فى الاجتماع ربع السنوى بشأن قسم الجملة » وكان من بين قرارات الاجتماع ربع السنوى المؤجل والمنعقد فى أول مارس ١٨٥٨ « عدم استلام تقرير اللجنة المعنية لفحص قسم الجملة » ·

وفى ختام الأعمال العادية للاجتماع ربع السنوى المنعقد فى ٥ أبريل ١٨٥٨ تحول الاجتماع الى اجتماع غير عادى ويبدو أن الاجتماع لم ينجز ما دعى اليه غير أن القرار الذى وصل اليه كان « لا تغيير فى قسم الجملة ، ويعتقد مستر كرابترى أن تأويل هذا القرار هو أننا لن نقتل قسم الجملة بروتشديل بل نتركه ليموت بهدوء ، ولم ترد أية اشارة أخرى لهذا القسم حتى ٧ مارس ١٨٥٩ عندما أصدرت جمعية عمومية القرار التالى : « تأجيل مسألة اعادة فتح قسم الجملة لأجل غير مسمى » وهذا آخر ما سجل فى المحاضر عن قسم الجملة بجمعية رواد روتشديل العدول، وفى عام ١٨٦٣ أثناء فترة تكوين جمعية شمال انجلترا يبدو أن روتشديل كانت تعين مندوبين بانتظام لحضور الاجتماع وأبدت اهتماما بالغا بالموضوع ·

وكانت تلك أيام المخاض لفكرة تجارة الجملة ولم يكن العملاق الذى نعرفه الآن قد ولد بعد ، وجاء من لندن فشل هذه الفكرة التى تكلف تنفيذها كثيرا وسيرى القارىء سبب ذلك فيما يلى وأخيرا بزغت جمعية جديدة للتجارة بالجملة ·

بذلت جمعية الرواد العدول عام ١٨٥٢ جهدا لانشاء قسم للجملة لأول مرة (كما سبق ايضاحه) وكان الهدف الأصلى تزويد اعضائها بالسلع بكميات كبيرة وكذلك امداد المتاجر التعاونية فى لانكاشير ويوركشاير ذات رؤوس الأموال الصغيرة التى لا تمكنها من الشراء بأحسن الأسعارأو الاستفادة بالخدمات الضرورية التى تحتاجها ، أى أن هدف قسم الجملة أن يؤدى وظيفة مندوب المشتريات الجيد الذى يعرف الأسواق وكيف وأين وماذا يشترى ؟ ، ودعا الرواد المتاجر التعاونية الأخرى

للتعاون فى تحقيق فكرة منشأة تجارة الجملة ، وعرضوا فى نفس الوقت أن يبحثوا عن توفير رأس المال اللازم للقيام بأعمال تجارة الجملة ، وانضمت بعض المتاجر فعلا لكنها لم تقدم المساندة المخلصة القوية اللازمة لانجاح المشروع ، وبرغم ذلك فان قسم الجملة من بداية انشائه كان يدفع أرباحا للأعضاء الذين يتعاملون مع القسم الى جانب دفع فوائد على رأس المال ، لكن بمرور الوقت تسلل المشروع الشيطان الذى يفسر كل حركات الطبقات العاملة أى شيطان الغيرة ، وأعتقدت المتاجر التى تتعامل مع قسم الجملة بجمعية الرواد أن هذه الجمعية تستفيد منهم ، ومن ناحية أخرى أعتقد بعض أعضاء جمعية الرواد أنهم يمنحون المتاجر الأخرى مزايا لا تبررها مصالحهم المباشرة ، **ويرى مستر جرينوود أن الوكالة التعاونية المركزية وقسم الجملة بجمعية الرواد كان لابد أن يفشلا لأن جهودهما كانت سابقة لأوانها فى الترتيب الزمنى للتطور التعاونى ٠**

وما ذكرناه آنفا ليس إلا قطاعا حقيقيا من الغيرة التجارية التى سيراها القارىء خلال عشر سنوات من القراءة ، ولنسأل سؤالا هو ٠٠٠ إذا كانت احدى الجمعيات التى تشترى من الرواد تستفيد منهم فلماذا لا يستفيدون أيضا ؟ بل الواجب أن تستفيد جمعية الرواد لأن فى ذلك ضمان لبقاء المشروع ، قد يقوم الاستياء discontent على حقائق لكن الغيرة القوية الجائشة تقوم على الجهل التام وغالبا ما تبدأ بتخيل الحقائق ، وهكذا كان لابد أن يختفى قسم الجملة بجمعية الرواد كما اختفت وكالة لندن المركزية ويرى مستر جرينوود بحكمته أن مشروع روتشديل ولندن لتجارة الجملة كان مكتوبا لهما الفشل لأنهما سبقا زمنهما، فعندما بدأت الوكالة المركزية بلندن كان عدد المتاجر فى انجلترا لا يكفى لمساندتها وجعلها تعيش ، وكذلك كان الحال عندما أعادت روتشديل المحاولة عام ١٨٥٢ ، وعليه فقد انتظر مستر جرينوود عشر سنوات حتى عام ١٨٦٣ حين صار عدد المتاجر التعاونية فى المملكة المتحدة ٣٠٠ متجرا فابدى رأيه فى أن امكانية بدء جمعية شمال انجلترا للجملة يمكن أن تلقى نجاحا ٠

وكانت حجة مستر جرينوود فى تأييد خطة ١٨٦٤ الجديدة تماثل اعتبار جدول الجمع شيئا موثوقا فيه ، ففى عام ١٨٦١ كان عدد المتاجر

فى مقاطعات لانكاشير ويوركشاير وتشيشاير المجـــاورة ١٢٠ متجرا مجموع عدد اعضائها ٤٠ر٠٠٠ عضو ، ويتعامل ٢٦ متجرا من اكبر هذه المتاجر فى معاملات تبلغ قيمتها ٨٠٠ر٠٠٠ جنيه ، ولذا لو فرض أن كل عضو من الأربعين الف عضو ينفق ١٠ شلنات أسبوعيا (والواقـــع أن الانفاق يجاوز ذلك) فان الانفاق يبلغ والحالة هذه ٢٠ر٠٠٠ جنيه أسبوعيا أى ما يزيد عن مليون جنيه سنويا ، ومن ذلك يبدو أن لوكالة الجملة ميدانا كافيا للنشاط ٠

وحسب مستر جرينوود كميات أصناف البقالة اللازمة لامداد أعضاء المتاجر التعاونية فى المقاطعات الشمالية وعددهم ٤٠ر٠٠٠ عضو ، واستند الحساب على البيانات الخاصة بالسلع التى تباع فعلا فى جمعية رواد روتشديل خلال ربع سنة عام ١٨٦٣ وكان عدد الأعضاء ٣٥٠٠ عضو ، وكانت تلك الـكميات كالآتى :

السـلع	استهلاك أسبوع	القيمة النقدية الأسبوعية	القيمة التقديرية السنوية
	لـيره	جنيـه	جنيـه
بن	٦ر٩٢٣	٢٦٦	١٣ر٨٣٢
شاى	٥ر٩٥١	٩٩١	٥١ر٥٣٢
طباق	٤ر١٢٥	٨٢٥	٤٢ر٩٠٠
نشوق	١٠٨	٢٢	١ر١٤٤
فلفل	٢٤٣	١٥	٧٨٠
سكر	١ر٤٠٠	٣ر٥٠٠	١٨٢ر٠٠٠
عصائر وشربات	٤٠٠	٣٥٠	١٨ر٢٠٠
زبيب	١٠٧	١٦٠	٨ر٣٢٠
زبد	٧١٧	٣ر٤٤٠	١٧٨ر٨٨٠
صابون	٣٣٨	٥٢٤	٢٧ر٢٤٨
		المجموع ١٠ر٠٩٣	٥٢٤ر٨٣٦

وفى الجدول عدة أصناف يكفى واحد منها بنفسه أن يجعل أى وكالة مشروعا مربحا • وستعمل الوكالة فى مبدأ الأمر فى توريد الأصناف التى تنتج ربحا مضمونا ، ويتضح من الاحصائيات أن حالة الحركة تسمح بل وتبرر اتخاذ خطوة أخرى فى الطريق الى تحقيق تجارة الجملة كانت تلك حجة مستر جرينوود ، ويعلم الجيل الجديد من التعاونيين أن منشأة الجملة أقيمت مرتين وفشلت لأنها لم تكن لها أرضية سليمة لتنهض عليها ، وكنت كلما استطعت حث وتشجيع أولئك الذين يحاولون اقامة تجارة الجملة التعاونية أقول لهم أن يكرروا دائما بأنهم انما يعيدون انشائها فقط ، فأحسن طريقة تشجيع الخائف وقليل الحيلة للمغامرة محاولة شيء جديد هى أن نبين لهم أن هذا الشيء قد تم مرة قبل الآن •

« يجب أن تعلم الناس وكأنك لا تعلمهم
وأن الأشياء المقترحة كأنها جديدة أشياء عفا عليها
النسيان »

"Men must be taught as though you taught them not,
And things proposed as new as things forgot."

وبهذه الطريقة شجعنا الناس على افتراض أنه لا شيء جديد ولا متميز فيما يحاولونه ، لكن الأمر يتطلب تخطيطا ماليا دقيقا وكثيرا من المثابرة لاثباته وتحقيقه ولذا فالمشروع من هذه الوجهة يعتبر مغامرة جديدة •

وكانت لجمعية رواد روتشديل عندئذ تسعة فروع بقالة كلها تمون وتدار من الحانوت الرئيسى فى تود لين • وتدار المعاملات بين الفروع والحانوت المركزى بطريقة بسيطة للغاية فيقوم رئيس عمال كل حانوت باعداد قائمة بجميع السلع المطلوبة على استمارة خاصة معدة لهذا الغرض ويرسلها الى الحانوت المركزى ، وعندما تصل الى المدير يصدر توجيهات الى شركة السكة الحديد أو النقل النهرى التى توجد بها بضائع الحانوت بارسال طرود الأصناف المطلوبة الى كل من الفروع المبينة فى أمر التسليم ، فكان الحانوت الرئيسى بروتشديل بالنسبة لفروعه فى مركز الوكالة المقترحة بالنسبة للجمعيات المرتبطة به •

وأشار مستر جرينوود الى هذه الحقيقة الواقعة ، وتقرر أخيرا بذل محاولة للمرة الثالثة من اجل تنظيم وكالة جملة جديدة ، وتكونت شركة باسم : « الجمعية التعاونية الصناعية والادخارية المحدودة لتجارة الجملة بشمال انجلترا » ، واصبحت تجارة الجملة الآن مثل النيل التاريخى الذى لا يمكن استقصاء مصدره ، اصبحت جمعية الجملة سيدة المتاجر كما أن النيـــل سيد الفيضانات حسبما يعرفه مستر ستانلى Stanley ، وبمســاعدة المستـكشفين مستر س٠ بامفورد ومستر جيمس كرابترى ومستر ٠١ هوارد الذين كانوا فى طرائقهم على قدر وافر من المغامرة مثل أى ممن سبقوا مستر ستانلى ، استطعنا أن نتتبع مصدر المياه التجارية الكبرى التى تروى كل المتاجر التى تصل اليها كما يروى النيل نفســه الشواطىء التى يلامسها ٠

لقد كان فى جمعية روتشديل عندما اتخذت جمعية الجملة بمانشستر شكلها الملموس كثيرون يعارضون بشدة تطوير قسم الجملة ، ومعظم هؤلاء من الأعضاء الجدد الذين لم ينظروا بارتياح الى انشاء جمعية لتجارة الجملة وان لم يكونوا على قوة كافية لمنع جمعية روتشديل من شراء اسهم فيها ، فقد نجحوا فى اعاقة تطور العلاقات التجارية على النحو الذى تنتظره الحركة من روتشديل ، ويبدو أن أثر روتشديل على جمعية الجمـــلة هو أن تلك الجمعية اتجهت الى روتشديل لتستمد منها المسئولين اصحاب المناصب ، فقد طلب الى مستر صمويل آشورث مدير حانوت روتشديل أن يتولى ادارة أعمال جمعية الجملة بمانشستر وكان قسم الجملة بجمعية روتشديل قد توقف عن النشاط ، ورفض مستر آشورث العمل المعروض عليـــه إلا إذا وافقت لجنة جمعية روتشديل على اعادته لعمله بها اذا لم تنجح التجربة الجديدة(١) ٠ ونظرا لأن اللجنة لم تنزل عند رغبته فلم يذهب لتولى هذا المنصب ، وبعد شهور عرضت له فرصة أخرى للذهاب الى مانشستر فانتهزها (حسب اقوال مستر هوارد) ٠

---

(١) تقدم الفقرة التالية من أحد المحاضر الصيغة الرسمية فى هذا الشأن : « فى ٧ نوفمبر ١٨٦٣ تشكل وفد لدعوة مستر صمويل آشورث ليصبح مندوب مشتريات لجمعية الجملة بمرتب سنوى ابتدائى ٢٠٠ جنيه سنويا » وفى اجتماع ٢١ نوفمبر التالى قيل أن مستر آشورث رفض وان مجلس إدارة روتشديل زاد مرتبه ٣٠ جنيها سنويا ليحتفظ بخدماته ٠

ولا حاجة بنا هنا لمناقشة نظـــرية مزرعة جامبـــو Jumbo Farm theory التى وضعها أول الأمر مســتر ماركروفت الذى يرى أن فــكرة جمعية الجملة ومعظم الأمور الأخرى نشأت نتيجة مناقشات حدثت فى تلك المزرعة اذ لاشك فى أن الموضوع نوقش أيضا فى اجتماعات عقدت بأماكن أخرى الى جانب اجتماعات مزرعة جامبو ، ويرى مستر ماركروفت الذى كان على اتصال بجمعية الجملة أن هذه الجمعية نبتت من المناقشات التى جرت فى تلك المزرعة بالذات لكن طريقنا فى السرد يمر من خلال الحقائق الرسمية ، ففى أول اجتماع لجمعية تجارة الجملة بشمال انجلترا عقد فى يونيون تشامبرز Union Chambers بمانشستر يوم ١٠ ديسمبر ١٨٦٣ اختير مستر توماس تشبتهام رئيسا ومستر أبراهام جرينوود مديرا عاما ، وجيمس سميثز أمينا للصندق وجون ك٠ ادواردز سكرتيرا ، وجون شلتون ، وليم ماركرومت ، تشارلز هوارث ، توماس تشيتهام أعضاء فى مجلـــس الادارة ، وهذه مجموعة معظمها من الأسماء المعروفة فى التعاون ، وبعد أربع سنوات صدر رار بنشر البيانات الخاصة بوكالة الجملة على الجمهور وفى المقتطفات التالية من محاضر الجمعية بيان عن تلك الأمور :

صورة من المحضر الأول للاجتماع المؤجل لمجلس الادارة بتاريـــخ ٢ مارس ١٨٧٦ : الحاضرون : ١٠ جرينوود ، جيمس كرايترى ، جون هيلتون ، جيمس سميثز ، ادوارد هوسون ، ادوارد توماسون ٠

« تقرر : أولا ، نشر البيانات كاعلان فى جريدة « التعاونى » حتى اخطار آخر » ٠

وجاء فى القسم الختامى بهذا الاعلان الذى ظهر لأول مرة يـــوم ١٥ مارس ١٨٦٧ الـــكلمات الآتية :

« يجب اعتبار مستر أبراهام جرينوود ، روتشديل ، المنشىء الرئيسى للجمعية التعاونية لتجارة الجملة وقد ظل مديرها العام منذ ذلك الحين وفى عدد جريدة التعاونى لشهر مارس ١٨٦٣ (مجلد ٣) عرض مســـتر جرينوود خطته لوكالة تجارة الجملة وهى التى أصبحت أساسا للمنظمة الحالية العظيمة مع بعض التعديلات » ٠

واستقينا الجزء الأول الموضوع هنا بين قوسين مما كتبه مستر سميثز ومستر ادواردز وهما اثنان من بين أكثر الناس قـــدرة على كتابتها لأن معرفتهما بصدقها لا تقبل الشك راتفاقهما فى أقوالهما يجعل الأمر حاسما ، أما الجزء الذى يأتى بعد القوس فكتبه مستر هنرى بتمان ، وتوجد نسخ من جريدة التعاونى المشار اليها ولـــذا رؤى من المستحسن توزيعها ، فهذه الشهادة الحاسمة التى لا يمكن تحديها والتى تـكررت سنة بعد أخرى تجعل من السخف القاء أى ظل من الشك أو الانـكار ، وعندما أوقف نشر الاعلان كان ذلك بناء على المحضر الآتى :

نسخة من المحضر الأول لاجتماع اللجنة فى ١٦ أكتوبر ١٨٦٩ :

الحاضرون : السادة جرينوود ، باكستر ، فوكس ، هوسون ، كرابترى، توماسون ، ستكليف ، سويندلز ، ماركروفت ٠

تقرر عدم اضافة أى وكالة تعاونية أو أية وكالة أخرى الى اعلاننا فى « التعاونى » ولم تثر أية معارضة فى هذا الاجتماع ولا فى أى اجتماع سابق فيما يختص بحقيقة منشأ جمعية الجملة ولم يثر مستر ماركروفت ولا أى شخص آخر سؤالا عن حقيقة الأمر بل كان السبب انه النشر لم يعد ضروريا ، وقيل انه لا حاجة لظهور الاعلان « لأنه حقق الهدف الذى كان مقصودا منه » ٠

ولا يمكن ارساء حقيقة تاريخية بصورة حاسمة أكثر مما حدث من نشرها باستمرار بناء على موافقة مشتركة وتلك الحقيقة هى أن مســـتر جرينوود كان « المنشىء الأساسى » لجمعية الجملة ٠

ويدرك كل من له علم شخصى بتطور التعاون أثنـــاء الثلاثون سنة الماضية بأن فضل انشاء جمعية الجملة وعملها وتنظيمها يرجع الى ابراهام جرينوود أكثر من أى شخص آخر ، ويكفى دليلا على ذلك الخطاب الفاصل جيد التحرير الذى أرسله مستر ادواردز الى جريدة أخبار التعاون ونشر فى عدد ١٧ يوليـــو ١٨٧٥ ، وهى شهادة تنهى الموضـــوع تماما ، ولو استعرنا تعبير مستر ادواردز لقلنا أنه لا يمكن أن يساور النفس شك فى هذا الشأن الا نفس أولئك الذين يميلون بموجب ضعف فيهم الى اعتقاد ما قام الدليل على ضده ، وانى أضع الى جانب أبراهام جرينوود رجل آخر

هو جيمس سميث الذى كان متواضعا شأن قدامى التعاونيين ، لـكنه لم يكن ضعيفا وكان دائما موضع الثقة ويعتمد عليه فى بيان ما تحمله كل زميل فى العمل المشترك ، ووضع هو نفسه خططا لتوحيد الشراء ، وجمع نسخا من خطط الآخرين وظل ســـنوات سكرتيرا للجنـة المشكلة لتنفيذ الفـكرة ٠

وفى حركة تنفذ فيها تطورات هامة بفضل جهود حكيمة ومثابرة من جانب شخص واحد ، يصبح من مصلحة الجميع ارجاع الفضل الى ذويه ، وعندما رسم مستر جرينوود لأول مـــرة خطة الجملة وأقام من أفـكار الآخرين المتناثرة بناء متماسكا ، فقد وضع للمرة الأولى خطة ذكية وواضحة من مبادىء عمل قابلة للتنفيذ ، وعلى حد تعبيره خطة تتحمل نار الانتقاد والشك وعدم الثقة فى الخطة التى لم يكن أى فرد آخر راغبا فى تحمل مسئوليتها أو الدفاع عنها ، وحين نجحت قفز من هنا وهناك رعاة لها ومنشئون !٠٠٠ انبثقوا يتراوحون بين مزرعة جامبـــــو الى كرونـكى شو وأمكنة أخرى أيضا ٠

وكان لمستر هوارد نظرية بعيدة النظر وذكية هو انه يمـــكن معرفة طبيعة محل اقامة التعاونيين والحكم عليها من الاطلاع على دفاتر المتجر التى تسجل مبالغ مدخراتهم ، فاعلى الأعضاء أرصدة أولئك الذين يعيشون على التلال المحيطة بالبلدة وأقلهم أرصدة من يقيمـــون فى السهول وكان علو الرصيد وانخفاضه يتبع ارتفاع الأرض التى يعيشون عليها وانخفاضها، فان صح ذلك فاغلب الظن انه يرجع الى نقاء الجو على التلال وأن يجعل الناس يرون طريقهم جيدا نحو الادخار ، واتذكر الآن أن مستر جرينوود عاش دائما فى منطقة مرتفعة من البلدة مكنته من أن يلقى نظـــرة شاملة على الأمور واستطاع ان ينظر هذه النظرة الى تجارة الجملة قبل أن يلحظها المجتمعون فى مزرعة جامبو (التى تقع فى مـــكان منخفض اذا ما صح ظنى) ٠

وكما يبدو لى أن مستر جرينوود يعتبر المؤسس الأول لجمعية تجارة الجملة ومناصرها وقد وقف معها مساندا ومناصرا لسنوات طويلة أطول من أى شخص آخر يدعى انه منشؤها ، وظلت تختمر فى ذهنه منذ طرحت الفـكرة للمناقشة رسميا أول مرة فى روتشديل وفى لندن (عام ١٨٥٠)

وظلت ماثلة فى تصوره طوال السنوات التالية من تجـــربتها التى سبقت تأسيس الجمعية نهائيا ، ولم يكتف بأن يجعل الفـكرة ماثلة فى ذهنـــه بل بثها فى اذهان الآخرين ، وكانت حساباته دائما تثبت انها مشروع ممكن التحقيق ، وكان بيانه عن طريقة امكانية تنفيذ الفـكرة اول طريقة صيغت فى شكل كامل وعملى ، وينبغى أن نضم أيضا جيمس سميثز ، وليم كوبر ، لويد جونز ، جورج بوث ، و٠ ماركروفت ، مستر آشورث ، تشارلز هوارث ، توماس تشبتهام ، مستر ادواردز ، مستر سكوت ، وليم ناتول ، ثم جيمس كرابترى ، ٠أ هوارد ، ج٠ ت٠ و٠ ميتشل وغيرهم ، اذ ساهموا بحكمتهم وجهدهم وطاقاتهم فى بعث فـكرة المشروع وتطويرها ، ولاشك أن جميـــع قادة المفـكرين فى حانوت روتشديل قد أسهموا فى مساندة المشروع العظيم بالتخطيط والاقتراح والتأييد ٠

ولو استطيع تجميع قائمة بأسماء جميع الأشخاص الذين أيدوا جمعية الجملة لفعلت ، وقد ظل مستر فيلد عضوا فى اللجنة مدة ثلاث او اربع سنوات واعتبر من احسن الأعضاء وخدم مستر جـــون هيلتون أربع أو خمس سنوات ، وكان مستر ماركروفت فى اللجنة كما رأينا ، اما مســتر تشارلز هوارث فقد ترك اللجنة لأنه كان يتاجر فى الصودا التى هى سلعة كانت تشتريها الوكالة ، وشارك مستر ادواردز فى مسئولية خدمة تجارة الجملة أربع أو خمس سنوات ، وظهرت فى اللجنة اسماء يعرفها القارىء التعاونى لأنها أسماء بارزة لصفوة ممن ساندوا وكالة الجملة ، وتولى مستر ميتشل ، من رتشديل ومستر جيمس كرابترى ، من هوكموندويك (الذى كان يملؤه الفخر والثقة فى التعاون) رئاسة جمعية الجملة ٠

الفصل الحادي والعشرون

الادارة التعاونيـــة

CO-OPERATIVE ADMINISTRATION

تقدم لنا التقاويم السنوية لحانوت الرواد صورة غريبة لتقدم هذا الحانوت والتقلبات التى مر بها وطبيعة ذهن الرائد التعاونى ، وهى تقاويم تستحق أن تحفظ وتجلد لتكون مرجعا ٠ ويحتوى تقويم ١٨٥٤ بيانا كاملا عن « أغراض وقواعد » الجمعية السارية فى السنة العاشرة لها ، وقد وردت بوضوح وايجاز ، وليس الوضوح دائما موجزا ، كما أن ليس كل الايجاز واضحا ، لكن ما جاء فى التقديم يجمع بين الصفتين ٠

وتنص قواعد الجمعية على أن الشخص المرشح لعضوية الجمعية اذا طرحت مؤهلاته واخلاقه للمناقشة ولم تكن مقبولة يرد له رسم الانضمام وقدره شلن واحد ، وتدرس الجمعية فى سماحة ودقة مزايا العضو ومثاليته، وربما يتصور المرء أن الشخص الذى لا يعترف الناس بفضائله أو أن فضائله غير ظاهرة قد يدفع بسرور شلنا حتى تدرسها هذه الجمعية الكريمة كى يتبين موقفه ومركزه بين أقرانه ، ويجب على كل عضو أن يشترى خمسة أسهم قيمة كل سهم جنيه واحد ، وطالما ظلت كثير من الجمعيات لسنوات طويلة تعانى وهى فى حالة من العجز خاوية الوفاض من المال وضعيفة الجوارح لأن أعضاؤها الخاوية عقولهم قتلوها جوعا بتراخيهم فى الاسهام بجنيه واحد لكل منهم ، وأصيبت جمعيات كثيرة بهزال لانها افتقدت غذاء رأس المال الذى كان يمكن أن تزودها به تلك القاعدة الحكيمة التى تلزم العضو بالاكتتاب بخمسة جنيهات(١) ٠

وفيما يلى بعض قواعد جمعية روتشديل :

٢ - كل من يرغب الانضمام الى عضوية هذه الجمعية يجب أن يرشحه ويؤيده عضوان فاذا وافقت عليه فى الجمعية العمومية التالية أغلبية الحاضرين يسمح له بالانضمام الى العضوية ، وإذا لم يحضر الشخص المرشح

(١) يجب أن يسهم كل عضو بمبلغ ٨ جنيهات فى رأسمال الجمعية حتى يمكن أن تسير سيرا حسنا ، وامتناع الأعضاء عن المساهمة بهذا المبلغ معناه انهم لا يفهمون مصلحتهم ويتوقعون أن يحصدوا مالم يزرعوا
expect to reap where they do not sow

فى خلال شهرين فانه يفقد المبلغ الذى دفعه عند الترشيح ولا يسمح له بالعضوية الا بترشيح جديد ، وعلى كل شخص ليلة انضمامه أن يحضر شخصيا فى قاعة الاجتماع ويعرب عن استعداده لشراء خمسة أسهم قيمة الواحد منها جنيه ، وعن اتباعه للوائح الجمعية ، وأن يدفع مبلغا لا يقل عن شلن واحد ٠

٣ ـ يكتتب كل عضو فى خمسة أسهم من رأسمال الجمعية ولا يجاوز اكتتابه ٥٠ سهما ٠

٤ ـ يتكون رأس المال من أسهم قيمة كل سهم جنيه واحد ٠

٥ ـ يجب أن يسدد كل عضو مالا يقل عن ثلاث بنسات أسبوعيا أو ثلاث شلنات وثلاث بنسات كل ربع سنة حتى يكون له ٥ أسهم فى رأسمال الجمعية ، وكل عضو يهمل السداد كما تقدم الا بسبب المرض أو الأزمة أو التعطل يغرم ثلاثة بنسات ٠

٦ ـ يجب أن يظل جنيهان من استثمار كل عضو كرأسمال دائم أو ثابت ٠

٧ ـ يجوز سحب ثلاثة جنيهات بحسب ما يراه مجلس الادارة ٠

٨ ـ يجوز للأعضاء أن يسحبوا أى مبلغ مستحق لهم يزيد على الخمسة جنيهات بشرط الاخطار كالآتى : جنيه وخمسة شلنات عند تقديم طلب لمجلس الادارة ، من جنيه وخمسة شلنات الى جنيهين وعشرة شلنات باخطار أسبوعين ، والمبالغ الأكبر من ذلك باخطار أطول ، ومن أربعين جنيها الى خمسة واربعين جنيها باخطار ١٢ شهرا ٠

١٦ـ تعتبر الاجتماعات التى تعقد فى يوم الاثنين الأول من يناير وأبريل ويوليو وأكتوبر الاجتماعات ربع السنوية للجمعية ، وفيها يدلى المسئولون بتقاريرهم ربع السنوية ، وفيها يذكر مقدار الأموال الموجودة وقيمة الأصول المملوكة للجمعية ٠

٢٣ـ (١) لا يجوز لأصحاب المناصب فى الجمعية أن يبيعوا أو يشتروا أى سلعة فى أية حالة وتحت أى مبرر الا بالنقد الحاضر ، وكل من

---

(١) يغفل التقويم القواعد أرقام ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ وغيرها ويذكر القواعد التى تهم القارىء الخارجى ٠

يخالف ذلك يدفع غرامة قدرها ١٠ شلنات ويفقد صلاحية تولى واجبـــات هذا المنصب ٠

٣٢- توزع الارباح التى تحققها الجمعية كالآتى : تدفع فائدة بواقع ٥٪ سنويا عن الأسهم المدفوعة قيمتها قبل بدء ربع السنة ، ويوزع الباقى على الأعضاء بنسبة مشترياتهم من الحانوت أثناء الربع سنة ٠

وهذه القاعدة الأخيرة هى التى ادخلت فى انجلترا وفى كل معاملات المتاجر السياسة الجديدة القاضية بتوزيع الأرباح بحسب المشتريات ٠

ويحتوى تقويم عام ١٨٥٤ بيانات اقتصادية لم يظهر مثلها من قبل فى بريطانيا العظمى (ويصعب العثور على مثلها فى اى مكان آخر عام ١٨٧٧) منها أن قاعة الأنباء news-room ، وكانت قاعة ممتلئة فى تلك الأيام ، قد توافرت بها كل الصحف اليومية والأسبوعية والفصلية وانها تفتح من الساعة التاسعة صباحا حتى التاسعة ليلا والاشتراك فيها بنسان أسبوعيا وكانت القاعة وما تزال تفتح أيام الأحاد ككل أيام الأسبوع ، وتقدم ٢٥٢٠ ساعة قراءة فى المتوسط مقابل بنسين أو ٦٠٠ ساعة مقابل نصف بنس بما فيها الإضاءة والتدفئة ، **ويعتبر الاعلام التعاونى اقل انواع الاعلام تكلفة بالنسبة للطبقات العاملة إذا راعينا فيه انه يقدم للعمـــال فى أيام وساعات مناسبة ، وهو أيضا أعلاها جودة لأنه ذو جانبين ولا يحظى بمثله السادة الذين تخضـــع قاعات أنبائهم ومكتباتهم لرقابة مكتبيـــة ، فمسئولى هذه المـكتبات يفرضون - على أقل تقدير وبأقصى درجات حسن النية - على الأعضاء الذين يغشونهـا نوعا من المعـــرفة حيث أن هؤلاء لا يرون من « حسن الذوق » معارضة هذه الرقابة ولا تواتيهم الجراة على طلب « الكتب الممنوعة » وليس فى اسكتلندا كلها مكتبة عامـة ولا قاعة أنباء عامة فى مدينة أو كلية أو أحد النوادى بها كتب أو دوريات تعالج كلا جانبى السياسة أو الالهيات ، ولن يستطيع التعاونيون أن يكسبوا لانفسهم حالة أكثر حرية ورجولة كما هم عليها الآن حين يشـــترون بأموالهم هم الـكتب التى تروق لهم وينشئون بأنفسهم مكتباتهم وقاعات أنبائهم التى يتولى أعضاؤها ادارتها بأنفسهم ورعاية شئونها ، حينئذ لا يدينون لأحد بشىء فلا يخافون أحدا ولا يعانون أى رقابة فـكرية من أحد ٠**

وأنبل ملامح الرواد أنهم لم يرتدوا للوراء بل ساروا دائما للأمام ، ويقول التقويم السنوى وهو البيان السنوى للجمعية : « **غرض هذه الجمعية تحقيق التقدم الاجتماعى والفكرى لأعضائها ، وهى تزودهم بالبقالة واللحوم والأقمشة والملابس والأحذية وعندها عمال متخصصون يؤدون الأعمال التى يريدها الأعضاء وينفذون كل الاصلاحات وتوزع الأرباح كل ربع سنة ، فيوزع أولا فائدة على الأسهم المدفوعة القيمة بواقع ٥٪ فى السنة ، ثم يقتطع ٢½٪ من صافى الربح ويخصص للشئون الثقافية ويوزع ما بقى على الأعضاء بنسبة مشترياتهم وانفاقهم فى الجمعية ، ووفاء بحاجات الأعضاء الثقافية وضمانا لتقدمها أنشأت الجمعية مكتبة بها (عام ١٨٧٧) أكثر من ٣٠٠٠ مجلد ، وتفتح أمام جميع اعضاء ٠**

ويجدر بنا أن نلاحظ أن غرض الجمعية هو « تحقيق التقدم الاجتماعى والفكرى للأعضاء » الى جانب ترقية أحوالهم المعيشية الدنيوية ٠٠٠ فعبارة التقدم «الاجتماعى والفكرى»social and intellectual improvement عبارة جامعة وضعها مستر أبرام هوارد أو عمل على الاحتفاظ بها ٠

ولم تلبث المكتبة أن نمت حتى أصبح عدد مجلداتها ٣٠٠٠ مجلد ، وزاد عدد الصحف والدوريات وتعلموا كيف يخفضون تكلفة القراءة الى أقل من بنسين لكل ٢٠٠٠ ساعة فأصبحت الآن « مجانا » بما فيها المكتبة ، **ويعلن تقويم عام ١٨٦١ ان المكتبة زودت أيضا بالخرائط والكرات الأرضية والميكروسكوبات والتلسكوبات حتى يشاهد التعاونيون الأشياء كلها كبيرها وصغيرها وقريبها وبعيدها ، ويعتقد السادة فى روتشديل مثل هذه المؤسسة فلا يجدون شبيها لها فى خدمتهم ٠**

ويرجع الفضل كله الى تلك القاعدة الذهبية فى تقسيم الأرباح التى خصصت ٢½٪ من صافى الربح للأغراض الثقافية مما نهض بجمعية روتشديل وجعلتها تسمو فوق كافة الجمعيات الأخرى التى اتخذت منها مثالا حكيما ذا قيمة ثمينة ، واكسبتها أصدقاء كثيرين وشهرة واسعة ، وجنبتها أن يغلب عليها الحمقى أو الجهلاء من الأعضاء الذين كان حريا بهم أن يدمروا هذا الجانب الثقافى بدعوى أن الفكر لا يجدى ماداموا هم أنفسهم لا فكر لهم ولا يدرون له معنى ، فيظنون أن الربح يكفى

بلا معرفة ولا يفقهون أن لا ربح يتحقق بغير معرفة لا فى المتاجر التعاونية ولا فى أى مكان آخر ·

وعندما بدأت المجاعة القطنية تنشب أنيابها جاء التعاونيون الواثقون بعيدو النظر بتقويمهم الذهبى فى تلك السنة العجفاء ، وأرسل لى مستر سميثز ومستر كوبر كلاهما نسخا منه فى فخر واعتزاز ، وكان مطبوعا بالذهب على أرضية زرقاء وجاء فيه : « اتخذ القسم الثقافى مقرا مركزيا له فى مستودع الجملة فى رقم ٨ تود لين » ويقول التقويم ان عدد مجلدات المكتبة ازداد الى ٥٠٠٠ مجلد وأضيفت اليها مكتبة مراجع تحتوى مؤلفات قيمة ، وأن قاعة الابناء أصبح بها ١٤ صحيفة يومية و٣٢ مجلة أسبوعية وشهرية وفصلية من جميع الأنواع تمثل كافة الآراء السياسية والدينية ، فقد قاوم التعاونيون بحكمة كل ميل يجعل منهم رجالا بنصف ذهن ، ولم يقلدوا هؤلاء الخائفين الذين يرهبون معرفة الرأى الآخر أو الجانب الثانى من الأمور ، ويظلون يدورون حول الحقيقة ولا يجرأون أبدا على النظر اليها وجها لوجه حتى أنهم حين يواجهونها لا يدركون حقيقتها ، ويوجد الآن فى المكتبة نظارات الأوبرا والاستريوسكوب والميكروسكوب والتلسكوب ويستطيع الأعضاء تأجيرها وأخذها معهم مقابل رسم ضئيل ، وكانت حرب الرقيق عندئذ دائرة الرحى ولو جاء أحد وكلاء مالكى الرقيق لوجد لدى التعاونيين تلسكوبات ترصد حركة قدومه وأجهزة ميكروسكوبية جاهزة لتفحصه عندما يصل ·

When the cotton famine began to gnash its lean jaws in 1862, the forecasting and confident co-operators came out—in that penurious year above all others—with their golden Almanac. Mr. Smithies and Mr. Cooper both sent me copies with pride. It was printed in gold on a blue ground. It mentioned a "Wholesal warehouse at 8 Toad Lane, and, for the first time, gave a central compartment to the educational department." It recounted that the library had grown to 5,000 volumes, that a reference library of most valuable works had been added, that the news-room contained fourteen daily papers, thirty-two weeklies, and monthlies and quarterlies of all kinds, representing all opinions in politics and religion. The co-operators wisely set themselves against being made into half-minded men. They would not imitate those timid creatures who are afraid to know the other

side of the question, and go squinting at truth all their days, never looking it square in the face, so that when they meet it right plain in their way they do not know it. Opera glasses, atlases, and stereoscopes are now provided for the use of members, and for a small fee they can take them away, as well as microscopes and telescopes. The slave war was then waging, and if a slave-owner's agent came their way, as many of them did, the co-operators had telescopes to discern his approach, and microscopic instruments ready to examine him when he arrived.

وكانت الأحوال فى لانكاشير تكتسب مظهر الفوضى بوجه عام ومستقبل العامل يبدو سيئا ويحتمل أن يزداد سوء ، وقال التقويم كل ذلك وقدم نصيحة غالية للتعاونيين :

١ ـ أنفق ما تكسبه على الضروريات القصوى وتجنب كل ما سواها ٠

٢ ـ اسحب من مدخراتك المتراكمة بحذر ٠

٣ ـ استفد ما أمكنك من الوقت المتوافر لك لتحسين ثقافتك وستجد الوسيلة لذلك فى مكتبتنا وقاعة أنبائنا ٠

٤ ـ أضف الى شرف حركتنا بأن تنتظر فى صبر الأوقات السعيدة التى ستأتى بالتأكيد فى يوم ما ٠

وانتظروا بالفعل ولم يستطع أى مثير للخواطر ولا مهيج أن يدفع بالتعاونيين لينضموا اليه فى أى اضطراب للضغط على الحكومة للتدخل الى جانب الجنوب حتى يأتى القطن الى لانكاشير ويوركشاير ، وكان حريا بأسبوع واحد من الاضطرابات أن يقلب الموازين ضد الرقيق ، وهكذا نظرت الأمة باعجاب وفخر الى العمال الانجليز فى صمتهم الكريم الوقور الصبور ، وكانت النصيحة التى ذكرتها آنفا موجهة الى « تعاونى روتشديل والأمة » ، وكانت تلك المرة الأولى التى استخدموا فيها نفوذهم الذى اكتسبوه بحق ليتحدثوا بهذه الطريقة الى العالم الخارجى ٠

وأنشئت جمعية لرعاية المرضى ودفن الموتى قبل عام ١٨٦٠ ، ولم يسمح بالانضمام لهذه الجمعية الا لأعضاء جمعية رواد روتشديل العدول ، لكن يجوز للأعضاء المنسحبين من جمعية الرواد أن يظلوا أعضاء فى

جمعية رعاية المرضى ودفن الموتى التى يتفاوت الاسهام فيها بيفاوت السن وبموجب جداول محسوبة ، وتميز الرواد دائما بتشجيع البعد عن المسكرات ولذا كانوا يعقدون الاجتماعات فى قاعة مجلس الادارة بدلا من عقـــدها فى الأماكن العامة ليمنعوا الأعضاء من غشيان الحانات التى يدفعهم التردد عليها الى أن يصبحوا من المحتاجين الى « خدمات » جمعية رعاية المرضى بعد وقت قصير ، ورأى مؤسسو الجمعية أن خير الأعضـــاء أبعدهم عن الشراب ، ويقول تقويم ١٨٦٢ : « ليس الاجتماع فى الأماكن العامة مناسبا ولا متفقا مع أهداف جمعية لرعاية المرضى ودفن الموتى ــ لأن انفتاح الشهية للشراب يجـــلب المرض والموت قبـــل الأوان » ، ورأى الرواد أن تـكون تصرفاتهم « مناسبة ولائقة بجمعية تهتم بمنع المرض والدفن أما التردد على الحانات فلا يناسب ولا يليـــق الا بجمعية تريد زيادة المرض والدفـن ، والاعتدال فى الشراب معقول ومنطقى أما الانغماس فيه فحمق » ٠

ومن الملامح الأخرى لمنظمة الرواد إنشائهم جمعية للاسكان ، والملاحظ أن التقدم والتحسين فى انجلترا ينبتان فى أحضان الشـــكوى والمظالم ، ونادرا ما يكونا ثمرة التعقل ، وحتى لو اكتشف العقل طريقا جديدا فان هذا الطريق يظل مقفرا غير مطروق حتى يجد جديد من المضايقات يدفـع الناس دفعا لسلوكه ، وبدأت جمعية الأراضى والاسكان بهـــذه الطريقة ، ويحكى أحد مؤسسيها أن أحد السادة من أصحاب الحوانيت كان يمتلك مساكن يسكن فى بعضها أعضاء « الجمعيات التعاونية » الذين اعتادوا الحصول على أرباح من جمعياتهم ، وفى ساعة من الطيش أعلن هذا السيد أنهم « لا يصح أن يحصلوا على كل الأرباح لأنفسهم وله أن يأخذ بعضها عن طريق زيادة الايجار ٣ سنتات فى الأسبوع » ، **وإذا كان من مظاهر الضعف أن تنتظر حادثا يثيرك قبل أن تصنع شيئا معقولا ، فلاشك أنه جانب حسن أيضا لأنه يدفعك الى اتخاذ الخطوات التى تجعل تكرار هذه الاثارة والغضب غير وارد مستقبلا ، وهذا ما فعله الرواد ، فأنشأوا جمعية وبدأوا يشترون الاراضى ويقيمون بيوتا لأنفسهم** ، وتسمح لهم لوائحهم ببناء وشراء وبيع المنزل والورش والمطاحن والمصانع أو شراء وتأجير الأراض التى تقام عليها هذه المبانى ، واقترحوا أن يكون رأس المال ٢٥٠٠٠ جنيه من أسهم ، قيمة السهم منها جنيه واحد ، وأقاموا ٣٦ كوخا قبل عام ١٨٦٧ ملأت كل مساحة الأرض التى لديهم ، وكانت هذه المنشآت تمثل تحسينا فى طراز الأكواخ التى

كانت تبنى فى ذلك الوقت ، وقد أقاموا فيما بعـــد مدينـــــة تعاونيـــة Cooperative town

وقالت صحيفة أيريش تايمز Irish Times عام ١٨٦٨ فى افتتاحية بقلم رئيس تحريرها : « أمامنا تقويم لعـــام ١٨٦٨ أصـــدرته جمعية رواد روتشديل العدول لأعضائها ، وفى التقويم منظرا للحانوت المركزى الجديد وهو مبنى من الحجر ارتفاعه ٧٠ قدما ويشبه بعض الشبه المبنى الفخم التابع لبنك هيبرنيان Hibernian Bank فى كولدج جرين College Green وكلف هذا المبنى رواد روتشديل ١٧٠٠٠ جنيه ، ويمكن تكوين فكرة عن الآثار المدهشة للنظام التعاونى من بعض الحقائق التى يعلنها أعضاء مجلس الإدارة وكلهم من الطبقة العاملة فى بيان منشور بالتقويم » .

وبعد أن أورد المحـــرر بيانات حركة الأعمـــال والأرباح فى الجمعية استطرد قائلا :« **يلاحظ أن رأس المال كبير ويـــزداد بسرعة حتى أن مجلس الإدارة ينفق الآن ١٠ر٠٠٠ جنيه كبداية على إقامة طراز جيد من الأكواخ للحرفيين واشترى المجلس اقطاعية صغيرة فى مقاطعة روتشديل يجرى تجهيزها للبناء عليها فورا ، وتفوق نوعية وجودة بناء البيوت كثيرا مستوى المساكن التى أقيمت فى روتشديل من قبل للطبقات العاملة والسابقة على عصر الرواد » باستثناء المنازل التى أقامها مستر برايت لعماله وكانت جميلة المنظر ذات نوافذ واسعة عريضة وتصميم صحى .**

واهتدى التعاونيون الأوائل فى روتشديل فى أبنيتهم بما كان يسمى « الاتجاه النفعى المجرد من الزينة the bare-bone utilitarian view وهو نفس الاتجاه الذى اتبعه أبرام كومب فى أوربستون ، واكتفوا فى بناء حانوتهم بأن يكون مؤديا للغرض خاليا من الزخارف وبسيط التصميم ، وتضمنت محاضر جلساتهم قرارا أصدروه مبكرا ينص على « ألا ينفقوا شيئا على الزخرفة not to spend a farthing on finery » وقد كان فى حينه قرارا حكيما إذ لم يكن لديهم شيئا يفيض عن حاجتهم يمكن انفاقه على هذا الغرض ، ويضاف الى ذلك أن الذوق الفنى كان لا يكاد يعرف بين الطبقات العاملة فى تلك الأيام التى اعتقدت أن الذوق الرفيع من كماليات الأغنياء وحدهم ، ولم يعلموا أن الأغنياء كثيرا ما كانوا هابطين ذوقيا ،

وأن الرقى الذوقى من ملكات العقل لا من خواص المال ، وهو مشاع بين الناس غنيهم وفقيرهم ، ولم يدركوا أن التجرد من الجمال والجهامة والبعد عن الزخرفة أكثر تكلفة من الذوق البسيط والجمال غير الفاقع ، ويلاحظ أن مخازنهم الرئيسية وحوانيتهم الفرعية هى الآن جيدة البناء متينة لكن لو خطرت للمهندسين المعماريين بينهم تلك الفكرة لاستطاعوا أن يقيموا تلك المبانى بشكل أكثر بهجة ورشاقه وبتكاليف أقل ، ولاشك أن مصلحة المجتمع أن تقام بعض المبانى الجميلة هنا وهناك لتكون ماثلة أمام الجماهير « تشجيعا للآخرين » كما قال فولتير **Voltaire** للأميرال بينج **Admiral Byng**

وهكذا أوحى تقويم واحد هو تقويم عام ١٨٦٨ للمحرر الأيرلندى بكل هذه الملاحظات التى نقلناها آنفا ، وكثيرا مما كتب عن روتشديل دفعت إليه قراءة بالصدفة لأحد هذه التقاويم التى لا تلبث أن تستحوذ على اهتمام القارىء لما يجد فيها من معلومات غير متوقعة ، لقد كان التقويم هو البيان السنوى للجمعية والمنشور التاريخى الوحيد لها .

قلنا فى الجزء الأول من هذا التاريخ والذى نشر منذ عشرين عاما أن القرض **loan** الذى طلبته الجمعية من مستر كوتنجهام **Coninghan** ، وكان حينئذ عضو البرلمان عن برايتون ، لم يعقد لأن ضمانات الجمعية كان لابد أن تعرض على محامى مستر كوتنجهام ليفحصها « ورفض مجلس الإدارة أن تكون له علاقة ما بأى من المحامين » ، ولاشك أن عدم الثقة بالمحامين كانت من معتقدات المجلس لكنه لم يكن السبب الحقيقى فى توقف مشروع القرض ، وقد لا يكون الأمر مهما الآن لكننى لا أريد أن أترك شيئا قد تدل المعلومات اللاحقة على أنه كان غير صحيح ، وأرسل لى مستر كوتنجهام الخطاب التالى الذى تلقاه حينئذ وهو يصحح الأوضاع :

١٣ جورج ستريت روتشديل
١٤ أكتوبر ١٨٥١

سيدى – طلب منى أعضاء « جمعية مطحن القمح بناحية روتشديل » أن أعرب عن شكرهم على ما عرضتموه ، وعلى رغبتكم الأكيدة للنزول عند رغبتهم فيما يتعلق بالقرض الذى مقداره ٥٠٠ جنيه .

وسترون من الخطاب المرفق الذى تلقيناه من محاميكم السيد / ادوارد تيلر ، اننا مهما كانت رغبتنا فإننا لا نستطيع ان نقدم ممتلكات جمعيتنا كضمانة للقرض ، ويأسف الأعضاء لذلك لأنه يمنعهم من الحصول على المساعدة التى يحتاجون إليها اشد الحاجة فى هذا الوقت ، غير أن الأعضاء يرون أنه فضل عظيم منكم لو استطعتم إقراضها ٢٠٠ جنيه بضمان حسن سمعتها على أن يسدد المبلغ على اقساط ربع سنوية قيمتها ٥٠ جنيها وهكذا يسدد القرض فى ١٢ شهرا ، مع احترامنا ٠

ابراهام جرينوود

الى السيد / و٠ كوتنجهام المحترم

وعندما تولى ابراهام لينكولن رئاسة أمريكا أسقط الناس من اسمه حرفى « ها » وسموه « ابرام اختصارا ، ونظرا لأن مستر جرينوود تولى مرارا منصب رئيس مشروع تجارة الجملة وغيره من المشروعات التعاونية فقد سمى ايضا « ابرام » ، وكان هذا الخطاب الذى يحمل تاشيرة مستر كوتنجهام (أرسلت الأصل الى المطبعة) والذى كتب منذ ٢٦ عاما هو الذى مكننى من اثبات الدليل التاريخى على أن اسم مستر جرينوود الحقيقى هو الأسم العبرى الأبوى القديم ذو الرنين والمقاطع الثلاثة اى ابراهام وهو الأسم الذى يحظى باقصى تشريف فى لانكاشير بعد « العراق » ٠

وأشرت فى الجزء الأول من هذا التاريخ الى الاشتراكيين المسيحيين ، والأساتذة والمحامين ورجال الكهنوت وغيرهم ممن ينتمون لعضوية هذا الحزب ، ويجب الأعتـراف الآن بمدى ما تدين به الحركة من الحمـاس والولاء المسبغ عليها من هؤلاء باستمرار طوال العشرين عاما التالية ٠ وقد وردت الإشارة الى ذلك فى مواطن كثيرة من هذا التاريخ وغيره ٠

وعندما عين مستر آشورث فى جمعية الجملة بما نشستر ، صار مستر بريرلى Brierley ، من جمعية بريكفيلد ، مديرا ، وبدأ عمله والجمعية فى أوجها ، وتغيرت السياسة المحلية واتبعت أفكار جديدة لزيادة الربح بالبحث عن أسواق أكثر رخصا مع المخاطرة بهبوط الجودة ٠

وادخل تعديل على القواعد يقضى بدفع الفائدة بواقع ٥٪ على رأس المال المستثمر طبقا لنسبة معينة محددة من قيمة مشتريات العضو ربع السنوية من المؤن او البضائع المعروضة فى الحانوت ، وبناء عليه إذا استثمر العضو ٦٠ جنيها فى راسمال الحانوت وكانت مشترياته اثناء ربع السنة قيمتها جنيه واحد اسبوعيا فتصرف له فائدة عن ٨ جنيهات فقط من المبلغ المستثمر ولا يصرف له شىء عن الباقى وقدره ٤٧ جنيها ، ومن أسباب هذه القاعدة الفريدة عدم الثقة فى الرأسماليين أو الغيرة منهم ، والظاهرة العجيبة فيما يتعلق بالطبقة العاملة أن شكواهم الكبرى فى وقت من الأوقات أنهم لا يملكون رأسمال (وهى شكوى دائمة لأى شخص فى مثل هذه الحالة) ثم يبذلون وسعهم فيما بعد لاختراع قواعد للتخلص من رأس المال الذى يلزم لاقامة ورش تعاونية ، أى أنهم يتخوفون من صديقهم ، واستطاعت هذه القاعدة أن تحقق الغرض الذى وضعت من أجله ، وبدأ الأعضاء الذين لا يمكنهم أن يأكلوا بالقيمة المطلوبة أو يزيدوا مشترياتهم الى الحد المطلوب فى سحب ذلك الجزء من رأسمالهم الذى لا يقل فائدة ، والنتيجة أن كان مجموع المبالغ التى سحبت فى عامى ٦٩/١٨٧٠ نحو ١٠٠٫٠٠٠ جنيه بالإضافة الى ٣٠٫٠٠٠ جنيه مطلوب سحبها ، وقد يدهش القارىء غير التعاونى حين يجد أن أعضاء الحانوت يملكون قدرا كبيرا من المال ، **وتغلب التعقل كما يحدث دائما فى روتشديل والغيت هذه القاعدة المقلقة(١) .**

---

(١) يجدر بنا تسجيل هذه القاعدة الغريبة التى تقضى بأن ينال كل عضو من فائض الجمعية بعد سداد المصروفات فائدة لا تتجاوز ٥٪ سنويا على رأس المال المستحق له فى حسابه بدفاتر الجمعية وحسبما يعلن فى الاجتماعات ربع السنوية بشرط أن يكون قد اشترى مشتريات طبقا لما يلى :

جنيه

١ لربع السنة يمنح فائدة على ٨ جنيهات
٢ لربع السنة يمنح فائدة على ١٦ جنيها
٣ لربع السنة يمنح فائدة على ٢٤ جنيها
٤ لربع السنة يمنح فائدة على ٣٢ جنيها
٥ لربع السنة يمنح فائدة على ٤٠ جنيها
٦ لربع السنة يمنح فائدة على ٤٨ جنيها
٧ لربع السنة يمنح فائدة على ٥٦ جنيها
٨ لربع السنة يمنح فائدة على ٦٤ جنيها
٩ لربع السنة يمنح فائدة على ٧٢ جنيها
١٠ لربع السنة يمنح فائدة على ٨٠ جنيها
١١ لربع السنة يمنح فائدة على ٨٨ جنيها
١٢ لربع السنة يمنح فائدة على ١٠٠جنيها

وعادت حركة العمل الى سابقها ابتداء من يونيو ١٨٧٠ وتضاعف رأس المال أكثر من مرتين ، وتولى منصب المدير مستر جوزيف بوث ، من حانوت هايد ، وهو ابن مستر جورج بوث ، من ميدلتون ، وانشأ مستر بريرلى جمعية منافسة فى البلدة وتولى إدارتها ، لكن جمعية روتشديل واصلت تقدمها بطريقتها فى ثقة واحتمال

وحوالى سنتى ١٨٥٩ و ١٨٦٠ اهتم مستر برايت ــ كما فعل من قبل ــ اهتماما كبيرا بتقدم جمعية الرواد ، وكان يعرف العديد من العمال فى منشأته وله بهم كعاملين قدامى صلات من الصداقة تجعل الحديث معهم موصولا ، وفى أثناء تلك المحادثات كان يتطرق الكلام الى أحوال الحانوت ، **وقال لهم إن بعض أصدقائه فى العاصمة وفى أنحاء شتى من البلاد يبدون شكا فى مركز الجمعية المالى ومدى سلامته ، وأساس تلك الشكوك أن حسابات الجمعية يراجعها الأعضاء ، وأكد أنه شخصيا لا يرتاب فى الأعضاء لكنه يرى أن مما يبعث الثقة فى نفوس الآخرين الذى يمكنهم بل وهم على استعداد لمساندة الحركة أن يعهد بمراجعة حسابات الجمعية الى مراجعى حسابات معتمدين ، وناقش بعض الأعضاء البارزين هذه الفكرة ، وعندما جاء موعد تعيين مراجعى الحسابات فى ينـاير ١٨٦١ عرضـوها واقترحوا تعيين مراجعى حسابات قانونيين فلقى هذا الاقتراح الموافقة خاصة عندما علم الأعضـاء بملاحظات مستر برايت ٠**

وعين مستر فرانك هنتر من باكب **Mr. Frank Hunter, of Bacup** مراجعا للحسابات ، ولم تكن الدفاتر تمسك بالطريقة المحاسبية الصحيحة وكان على مستر هنتر أن يأتى بكل قوة موظفى مكتبه لعمل التعديلات اللازمة واتضح له أن القيود فى حسابات الأسهم كثيرة جدا بل أكثر مما كان يتوقع بمراحل وبشكل لم يعهده من قبل ويتجاوز خبراته السابقة ، وأراد أن يأخذ كل الدفاتر معه لكن لم يسمح له بذلك وعندما قدم مستر هنتر تقريره قال أنه وجد ٢٠٠ جنيه بلا أصل يرجع إليه وقال مستر كوبر أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا وأن الخطأ لن يكتشفه إلا مراجع حسابات آخر ، وذهب مستر آشورث ومدير الجمعية لمقابلة مستر هنتر كى يوضح لهما كيف وصل الى تلك النتيجة فلم يستطع فقد صحح العديد من دفاتر مساهمات الأعضاء دون أن يحتفظ بتسجيل للتصحيحات ، وبعد تعب ومشقة وبحث اتضح

أن مستر هنتر ارتكب خطأ بأن قيد فى الجانب الدائن من حساب المتاجرة ٧٠ جنيها كمبيعات بينما كان يجب قيدها فى الجانب المدين كمشتريات ، ولا يصعب إدراك أن المراجع حين يقيد ٧٠ جنيها كإيراد بينما هذا المبلغ دفعه الصراف فهذا يجعل الخطأ ١٤٠ جنيها ، لكن الواقع أن جميع المبالغ النقدية كانت مضبوطة ولا عجز فيها ، وأقر مستر هنتر بخطأه فى خطاب أرسله للجمعية ، واقتنعت الجمعية ، ومنذ ذلك الحين ظلت الجمعية راضية عن مراجعات المراجعين الذين تعينهم والذين رفعت قيمة مكافآتهم فيما بعد(١) ٠

ويدرك القارىء أن مستر برايت أسدى خدمة جزيلة للجمعية بالاقتراح الذى قدمه ، فقد كانت الشكوك تثار حول ما إذا كان التعاونيون – وهم عمال – يفهمون فى المحاسبة بما يكفى كى يصوروا قوائم مالية سليمة تظهر المركز المالى بوضوح وفى صحة ودقة ، ولاشك أن هذه القصة القصيرة عن تحقيق المركز المالى لجمعية روتشديل تشكل جزء ضروريا من تاريخها ٠

ويبين الجدول التالى التقدم الذى حققته الجمعية من عام ١٨٤٤ وفيما :

السنة	الأعضاء	رأس المال	الحركة	الأرباح شاملة الفوائد
		جنيه	جنيه	جنيه
١٨٤٤	٢٨	٢٨	–	–
١٨٤٥	٤٧	١٨١	٧١٠	٢٢
١٨٤٦	٨٠	٢٥٢	١٫١٤٦	٨٠
١٨٤٧	١١٠	٢٨٦	١٫٩٢٤	٧٢
١٨٤٨	١٤٩	٣٩٧	٢٫٢٧٦	١١٧
١٨٤٩	٣٩٠	١٫١٩٣	٦٫٦١١	٥٦١
١٨٥٠	٦٠٠	٢٫٢٨٩	١٣٫١٧٩	٨٨٠
١٨٥١	٦٣٠	٢٫٧٨٥	١٧٫٦٣٣	٩٩٠
١٨٥٢	٦٨٠	٣٫٤٧١	١٦٫٣٥٢	١٫٢٠٦
١٨٥٣	٧٢٠	٥٫٨٤٨	٢٢٫٧٠٠	١٫٦٧٤

(١) يذكر مستر هولى أوك أنه استقى الحقائق فى هذا الفصل من مستر أبرام هوارد ٠

السنة	الأعضاء	راس المال جنيه	الحركة جنيه	الأرباح شاملة الفوائد جنيه
١٨٥٤	٩٠٠	٧ر١٧٢	٣٣ر٣٧٤	١ر٧٦٣
١٨٥٥	١٤٠٠	١١ر٠٣٢	٤٤ر٩٠٢	٣ر١٠٩
١٨٥٦	١٦٠٠	١٢ر٩٢٠	٦٣ر١٩٧	٣ر٩٢١
١٨٥٧	١ر٨٥٠	١٥ر١٤٢	٧٩ر٧٨٩	٥ر٤٧٠
١٨٥٨	١ر٩٥٠	١٨ر١٦٠	٧٤ر٦٨٠	٦ر٢٨٤
١٨٥٩	٢ر٧٠٣	٢٧ر٠٦٠	١٠٤ر٠١٢	١٠ر٧٣٩
١٨٦٠	٣ر٤٥٠	٣٧ر٧١٠	١٥٢ر٠٦٣	١٥ر٩٠٦
١٨٦١	٣ر٩٠٠	٤٢ر٩٢٥	١٧٦ر٢٠٦	١٨ر٠٢٠
١٨٦٢	٣ر٥٠١	٢٨ر٤٦٥	١٤١ر٠٧٤	١٧ر٥٦٤
١٨٦٣	٤ر٠١٣	٤٩ر٩٦١	١٥٨ر٦٣٢	١٩ر٦٧١
١٨٦٤	٤ر٧٤٧	٦٢ر١٠٥	١٧٤ر٩٣٧	٢٢ر٧١٧
١٨٦٥	٥ر٣٢٦	٧٨ر٧٧٨	١٩٦ر٢٣٤	٢٥ر١٥٦
١٨٦٦	٦ر٢٤٦	٩٩ر٩٨٩	٢٤٩ر١٢٢	٣١ر٩٣١
١٨٦٧	٦ر٨٢٣	١٢٨ر٤٣٥	٢٨٤ر٩١٢	٤١ر٦١٩
١٨٦٨	٦ر٧٣١	١٢٣ر٢٣٣	٣٩٠ر٩٠٠	٣٧ر٤٥٩
١٨٦٩	٥ر٨٠٩	٩٣ر٤٢٣	٢٣٦ر٤٣٨	٢٨ر٦٤٢
١٨٧٠	٥ر٥٦٠	٨٠ر٢٩١	٢٢٣ر٠٢١	٢٥ر٢٠٠
١٨٧١	٦ر٠٢١	١٠٧ر٥٠٠	٢٤٦ر٥٢٢	٢٩ر٠٢٦
١٨٧٢	٦ر٤٤٤	١٣٢ر٩١٢	٢٦٧ر٥٧٧	٣٣ر٦٤٠
١٨٧٣	٧ر٠٢١	١٦٠ر٨٨٦	٢٨٧ر٢١٢	٣٨ر٧٤٩
١٨٧٤	٧ر٦٣٩	١٩٢ر٨١٤	٢٠٨ر٨٨٨	٤٠ر٦٧٩
١٨٧٥	٨ر٤١٥	٢٢٥ر٦٨٢	٣٠٥ر٦٥٧	٤٨ر٢١٢
١٨٧٦	٨ر٨٩٢	٢٥٤ر٠٠٠	٣٠٥ر١٩٠	٥٠ر٦٦٨
١٨٧٧	٩ر٧٢٢	٢٨٠ر٢٧٥	٣١١ر٧٥٤	٥١ر٦٤٨
١٨٧٨	١٠ر١٨٧	٢٩٢ر٣٤٤	٢٩٨ر٦٧٩	٥٢ر٦٩٤
١٨٧٩	١٠ر٤٢٧	٢٨٨ر٠٣٥	٢٧٠ر٠٧٢	٤٩ر٧٥١
١٨٨٠	١٠ر٦١٣	٢٩٢ر٥٧٠	٢٨٣ر٦٦٥	٤٨ر٥٤٥
١٨٨١	١٠ر٦٩٧	٣٠٢ر١٥١	٢٧٢ر١٤٢	٤٦ر٢٤٢
١٨٨٢	١٠ر٨٩٤	٣١٥ر٢٤٣	٢٧٤ر٦٢٧	٤٧ر٦٠٨

السنة	الأعضاء	رأس المال	الحركة	الأرباح شاملة الفوائد
		جنيــــه	جنيــــه	جنيــــه
١٨٨٣	٠٥٠ر١١	٨٧٥ر٣٢٦	٤٥٦ر٢٧٦	٥٩٩ر٥١
١٨٨٤	١٦١ر١١	٤٧٠ر٣٢٩	٢٧٠ر٢٦٢	٢٦٨ر٥٠
١٨٨٥	٠٨٤ر١١	٦٤٥ر٣٢٤	٠٧٢ر٢٥٢	٢٥٤ر٤٥
١٨٨٦	٩٨٤ر١٠	٦٧٨ر٣٢١	٠٣١ر٢٤٦	١١١ر٤٤
١٨٨٧	١٥٢ر١١	١٠٠ر٣٣٨	٧٣٦ر٢٥٦	٠٤٧ر٤٦
١٨٨٨	٢٧٨ر١١	٦٦٩ر٣٤٤	٧٢٦ر٢٦٧	١١٩ر٤٧
١٨٨٩	٣٤٢ر١١	٤٧٠ر٣٥٣	٦٨٥ر٢٧٠	٢٦٣ر٤٧
١٨٩٠	٣٥٢ر١١	٣٥٨ر٣٦٢	٥٨٣ر٢٧٠	٧٦٤ر٤٧
١٨٩١	٦٤٧ر١١	٧٩٢ر٣٧٠	٠٢٥ر٢٩٦	١٩٨ر٥٢

وقد أعد لأول مرة بيان تقدم الحانوت مرتبا فى خانات بناءا على اقتراح من مستر جيكوب هولى أوك ونشره مستر ت۰ س۰ ميل فى كتابه « مبادىء الاقتصاد السياسى » ۰

الفصل الثاني والعشرون

حركة الحوانيت الفرعية

THE BRANCH STORE AGITATION

ما لبثت الجمعية أن أصبحت تمتلك ١٤ حانوتا فرعيا أو أكثر وعددا من قاعات الأنباء أى قاعات قراءة الصحف بقرب من هذا العدد ، لكن كيف أنشئت هذه الفروع ؟ هل نشأت كجيل تلقائى أى طفرة أم ارتقاء أم تطورا على طريقة الارتقاء والتطور المعروفة فى الأنواع وجاء كل ذلك طبيعيا وفى صمت ، أم كان نتيجة مناقشات وتحرك كالمخاض الذى يؤدى فى النهاية الى مولود جديد ؟ ... سيحكم القارىء بنفسه على ضوء الحقائق التالية :

فى عام ١٨٥٦ زادت إيرادات الحانوتين الرئيسيين الى ١٠٠٠ جنيه فى الأسبوع وأخذ الأعضاء يتكلمون عن فتح حوانيت فى أماكن أخرى من البلدة تكون قريبة من محال أقامتهم .

فقد كان عدد كبير من الأعضاء يقيمون على مبعدة من الحانوت وطالما تحملوا الجهد والتعب فى حمل مشترياتهم الأسبوعية من تودلين وصبروا على المتاعب لأنه ليس اقتصاديا افتتاح حوانيت أخرى ، لكن الحانوت أصبح يمتلىء الآن كل مساء بالمشترين بينما لا يكاد يكفى النهار لكى ينهى العاملون فى الحانوت الاستعدادات للإقبال المسائى .

ودارت المناقشات حول اختيار موقع فى البلدة لأول فرع ينبغى إقامته وما لبث الأمر أن حسم ، فقد قدم الأعضاء المقيمين فى جانب البلدة المسمى كاسلتون Castleton مذكرة وقع عليها جمع غفير منهم الى الاجتماع ربع السنوى المنعقد فى يونيو ١٨٥٦ وتقرر قبول التماسهم فقد حضروا الاجتماع بقوة وتصميم على تأييد هذا المطلب والتصويت فى صفه ، وقد تكرر ذلك بالنسبة لكل الفروع الأخرى تقريبا وهو ملمح هام يدل على ما تتسم به مؤسستنا من الديمقراطية .

واستأجرت الجمعية دكانا فى أولدهام روود فتحت فيه فرعها رقم ١ لبيع أصناف البقالة يوم ٧ أكتوبر من نفس العام ، ولم يمضى وقت طويل حتى زادت حركة الدكان الجديد بما لا يمكن له استيعابها ، ورؤى وجوب اتخاذ خطوات مماثلة فى نفس الاتجاه .

وكان فى حى كاسلتون جمعية تكونت فى الأيام المبكرة لجمعية الرواد واسمها « جمعية كاسلتون التعاونية » وكانت حركتها ضئيلة واعتقد أن مفوضى ضريبة الدخل حسبوا عليها عام ١٨٥٥ ضريبة على ربح قدره ٤٥ جنيها وارغموها على السداد ٠

وهددت شعبية الجمعية الأكبر بابتلاع هذه الجمعية الصغيرة ، ولما بدأت حركة المطالبة بافتتاح الفروع بدأت معها حركة للمطالبة بالاندماج وهكذا آلت جمعية كاسلتون بحركتها ومقرها الى جمعية الرواد وفتح الحانوت يوم ٧ مارس ١٨٥٧ كفرع رقم ٢ لها وعرف بأسم فرع سكول لين School Lane وما يزال هذا الفرع محتفظا بأسمه برغم انه أقيم له مبنى جديد فى شارع يبعد كثيرا عن المقر الأصلى ٠

وضربت فكرة الفروع بجذورها القوية سريعا حتى أنشىء فرعان جديدان على مدى الأســابيع القلائل التاليــة : الفرع رقم ٣ فى ويتورث رود Whitworth Road على مسافة من حانوت تود لين تقطع سيرا على الأقدام فى نحو ١٠ دقائق وهو أول فرع من هذا الجانب من البلدة ، الفرع رقم ٤ فى موقع آخر من حى كاسلتون ٠

وفتح هذا الفرع الأخير فى ٢ يونيو ١٨٥٧ لكن لم تتخذ خطوات أخرى فى هذا السبيل حتى أول عام ١٨٥٩ ، واستطاعت الفروع الأربعة تخفيف الضغط على الحانوت الرئيسى إلا أن ازدياد العضوية المستمر ونمو الحركة استلزما القيام بإجراءات أخرى لتخفيف الضغط ٠

وكانت ناحية كاسلتون من البلدة مخدومة جيدا بالفروع الجديدة أما الناحية التى بها الحانوت الرئيسى فلم يفتح فيها سوى فرع واحد ولذا تقرر التوسع فى اتجاه حى سبوتلاند ، وبعد معارضة قوية وصعوبات فى العثور على حانوت مناسب افتتح الفرع رقم ٥ فى سبوتلاند والمسمى فرع سبوتلاند بريدج Spotland Bridge وبدأ العمل فى ١٧ فبراير ١٨٥٩ ٠

وبدأت المطالبة فورا بإنشاء فرع فى بامفورد Bamford ، وكانت تلك حركة تدور على مبدأ جديد هو أن يفتح الرواد حوانيت فى مناطق الجمعيات الأخرى ٠

ففى قرية تقع على مسافة قصيرة من بامفورد كانت جمعية صغيرة فى الأيام الأولى للحركة الجديدة وقد مضى عليها سنين طويلة عنـدما قدم الالتماس بفتح فرع فى بامفورد ووقع على الالتماس عدد كبير من أعضاء جمعية هولى بريدج Hooley Bridge ، وعارضه عدد كبير منهم فقد رأوا ان افتتاح الرواد لفرع هناك معناه ضربة موت قاضية لجمعيتهم ، واحتج مقدمو الالتماس بمبدأ الحكومة الذاتية بينما قال المعارضون فى البلدة أن من الخطأ تحميل جمعية الرواد تكلفة نقل البضائع الى مثل هذا الفرع البعيد بينما يضطر أعضاء الجمعية المقيمين فى جهات أخرى بعيدة عن الفروع الى حمل مشترياتهم كل هذه المسافات كما أنه من الخطأ فتح فرع بالقرب من جمعية أخرى مجـاورة يمكن لمقدمى الالتماس الشراء منها بل ويمكنهم المشاركة فى إدارتها أكثر مما هو متاح لهم فى جمعية روتشديل ٠

لكن مقدمى الالتماس نجحوا فى مسعاهم وتقرر فى الاجتماع الربع سنوى المنعقد فى أبريل ١٨٥٩ فتح حانوت فى بامفورد ، وقد قوبل هذا القرار بتصفيق حاد من مؤيدى الالتماس ٠

ويبدو أن أحدا لم يفكر فى خطورة هذا المثال من التداخل والتراكب الذى أدى الى كثير من الشرور منذ ذلك الحين ، فاقامة حانوت تعاونى أفضل من فتح فرع ، لأن الحانوت يطور الطاقة المحلية والثقافة التجارية وقيام اتحاد من المتاجر حول مركز لتجارة الجملة يفضل الفروع ٠

لقد أفضت فى الظروف التى أحاطت بافتتاح الفرع رقم ٦ أى فرع بامفورد (بتاريخ ٢٦ مايو ١٨٥٩) لأنه أرسى مبدأ إمكان أن تنشر الجمعية فروعها فى مواقع فيما وراء حدود البلدة حيث يقيم أعضاؤها فى أحياء يمكن أن تضمن حجم حركة عمل أسبوعية معينة بحيث تعطى لعامل الحانوت فرصة عمل كامل ٠

وفيما يلى بيان تواريخ فتح الفروع الست عشرة التابعة للجمعية :

أولد هام روود	رقم ١	فى عام ١٨٥٦
فرع سـكول لين	٢	١٨٥٧
ويتورث روود	٣	١٨٥٧

بنفولد	٤	١٨٥٧
فرع سبوتلاند بريدج	٥	١٨٥٩
فرع بامفورد	٦	١٨٥٩
وار دلورث براد	٧	١٨٦٠
بلوبتسى	٨	١٨٦٠
بورسيل	٩	١٨٦٤
شوكلوه	١٠	١٨٦٦
سـدن	١١	١٨٦٩
نيوبولد	١٢	١٨٧٢
ملكستون	١٣	١٨٧٢
سلاتوكس	١٤	١٨٧٣
جريفل هول	١٥	١٨٧٤
نوردن	١٦	١٨٧٥

عشرة فروع من الستة عشرة فرعا للسلع بنتها الجمعية من أموالها الخاصة بالإضافة الى فرعين تمتلكها أيضا بالشراء ، أما الأربعة فروع الباقيــة فتقع فى مبانى مؤجـرة ويضم ١٢ فرعا قاعات أنبــاء ، وتجرى الترتيبات لإقامة قاعات فى الفروع الباقية(١) ، وتبلغ حركة أربعة أو خمسة فروع أقل من ٢٠٠٠ جنيه فى ربع السنة لكن حركة الفروع الأخرى تتراوح بين هذا الرقم وبين ٥٠٠ر٥ جنيه فى ربع السنة ٠

وكانت الفروع ذات فائدة كبرى للأعضاء لكنها كانت أيضا ولا شـك الوسيلة الرئيسية للجمعية كى تحقق التطور والتقدم السريع ٠

ويجتذب الحانوت المركزى الذى انبثقت منه الفروع اهتماما كبيرا كمبنى ففيه قاعة اجتماعات بالدور العلوى تمتد بكامل مساحة المبنى وتسع ١٤٠٠ شخصا وكثيرا ما اجتمع فيها ٢٠٠٠ شخص وأكثر ، وتطل القاعة على البلدة كلها التى يمكن رؤيتها من ١٥ نافذة كبيرة مرتفعة ، وتضم المكتبة ١٢٠٠٠ مجلدا ٠

---

(١) توجد الآن ١٩ قاعة أنباء و ٤٩٣ر٣٥ كتابا فى المكتبات (١٨٩٢) ٠

وبدأت إقامة المبنى عام ١٨٦٦ وافتتح فى سبتمبر ١٨٦٧ ، وبلغت جملة التكاليف بما فيها الأرض ١٣٫٣٦٠ جنيها ، وقد تم سـداد كل أو معظم التكلفة ، وبلغت تكلفة مبانى الفروع العشرة التابعة للجمعية ١٤٠٠٠ جنيه بما فيها التركيبات ، وتقع الأقسام الصناعية للجمعية ملاصقة للنهر فى وسط البلدة وقد اعيد بناؤها وترتيبها وتشمل اقسـاما لصـناعة الطباق والخبز والبسكويت والحلوى . وأقسام للجزارة والتنظيف وطحن البن والفلفل ، وتقع فى نفس المكان الاسطبلات والمجزر ، ورتبت كلها بحيث يمكن تسليم منتجات كل قسم الى الحوانيت عند الحاجة فى دقة الآلة .

وبلغت حركة الجمعية ٣١١٫٧٥٤ جنيها وعدد الأعضاء ٩٧٢٢ عضوا فى أواخر عام ١٨٧٧ والأرباح ٥١٦٤٨ جنيها ، وتشغل الجمعية جزءا هاما من البلدة التى يبلغ عدد سكانها ٦٥٠٠٠ نسمة .

وكان افتتاح الحانوت الرئيسى يوم عيـد ، وقـد دعوت كولونيـل ر. ج. هنتون R.J. Hinton ، من واشنطون ، للحضور ، وكان قد درب فرقا من الجنود السود لتشترك فى الحرب الأهلية الأمريكية لتحرير العبيد ، والقى الكولونيل خطابا فى هذه المناسبة(١) ، ويقع الحانوت الرئيسى عند التقاء سانت مارى جيت وتود لين ، وله واجهة فى كل من الشارعين ويرتفع فوق أعلى مبنى بالبـلدة ، وقـد بنى فوق الموقـع القديم تمبرانس هـول Temperance Hall ، ويعرف الجميع هذا الموقع وإن لم يعرفوه فيمكنهم رؤيته ، واقترح إنشاء مرصد فوق المبنى وتجهيزه بتلسكوبات قوية ، ولاشك أن اتساع مدى الرؤية من قمة المبنى يجعله أحسن مكان لأحسن مرصد فى لانكاشير ، والقيت الخطب فى الحفل الذى أقيم فى المسرح الملكى برئاسـة العمدة مستر ج. روبنسون J. Robinson ، وأرسل مستر جون برايت عضو البرلمان خطابا وديا نظرا لعدم استطاعته الحضور الى روتشديل فى ذلك اليوم ، وأرسل ايرل رسل ، ولورد ستانلى ، ومستر جولدوين سميث ، ومستر ت. ب. بوتر عضو البرلمان عن المقاطعة ، ومستر جاكوب برايت وغيرهم رسائل تهنئة ، وكان من ضمن الخطباء مستر توماس هيدز عضو

---

(١) أدلى الكولونيل بذكرياته عن هذه الزيارة ونشرت فى كتاب عنوانه « قادة انجلترا الراديكاليين » "Radical Leaders of England" ، اصدره بتمان .

البرلمان ، ومستر ولتر موريسون عضو البرلمان ، ومستر ا· ف· نيل ، ومستر ا· و· جريننج ، والقس و· ن· مولز ورث ، والقس ج· فريستون ، وجورج جيكوب هولى اوك ، **وفى هذا اليوم ٢٨ سبتمبر ١٨٦٧ نال التعاونيون الاعتراف من البلدة بعد ثلاثة وعشرين عاما من بدء جهدهم المتواضع فى تود لين ، فقد أصبحوا اكبر هيئة تجارية فى البلدة ، وارتفع مبناهم عاليا فوق كل المبانى المجاورة ·**

وقال القس مولز ورث انه يعتبر الاحتفال ذا أهمية أوروبية ، فقد انتشر التعاون سريعا فى انحاء القارة واتخذ التعاونيون هناك مبادىء روتشديل أساسا للعمل ويتجه كل المؤمنين بالتعاون بانظارهم الى روتشديل باعتبارها مكة أو المدينة بالنسبة للحركة ·

وقال مستر موريسون عضو البرلمان ان الرواد لا يمكنهم أن يصنعوا شيئا ويبقوه لأنفسهم بل لابد أن ينقله عنهم الآخرون ولذا يجب عليهم المحافظة على سمعتهم ، ولو رأت الجمعيات الأخرى روتشديل تخرج عن مذهبها الأول فإنها ستتخذ ذلك حجة لتخرج هى عنه أيضا ·

وقرأ سكرتير الجمعية مستر بريرلى فى الاجتماع تقريرا اضافيا وانتهى بقوله « **انشئت فى البلدة عام ١٨٥٥ جمعية صناعية ، انشأها أعضاء جمعية الحانوت أساسا ، وتنتهج مبدأ تقسيم الأرباح بنسبة المساهمة فى رأس المال من جهة وبنسبة العمل من جهة أخرى وحققت هذه الجمعية نجاحا كبيرا فى السنوات الأولى ، لكن حملة الأسهم الرأسماليين بدأوا يظنون أن العامل يجنى ربحا كبيرا ولذا الغى توزيع الربح بالنسبة للعمل (وتصاعدت صيحات عالية « باللعار »)(١) ، لكن نامل أن تعود الحال الى ما كانت عليه قبل طويل وقت (صيحات اسمعوا اسمعوا) كما نامل أن تتطور مبادىء التعاون تطورا كاملا لأننا نعتقد انها مملوءة بالخير العميم من أجل الناس »·**

واعتبر مستر هيوز ذلك كوعد ببذل الجهد لاستعادة طبيعة الجمعية الصناعية الأولى ، وتكلم مستر وليم كوبر فاشار الى مستر نيل بأنه «محاميهم» لأنه قدم لهم خدمات جزيلة يشعرون جميعا ازاءها بالشكر والامتنان ·

---

(١) عن تقرير فى جريدة روتشديل ابزيرفر Rochdale Observer

وقال مســـتر سميثز أن الرواد المســجلين بموجب قانون جمعيات الأصدقاء لعام ١٨٤٥ قدموا طلبا لتعديل القانون بحيث يسمح لهم بتخصيص عشر أرباحهم الصافية لأغراض التثقيف لكن مستر تيد برات المسجل رفض التعديل برغم مجهودات مستر هيوز ومستر نيل ٠

ولم يستضف التعاونيون من قبل مثل هذا العدد الكبير ، ولم يتمكنوا أبدا قبلا من دعوة مثل هؤلاء الضيوف العظام ، وكان للضيوف الكبار أن يختاروا بين عشائين أحدهما فى الحانوت الرئيسى والأخر دعا إليه العمدة الذى رأى تكريم الرواد بأن يجعل زوارهم مدعويه ، وبعد القاء الخطب ذهب كبير من الناس الى حفلة بالحانوت والى حفلة رقص فى القاعة العامة بالبلدة ٠

الفصل الثالث والعشرون

صفات أخرى لـرواد روتشديل

OTHER CHARACTERISTICS OF THE ROCHDALE PIONEERS



لاشك أن مثابرة التعاونيين فى روتشديل على إنشاء « جمعية الجملة » يعطى للحانوت الحق فى أن ينظر إليه كمؤسس لتلك الجمعية عمليا ، فقد أمدوا مناصرى الحركة بتصور عملى للفكرة وحركوها واحتفظوا بها متحركة ٠

وكان لروتشديل من قبل فضل الإبانة عن قيمة مبدأ تقسيم الأرباح على أساس المشتريات بدلا من الأسهم ، وكان مستر الكسندر كامبل ، من جلاسجو من أنصار هذا المبدأ ، فقد أعلنه لأول مرة عام ١٨٢٢ وأدخله فى قواعد جمعية كامبو سلانج Cambuslang عام ١٨٢٧ ، لكن هذا المبدأ لم يكن ليدخل روتشديل لولا مستر هوارث كما يقول مستر نتال Nuttall فقد أعاد اكتشافه وكان بالتأكيد أول من أدرك أهميته وأول من حث على اتباعه ، والاكتشاف المعاد أمر معتاد فى الأدب والميكانيكا والتجارة ، فكثيرا ما يقع الشعراء والمؤلفون على نفس الأفكار التى خطرت للآخرين قبل أن يولدوا وجاءت فى كتابات لم يطلعوا عليها أبدا ، فقد اكتشف بل فى اسكتلندا ونولتون فى أمريكا السفينة البخارية فى نفس الوقت ، ولاشك أن مستر هوارث أخرج فى روتشديل نفس الفكرة التى أخرجها كامبل منذ زمن طويل فى اسكتلندا لكنها لم تطبق وتثمر هناك بل أن الناس لم يشعروا بها ولم يدركوها إلا حين نجحت روتشديل فى تطبيقها مما جعلها تبدو اكتشافا خطيرا وشهيرا ، وطالما تكرر الاكتشافات ذات الأهمية الكبرى مرارا ، وأخيرا حين ولدت الفكرة القديمة من جديد تلقفتها أيدى مربيات مدربات ذوات علم حتى أشتد عودها ونمت طولا وقوة وثراء ، ولذا كثر آباء الفكرة التى أصبحت شابة قوية ، فخطة اقتسام الأرباح مع الزبون الذى بدونه لا يتحقق أى ربح تجعل للمتجر اتباعا وتبعث فى المتامل معه احساسا بالاهتمام ، وما لبثت الجمعيات الأخرى أن اتبعت نفس القاعدة لكن أحدا منها لم يجعل من الفكرة ما صنعت بها روتشديل ، ولذا فاتباع المتاجر لها لم يميزها عن غيرها بينما كانت سببا فى امتياز متجر روتشديل ، والحق أن تقسيم الربح بهذه الطريقة لم يكن ليثير الضجة التى أثارها لولا طريقة

التطبيق التى اتبعتها روتشديل التى اجتذبت أعين الباحثين عن المال فى انحاء البلاد خاصة مع ازدياد الأرباح ، **فقد كان أمام التعاونيين الأوائل مهمة اصلاحية وراوا أن المال مطلوب لهذا الغرض بالذات مما جعلهم ينتهجون اما خطة تقضى بالاحتفاظ بكل ما يكسبونه ، بعد دفع فائدة ٥٪ لرأس المال ، يبيعون السلع بلا ربح مما يعنى أن المشترى يشترى السلعة بسعر تكلفتها تقريبا ، وبهذه الطريقة يحصل المستهلك على حصته كاملة من المزايا ، واما الطريقة الأخرى وهى أن يبيعوا السلع باسعارها الجارية ويحتفظوا للمشترى بفرق الربح ، وقد فضلوا بعد ذلك اتباع هذه الطريقة رغم أنها بدت فى مبدأ الأمر نظرية وطوبادية ولا ينتظر أن يرحب بها الأعضاء الذين يريدون شراء السلع رخيصة ويشعرون بانهم يوفرون قدرا من المال عند الشراء ذلك لأن غير المتعلمين لا يؤمنون بالادخار الآجل ولا يثقون فيه ولا يؤمنون بالمجهول وأن تقوم لجنة ما بادخار المال لهم بل يريدون الوفر حالا وفورا ، ويرون أن بنسا فى اليد خير من عشرين فوق الشجرة .**

ويحكى مستر هولز ، من ليدز ، فى احدى محاضراته عن رأس المال والعمل حكاية معروفة لـكنها ذات مغزى فيقول : « أثناء إحدى المجاعات فى ايرلندا ذهب مستر فورســـتر (والد نائب براد فورد فى البرلمان عندئذ) الى هناك كمندوب لجمعية الأصدقاء ليـــوزع الاغاثة ووجد الناس فى مكان هناك قد أصابتهم المجاعة الى حد أنهـــم يأكلون الأعشاب البحرية ، فسألهم هل لا توجد أسماك فى البحار ؟ فقالوا توجد لـكنهم لا يستطيعون صيدها اذ لا شباك عندهم ولا قوارب ، فأمـــدهم مستر فورستر بالشباك والقوارب ، وعندئذ سألوه من سيدفع لهم أجرهم اليومى ، فقال لهم ان السمك الذى سوف يصيدونه هو أجرهم فرفضوا الخروج للصيد حتى ضمن لهم مستر فورستر أجرهم فـكانت النتيجـــة تجارة مزدهرة غطت كل تـكاليف وثمن القوارب والشباك وتركت فائضا ماليا كبيرا وعرض عليهم أن يترك لهم القوارب والشباك بلا ثمن لكنهم رفضوا ولم يرضوا بديلا عن أجرهم اليومى » .

فالجهال لا ثقة لهم بشىء مطلقا ، فعين العقل كالعين العادية قـد يصيبها قصر النظر فلا تستطيع أن تبصر أين الربح ولو كان أبعد قليلا ، ولابد لهؤلاء من تلسكوب ليطيل نظـــرهم وأثبت التعاون أنه التلسكوب

المطلوب ، وأعرف تعاونيين يمكنهم الآن رؤية الربح ولو على بعد ميل ، لـكن هذه العين المبصرة قد لا ترى المبدأ ولو كان أقرب من ذلك ٠

والفقراء عامة طبقة متشككة ولا تصدق الا ما تراه وتلمســـه ، وتريد أن ترى نتيجة سلوكها يوم بيوم بل ساعة بساعة ، غير أن الخطة القديمة التى تقضى ببيع السلع أرخص مما يبيـــع التاجر فتتحول كـــل الأرباح الى تخفيض فى السعر خطة لا يكتب لها النجاح والانتشار فعندما تحدث أخطاء فى الشراء أو تفسد بعض السلع أثنـــاء تخزينها فيضطر المتجر التعاونى الى رفع السعر يتخلف المؤيدون للمتجر ويقل عددهم ، حتى لو نجح المتجر فى الاحتفاظ برخص السعر فان مقدار الخفض فى بعض السلع قد يكون صغيرا لا يكاد يحس فيفقـــد أثره ، أما الخطة القديمة التى تقضى بالاحتفاظ بجميع الأرباح ثم توزيعها على المساهمين فهى أكثر سوءا ، ففى هذه الحالة تكتسب الأرباح ثم تدفع ، وعنـدما ترتفع الأرباح يرتفع الحماس وعندما تهبط يهبط معها فيقل التأييد الشعبى الى الصفر بل ربما ما دون الصفر وينتهى المتجر التعاونى الى الدمار ٠

غير أن قاعدة الادخار الجبرى والدفع المؤجل قد تؤخـر الجمعية وتصد عنها الأعضاء وتثير السخط ، وقد احتاج تنفيذها الى فئـــة من المتحمسين والى مزيج نادر من ذوى الحماس والتجرد والصــــبر الذين يستطيعون انتظار النتائج لسنوات طـــويلة ، وفى الحقيقة هم ينتظرون نجاحهم الذى ربما لا يتحقق الا بعد أن يثقفوا جيرانهم ويرفعوا البلدة كلها الى مستواهم ، ولحسن الحظ كان التعاونيون الأوائل فى روتشديل متحمسين وعلى شجاعة تجعلهم يحلمون الأحلام وهم فى ملابسهم الفانيلا بينما الفقر منتشر فى الشوارع وتتهددهم أخطار خفض الأجور ويبدو شبح بيوت الفقراء لهم فى الأفق بل وقريبا منهم ، لـكنهم مـــع ذلك اختاروا قاعدة الادخار الاجبارى ، وهكذا ولدت فى لانـكاشير فـكرة تراكـــم الأرباح ، ويقول مستر وليم تشامبرز فى بحثه فى التعاون وفى بصيرة صحيحة : « سيظل التعاون شيئا لا يذكر بغير مبدأ الأرباح المتراكمة » ٠ وهكذا كانت التجـــارب التى دامت سنين طويلة فى المتاجـر التعاونية السابقة على بدء حانوت روتشديل عـــام ١٨٤٤ هى أيام التعاون التى « لا تذكر » ٠ **واثبتت روتشديل أنه يمكن تثقيف الناس وتعليمهم التوفير**

وحسن البصيرة ، وهذا أمر جديد وخطير فى الطبيعة البشرية للطبقة العاملة فى ذلك الوقت ، وقد يتفوق البعض على الرواد ماديا وعدديا وهذا شىء حسن لكن هذا البعض لا يمكن ان يتفوق عليهم فى الفضل الذى يتعلق بايمانهم بالتعاون عندما كان المؤمنون به قلة ، وفيما يتعلق بالشجاعة حين كان الآخرون فى حضيض اليأس .

واذا كانت خطة روتشديل فى توزيع الأرباح اكتشافا اسكتلنديا فانها لم تكن معروفة لتشامبرز ولم تجتذب الانتباه وهى بين أيدى الاسكتلنديين والا لما رأينا اقتصاديا لماحا مثل وليم تشامبرز William Chambers يكتب الملاحظة التالية :

« تعتبر خطة روتشديل فى دفع حصة من الأرباح مع الأجور الى جانب توزيع الأرباح على الأسهم خطة جديدة وثورية من أول نظرة اليها، ويظهر انها ستقلب كل افكارنا المعتادة فيما يتعلق بالعلاقة بين أولئك الذين يقدمون الأموال والذين يقدمون اليد العاملة فى العمليات التجارية» .

"The Rochdale plan of paying not only dividends on capital, but a share of profite along with wages, is, on the first view of it, new and revolutionary. It seems to overturn all our ordinary ideas as to the relationship between those who find the money and those who give the hands in trading operations."

وعندما قدم لورد وستبرى مشروع قانون محاكم المقاطعات الذى يلغى سجن المدينين قال فى مذكرة أرسلها الى مستر بتمان محرر جريدة التعاونى فى ذلك الوقت انه « يسره أن يرى مشروع القانون يلقى المساندة من التماسات الجمعيات التعاونية ، ويشعر أن الغاء سلطة السجن هذه مع تيسير الحصول على الائتمان سينشر عادات الاعتدال والتوفير ، وهى عادات أثبت التعاون انها موجودة بين بعض أعضاء الطبقة العاملة » ، وجاهد مستر ويتاكر المعروف باسم « فنى لانكاشير » لكى يلفت أنظار القادة التعاونيين الى مشروع القانون المشار اليه وكسب رأيهم الى جانبه ، وأوضح السبب فى هذه الكلمات الفاصلة :

« بما أن مشروع القانون المقدم من لورد وستبرى Westbury يتجه مباشرة الى نظام الائتمان فهو يستحق مساندة كل من يهتم بتحسين

الأحـــوال الاجتماعية لا سيما أولئـك الذين يهمهم نجـــاح الجمعيات التعاونية ، وكلما صعب على العمال الحصول على الائتمان كلما علموا قيمة الجمعيات التى تمكنهم من الاحتفاظ بالأرباح لمصلحتهم ولمنفعتهم ، وهى أرباح لولا ذلك لذهبت الى تاجر التجزئة » .

كان ذلك عـــام ١٨٦٤ ، وجاهد مستر وليم كوبر سدى محـاولا اجتماع جمعية روتشديل لتقدم التماسا فى مصلحة مشروع القـانون ، ويحتاج السبب فى ذلك الى شىء من تفسير وهو ما يحسن أن نراه فى كلمات مستر كوبر التالية :

« اعتقد أن نظام الائتمان يضر بالعامل ضررا بليغا اكثر مما يفيده ، وعندما « يتاخر » الرجل كما تقول أى يقع فى الدين يفارقه الأمل والروح الوثابة ويصبح اكثر ميلا ليرتبط أكثر فاكثر بصاحب المتجر الذى يبيعـه بالأجل ، وسمعت أن بعض أصحاب الحوانيت يحبون أن ينغمس زبائنهم فى الدين شيئا ما ، فهم عندئذ لا يستطيعون الذهاب الى مـــكان آخر لشراء ما يحتاجون اليه ، فاذا أصبح مشروع القانون المقدم من اللورد قانونا ، فسيظل للتجار جانب من الصفقة هو انهـــم سيختارون الذين يمنحونهم الائتمان وربما يتصرفون بمزيد من الحذر فيما يتعلق باغراء الناس بالاستدانة ، لـكن اذا انضمت الجمعيات التعاونية الى حـــركة المطالبة باقرار القانون ، فقد يعزو أصحاب الحوانيت تدخلها الى رغبة التعاونيين فى الاضرار بمصالحهم ، أو هكذا سيقولون على الأقل ليكون أحد الدوافع التى يروجونها فى البلدة حيث أن حزب المحافظين يبحث عن مبرر لاشعال عداوة أصحـــاب الحوانيت ضد المتاجـــر التعاونية بحيث يستغل هذه الاثارة ليستخدم أصحاب الحوانيت كاداة لحـــرمان نائبنا ريتشارد كوبدن من مقعده » .

لـكن يجب القول بأن هذا التحليل فيما يختص بمصلحة وتصرفات أصحاب الحوانيت يضحى بمصالح أكبر قدرا هى مصالح الطبقة العاملة والمتاجر التعاونية ، لأن مشروع قانون لورد وستبرى من شـــأنه انقاذ عشرات الألوف من ذل الديون ، واعطاء مزيد من القوة الدافعة للشراء نقدا من المتاجر .

وكانت جمعيـــات العمال الصناعية الايطالية التى أنشأها ماتزينى Mazzini وكان رئيسا لها ، تموج بشعور وطـــنى قوى ، وترى أن الحياة الاجتماعية والحياة العامة صنوان ، وكانت تعتقد أن التعـــاون لا ينفصل عن الوطنية فى روتشديل ، وفى اجتماع عقد فى ديسمبر ١٨٦١ ألقيت كلمة بناء على تفويض من رئيس الجمعيات الرئيسية الايطاليـــة بقصد اقامة علاقة شخصية بين تلك الجمعيات وبين الجمعيات فى انجلترا، وتتصرف الجمعيات الايطالية على أساس المبدأ الذى حث مستر برايت الجمعيات الانجليزية على اتباعه فى وقت مضى ، وتنشد وحـــدة بلادها كشرط أول لاستقلالها الصناعى ، وفى ختام كلمته قـــدم مستر أبراهام جرينوود اقتراحا باصدار القرار التالى الذى تمت الموافقة عليه بالاجماع وكانت الجلسة برئاسة مستر هويل Mr. Isaac Hoyle ٠

« علم هذا الاجتماع بسرور أن العمال الايطاليين يتبعون النصيحة التى قدمت قديما لعمال انجلترا من سير روبرت بيل وانهـــم « يتولون شئونهم بأيديهم » ، وكانت الجمعيات التعاونية التجارية الانجليزية فى ذلك الوقت ترمى الى استخدام تنظيماتها من أجل التحرر السياسى واكتساب حقوق الانتخاب ، اذ يستحيل على أية طائفة من الناس حمـــاية مصالحها أو عملها مالم يكن لها وجود سياسى ، ولذا شعر المجتمعون فى روتشديل بسرور حين رأوا أن العمال الايطاليين يعتبرون وحدة بلادهم هدفا ضروريا وساميا من أهدافهم ٠

واحتوت تقاويم روتشديل على بيانات بعدد وحجم قاعات الأنبـــاء والمكتبات ، وما أنبلها من بيانات ، واذا كان الانجليز حين يستعمرون بلادا يحملون معهم اليها نماذج من مؤسساتهم ، كذلك تفعل جمعيـــة روتشديل كلما فتحت فرعا جديدا فهى تفتح معه قاعة أبناء جديدة ، « مفتوحة » دائما تزيد العضو اطلاعا وحكمة فى العقل دون أن تزيده فقراء فى المال ، فالمعرفة اقتصاد وبصيرة وحكم صائب ٠

وكتب لى مستر جون أورميرود John Ormerod عـــام ١٨٦٤ قصة منشأ صندوق الاقراض التعاونى بروتشديل ، فقد خشى بعض السادة فى وليتشاير Wiltshire عام ١٨٦٢ من أن تؤثر المجاعة القطنية على استقرار المتاجر التعاونية فى لنـكاشير فاقترحوا فى كرم تقديم مساعدة

قد تنفع فى دفع هذا الشر ، ويقول مستر أوربيرود : « نظرا لأن روتشديل كانت مهد التعاون فقد عرض هؤلاء السادة المساعدة على روتشديل لئلا يعانى التعاون عامة بسبب أى هزة تحدث هناك » وأرسلوا لهذا الغرض مبلغ ٥٠٠ جنيه الى نيافة و٠ ن٠ مولز روث اسقف سبوتلاند من خلال مستر سوذرون استكورت عضو البرلمان ليستخدمه التعاونيون بلا فوائد بشرط اقراضه بلا فوائد للأسر التعاونية المتضررة من المجاعة القطنية ، وعين ستة أمناء : اثنان من جمعية الرواد ، واثنان من مطحن القمح واثنان من الجمعية الصناعية ، وتعهد الأمناء ببذل اقصى جهدهم فى تحصيل القروض عندما يعود الرخاء واعادة المال الى نيافة مستر مولزورث ، واقرض المبلغ الى من يودعون « دفاترهم » التى تبين سجلا بايداعاتهم فى جمعية الحانوت وكانت القروض تتراوح بين جنيه واحد وخمسة جنيهات ، وهكذا يمكن للعضو الذى له بضعة جنيهات فى الحانوت أن يقترض ما يعادل هذا المبلغ دون أن يسحب رأسماله من الحانوت ، وعندما يستمر العضو فى التعامل مع الحانوت فان الربح المستحق له على المشتريات الى جانب الفوائد على رأسماله المستثمر كفيلة بسداد القرض بتراكمها ، ولم يطلب الأعضاء قروضا الا بمبلغ ٣٦١ جنيها حتى آخر عام ١٨٦٤ ، ومجموع ما سدد فى النصف الأول من عام ١٨٦٣ كان ١٣ جنيها ، وسدد فى النصف الثانى ٣٧ جنيها ، وفى الربع الثالث من عام ١٨٦٤ سدد ٢٦ جنيها ، وفى الربع الرابع من عام ١٨٦٤ سدد ٣٢ جنيها ،**وأخيرا سددت القروض كلها وتراكمت فوائد قدرها ١٠٠ جنيه ، لكن السادة الذين قدموا المبلغ اعطوه للتعاونيين بعد تحصيله واشترطوا أن ينفق فى أغراض يوافقون عليها فتقرر تخصيصه لتثقيف الأعضاء باسم صندوق التعليم الخاص ، ويقول مستر أورميرود بأن نفقات توزيع المبلغ حتى آخر عام ١٨٦٤ لم تتجاوز جنيهين ، ورغم الاعلان عن القروض وشرح فوائدها للأعضاء كان الاقبال من جانبهم على الاقتراض قليلا حتى بدأ الناس يعتقدون أن التعاونيين عازفون عن الاقتراض لشعورهم القوى بالاستقلال أو لأنهم فى الواقع أحسن حالا من زملائهم العمال غير التعاونيين ٠**

واستخدمت الفوائد الناشئة عن صندوق التعليم الخاص فى مساعدة الفصول الدراسية لمنفعة أسر الأعضاء ، وفى بعض السنوات كان تلقى

على الأعضاء محاضرات تضيف الى معلوماتهم ، وجـــاء فى التقاويم الأخيرة هذا الاعلان : « فصول فى العـلوم والفنون واللغة الفرنسـية ، افتتحت اللجنة التعليمية هذه الفصول عام ١٨٧٣ وظلت مستمرة بنجاح منذ ذلك الحين ، ويتولى مدرسون قديرون تعليم المواد التالية : الرياضيات، الرسم الهندسى والميكانيكى ، الميكانيكا النظرية ، الفسيولوجيا ، عـــلم النبات ، المغناطيسية والـكهرباء ، الـكيمياء غـــير العضوية ، الرســم النظرى ورسم النماذج الهندسة والفراغيات ، الصوت والضوء والحرارة، اللغة الفرنسية وينبغى أن يستفيد كل أبناء وبنات الأعضاء من هذه الفصول » ٠

The interest arising from the Special Educational Fund enables instructional classes to be assisted for the advantage of the families of members. Some years lectures have been given to the members by persons likely to add to their instruction. When they were specially engaged the expenses were paid out of the proceeds of this fund. Recent Almanacs of the Store now contain this announcement : — "Science, Art, and French Classes. — These classes were inaugurated by the Educational Committee in 1873, and have since continued to be carried on successfully. The following subjects are now taught by able teachers, viz., : — Mathematics, geometrical and mechanical drawing, theoretical mechanics, physiology, botany, magnetism and electricity, inorganic chemistry, freehand heat, and the French language, perspective, accoustics, light and heat, and the French language. All sons and daughters of members should avail themselves of these classes".

ونظرا لـكريم اهتمام مســتر سوذرون استـكورت بأحوال الرواد فقد يكون من افضل الأعمال اطلاق اسمه على احد سلاسل المبــانى فى اراضى الرواد (عند الاحتياج الى اسم جديد) ويهمنا نحن جميعا الذين يهتمون بشرف وتقدم التعاون أن نحافظ باعتزاز وامتنان على ذكرى من قدم له مساعدة فى الماضى حين كان يكافح بلا اصدقاء ٠

ويبين الجدول التالى عـــدد الطلاب فى كل فصل منذ بدء هـــذه الفصول :

السنة	العلوم	المتحنون فى العلوم	الفنون	المتحنون فى الفنون	التكنولوجيا	المتحنون فى التكنولوجيا
١٨٧٣	٣١	١٦	—	—	—	—
١٨٧٤	٥١	٣٠	٤٩	٤٠	—	—
١٨٧٥	٨٣	٦٨	٨٨	٥٩	—	—
١٨٧٦	١٠٣	٦٨	٩٤	٦٣	—	—
١٨٧٧	٨٨	٧٣	٦٨	٦٠	—	—
١٨٧٨	١٣١	٨٦	٨٦	٤٣	—	—
١٨٧٩	١٧٤	١٣٤	٨٤	٤٨	—	—
١٨٨٠	١٦٢	١٢١	٧٦	٥١	—	—
١٨٨١	١٤٣	١١٠	٧٧	٥٥	—	—
١٨٨٢	١٨٨	١٣٤	٥٨	٣٩	٦	٤
١٨٨٣	٢٢٢	١٦٤	٧٨	٥١	٩٢	٥٧
١٨٨٤	٢٢٢	١٥١	٨٥	٦٦	٨٧	٤٧
١٨٨٥	٢٣٢	١٧٠	٧٥	٤٣	٤٢	٢٧
١٨٨٦	٢٦١	١٩٢	٧٣	٥٠	١٤١	٧٥
١٨٨٧	٢٠١	١٦٣	٥٤	٣٦	٧٤	٥٠
١٨٨٨	٢٠٧	١٥٥	٣٧	٣٠	٥٠	٢٦
١٨٨٩	٢٠٧	١٦٧	٥٤	٣٤	٤٩	٣٠
١٨٩٠	١٩٩	١٦٠	٣٩	٢٢	٣٦	٢٦
١٨٩١	١٥٧	١٢٤	٤٦	٢٧	٣٣	٢٨

ويرجع تناقص عدد الطلبة فى السنوات القليلة الماضية الى إنشاء فصول اخرى خاصة اعمال الفنون والتكنولوجيا التى فتحتها لجنة المدرسة الفنية منذ سنتى ١٨٨٧ ، ١٨٨٨ ، ولدى الرواد فى حانوت ويتورث رود احسن معمل كيماوى فى البلدة ، وهم وحدهم يقدمون جوائز فى جميع الفصول من حصيلة صندوق سوذرون – استكورت (الذى اشرنا إليه آنفا) وتبلغ نحو ٢٦ جنيها سنويا ، ومنها تصرف لأحسن الطلبة الناجحين فى كل مرحلة من كل مادة جوائز قدرها ١٠ شلنات وخمس شلنات ٠

ومما يذكر أن الرواد ظلوا يقدمون لمدة ١٥ أو ١٦ عاما أكبر قدر من التعليم العلمى والفنى فى روتشديل ، ولم يكلفهم ذلك إلا نفقات يسيرة لأن المنحة الحكومية تكفى لتغطية نفقات التعليم ٠

وأصدر مستر بارنيش **Barnish** أمين المكتبة البيـان التـالى الذى يوضح عدد المجلدات فى المكتبة ومدى استخدامها فى السنتين ١٨٩٠ ، ١٨٩١٠

	عدد المجلدات	مرات تقديمها
الدين ، الأخلاق ، ما وراء الطبيعة	٧٠٢	٧٢٢
الفنـــون والعـــلوم	٩٠٥	١٫٩٠٤
التـاريخ والســير	٢٫٧٩٨	١٫٢٣٥
التـاريخ الطبيعى	٤٨٢	٥٠٢
الفلسفة الاجتماعية والسياسية ، الخ	٧٨٠	٣٩١
الشعر ، الفنون الجميلة ، الدراما	٧٦٦	١٫٠٩٢
الجغرافيا ، الرحلات ، السفريات	٩٨٧	١٫٨٨٣
كتب الخيال ، القصص ، الخ	٤٫١٠٣	٢٥٫٠٣٩
كتب متنوعة	٣٫٢٦٨	٢٫٧٣٠
	١٤٫٧٩١	٣٥٫٤٩٨

مكتبة المراجـــــع

Reference Library

	المجلدات
المكتبة المركزية ــ تود لين	٥٤٧
المكتبة الفرعية ــ كاستلدون	٩٥
المكتبة الفرعية ــ بورسيل	٧٤
المكتبة الفرعية ــ بامفورد	٧٥
المكتبة الفرعية ــ اولدهام روود	٨١
المكتبة الفرعية ــ بنفولد	٨٣
المكتبة الفرعية ــ ويتورث روود	٨٤
المكتبة الفرعية ــ شوكلوه	٧٨
المكتبة الفرعية ــ سبوتلاند بريدج	٨٧
المكتبة الفرعية ــ سكول لين	٧٨
المكتبة الفرعية ــ وارد لورث براو	٧٩
المكتبة الفرعية ــ سدن براو	٧٠
المكتبة الفرعية ــ ميلكستون	٧١
المكتبة الفرعية ــ نوردن	٧١
المكتبة الفرعية ــ نيوبولد	٦٦
المكتبة الفرعية ــ جرافل هول	٦٥
المكتبة الفرعية ــ سلاتوكس	٦٩
المكتبة الفرعية ــ جرينبوث	٦٤
مكتبة الاعارة الفرعية ــ جرينبوث	٣١٦
المكاتب القومية تحتوى على	٢ر١٥٣

وبالإضافة الى ذلك يوجد ٣٧٤ كتاب مختـارات وكتيبات محليـة ، وتعتبر هذه المكتبات من أعظم انجازات جمعية من جمعيات العمال ٠

رؤساء الجمعيـــة

The Presidents of the Society

تولى منصب رئيس الجمعية كل من :

١٨٤٤ مايلز آشورث
١٨٤٥ تشارلز هوارث
١٨٤٦ جيمس سميثز
١٨٤٧ جون كيرشو
١٨٤٨ جيمس تويديل
١٨٤٩ جون كوكروفت
١٨٥٠ جون كوكروفت
١٩٥١ جون كيرشو
١٨٥٢ ج. ج. هيل
١٨٥٣ جون كوكروفت
١٨٥٤ جون كوكروفت
١٨٥٥ جون كوكروفت
١٨٥٦ ابراهام جرينوود
١٨٥٧ جون كوكروفت
١٨٥٨ جون كوكروفت
١٨٥٩ جون كوكروفت
١٨٦٠ جون كوكروفت
١٨٦١ ابراهام هوارد
١٨٦٢ توماس تشيتهام
١٨٦٣ صمويل نيوتون
١٨٦٤ روبرت بريجز
١٨٦٥ روبرت بريجز
١٨٦٦ روبرت بريجز
١٨٦٧ جون اوميرود
١٨٦٨ جون اوميرود
١٨٦٩ ج. ر. شبرد
١٨٧٠ ج. ر. شبرد
١٩٧١ ج. ر. شبرد
١٩٧٢ ج. ر. شبرد
١٨٧٣ ج. ر. شبرد
١٨٧٤ ج. ر. شبرد
١٨٧٥ ابراهام هوارد
١٨٧٦ ابراهام هوارد
١٨٧٧ ابراهام هوارد
١٨٧٨ بنجامين هوربرى
١٨٧٩ بنجامين هوربرى
١٨٨٠ بنجامين هوربرى
١٨٨١ بنجامين هوربرى
١٨٨٢ بنجامين هوربرى
١٨٨٣ بنجامين هوربرى
١٨٨٤ جيمس ويتورث
١٨٨٥ جيمس ويتورث
١٨٨٦ توماس تشيتهام
١٨٨٧ توماس تشيتهام
١٨٨٨ توماس تشيتهام
١٨٨٩ توماس تشيتهام
١٨٩٠ توماس تشيتهام
١٨٩١ توماس تشيتهام
١٨٩٢ توماس تشيتهام

وفيما يلى الملامح الاساسية الاربعة عشر « لنظام روتشديل » :

١ – وضع الرواد المثال لإنشاء حانوت باموال قدموها هم انفسهم.

٢ – تقديم انقى ما يمكنهم من المؤن .

٣ – استيفاء الوزن والكيل والمقياس كاملا .

٤ – البيع باسعار السوق وعدم منافسة أصحاب الحوانيت او تخفيض الأسعار عن اسعارهم .

٥ – عدم الشراء او البيع بالأجـل ومقاومة الاسـتدانة بين الطبقة العاملة .

٦ – توزيع الأرباح على الاعضاء بنسبة مشترياتهم باعتبار ان هؤلاء الذين حققوا الأرباح يجب ان يقتسموا حصة منها .

٧ – اقناع الأعضاء بترك أرباحهم فى بنك الأرباح بالجمعية لتتراكم وبذلك يتعلمون التوفير .

٨ – تحديد فادة راس المال بخمسة فى المائة كى يكون للعمل والتجارة (وبهما وحدهما يتحقق استثمار راس المال) فرصة عادلة للكسب .

٩ – تقسيم الأرباح فى الورشة على من حققوها بنسبة اجورهم .

١٠– تخصيص ٢½٪ من الأرباح للتعليم لزيادة كفاءة الاعضاء وتحسين ادائهم .

١١– منح جميع الاعضاء حق التصويت (صوت واحد للفرد الواحد فيما يتعلق بجميع الشئون والاقتراحات ، ومنح المراة نفس الحق فى التصويت وفى الحصول على مدخراتها سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة ، وكان ذلك قبل صدور قانون ملكية المراة المتزوجة بوقت طويل .

١٢ـ التصميم على نشر التجارة والصناعة التعاونية بإنشاء مدينة صناعية خالية من الجريمة والمنافسة •

١٣ـ بإنشاء جمعية الشراء بالجملة اوجد الرواد وسيلة تحقيق مهمتهم من توريد المؤن المضمون اصالتها والتى لا يمكن توريدها بغير هذه الطريقة •

١٤ـ فكرة أن يكون الحانوت مؤسسة ونواة لحياة اجتماعية جديدة تعمل عن طريق المساعدة الذاتية على نشر الأخلاق الحميدة والكفاءة والمهارة بين العمال(١) •

The following are the fourteen principal features of the "Rochdale System" :

1. The Pioneers set the example of beginning a Store with funds of their own providing mainly.

2. Supplying the purset provisions they could get.

3. Giving full weight and measure.

3. Giving full weight and measure.

4. Charging market prices, and not underselling or competing with shopkeepers.

5. Taking no credit, nor giving any ; thus discouraging debt among working-people.

6. Giving the profits made to members in proportion to their purchases ; acknowledging that they who make the profit should share it.

7. Inducing members to leave their profits in the Profit Bank of the Store to accumulate, thus teaching them thrift.

---

(١) عن كتاب « الحركة التعاونية اليوم » نشر دار مثيوين وشركاه •
"Co-operative Movement to-day" published by Methuen & Co.

8. Fixing interest at 5 per cent, that Labour and Trade (which alone make capital fruitful) may have a fair chance of gain.

9. Dividing in the workshop the profits among those who have earned them, in proportion to their wages.

10. Devoting 2½ per cent. of all profits to education, to promote the improvement and efficiency of the members.

11. According to all members the democratic right of voting (one person one vote) upon all appointments and propositions, and according to women the like right to vote and to receive their saving whether they were single or married, and this long before the Married Woman's Property Act existed.

12. The intention of extending co-operative commerce and manufacture by the establishment of an industrial City, in which crime and competition should cease.

13. In originating the Wholesale Buying Society, they created means of fulfilling their own professions, of supplying provisions of ascertained genuineness, which otherwise would have been impossible to them.

14. The conception of the Store as an Institution as the germ of a new social life, which should by well directed self-help ensure morality and competence to all the industrious.[1]

الفصل الرابع والعشرون

ســـباق المبـــادىء

CONTESTS FOR PRINCIPLE

مما يبهج أن عددا من الصفات المميزة لجمعية الرواد قد أدخلت فى الجمعيات الأخرى وبذلك أصبحت ملامح عامة مشتركة للجمعيات التعاونية ، ويلاحظ أن قرار التعامل فى المؤن النقية دون غيرها ، وهو ما تتبعه كل التعاونيات الآن احتاج فى أول الأمر الى دعوة ضخمة كى يستقر ، فقد كان كثيرا من الأعضاء على استعداد لايقاف الجهود المبذولة لبيع السلع النقية نظرا لصعوبة الحصول عليها وبدا لهم أن من العبث الإصرار على عمل مالا يمكن عمله ، لكن خيار الأعضاء ثابروا على هذا الاصرار لأن من الواجب أن تقدم الجمعية أحسن السلع وانقاها ، وهذا الشعور بضرورة الحصول على المؤن النقية هو الذى أدى الى ظهور فكرة الاتجار بالجملة التى مهدت وسهلت لكل جمعية أن تنفذ هذا المبدأ القويم ، لكن المحاولة كانت أشبه بمحاولة صعود جبل ، وقد يدرك الناس الآن مدى الجهد الذى بذل لمداومة المطالبة والإصرار على وجوب توفير الطعام النقى وكان لدى كل إنسان فكرة عن أن الطعام النقى هو أجود الطعام ولا يدانيه شىء ، لكن المؤسف ان كثيرين لم يحبوا هذا الطعام عندما حصلوا عليه لأنهم لم يعرفوا طعم الغذاء النقى من قبل ، وكما قلنا كان ذوقهم يحتاج الى صقل وتثقيف ، لكن ما اكثر من لا يحبون تثقيف ذوقهم كما لا يحبون تثقيف عقولهم ، قد يسرون عندما يتثقف ذوقهم وعقلهم ، لكنهم اثناء تلك المرحلة غالبا ما يحسون بعدم الارتياح ٠

ومن المفاخر النبيلة التى وردت فى تقويم جمعية الرواد لعام ١٨٦١ القول بأن « من مبادىء جمعية روتشديل إلا يكون لها مدينين » ومعنى ذلك أنهم لا يثقون فى أحد ولا فى أعضاء الجمعية ذاتها ، وعلى كل إنسان أن يدفع نقدا ، فالديون مرفوضة وهذا أمر لم يعتاده العمال من قبل ولم ينظروا اليه بارتياح أبدا ، فأكثرهم لا يجد مالا حاضرا بين يديه ولهذا كان من الصعب عليهم سداد ثمن مشترياتهم نقدا ، وكانوا كلهم بلا استثناء غارقون فى الدين قليلا أو كثيرا لأحد أصحاب حوانيت البقالة المحلية وكره الشرفاء منهم أن يذهبوا الى حانوت الجمعية بالأموال فى جيوبهم ليدفعوا ثمن مشترياتهم نقدا بينما هم مدينون للحانوت الملاصق لمسكنهم ٠ ومن ناحية أخرى كان أفراد الطبقة المتوسطة والسادة وأسرهم مدينين أيضا

ويعلم هذا الموقف كل إنسان وكل تاجر ، فكان من الصعب أن يحاول الرواد تلقين فقراء العمال درسا يحتاج اليه من هم احسن منهم حالا ، لكن هذا بالضبط ما فعله رواد روتشديل ، وهو فضل عظيم يذكر لهم ، وعندما قدم لورد وستبرى القانون الحكيم الذى يجعل الائتمان غير مشروع تحفظ التعاونيون فى روتشديل ولم ينساقوا الى تاييده لعدم رغبتهم فى مشاحنة أصحاب الحوانيت بوصفهم جيرانهم ، ويلاحظ ان رغبة أصحاب الحوانيت فى الابقاء على وضع قانونى يهيىء للفقراء فرصة الوقوع فى الدين هى حجة ضدهم وضد ممارساتهم أكبر من أى حجة أخرى يمكن أن يخترعها أن تعاونى أو تخطر بباله ، لكن رواد روتشديل التعاونيين جاهدوا لالغاء الائتمان بانفسهم اختيارا لا قانونا واستطاعوا بهذه الطريقة أن يحققوا نجاحا تجاريا عظيما ، واقيم الاحتفال التعاونى الكبير فى قاعة التجارة الحرة بمانشستر عام ١٨٦٤ برئاسة مستر توماس بايلى بوتر Thomas Bayley Potter عضو البرلمان عن روتشديل الذى القى خطابا يعتبر شهادة قيمة للتعاون إذ قال : « أستطيع القول من واقع خبرتى على رأس ما اعتقد انه اقدم بيت للتجارة الداخلية فى مانشستر انه ليس لدينا سجل أكثر بعثا على الرضا من سجل الجمعيات التعاونية ، فقد لاحظنا انها لا تشترى سوى السلع الأصلية النقية ولا ينطبق ذلك على الأقمشة وحدها، وهى الفرع من التجارة الذى لى به علاقة ، بل لدى من الأسباب ما يدعونى للاعتقاد بأن المتاجر التعاونية تشترى دائما بلا استثناء السلع النقية وقد علمت ذلك من أصدقاء لى فى ليفربول ومن تجار يتعاملون فى السكر والفواكه المجففة ويشترى زبائن المتاجر التعاونية هذه السلع النقية التى تبعث فيهم الرضا والارتياح ، ويخصص التعاونيون ٥٠٠ جنيه سنويا للتعليم والترفيه ، وأستطيع أن أشهد لدقيق روتشديل بالامتياز فلم أذق خبزا أجود من الخبز المصنوع منه ، وفى أثناء الضائقة وزعت هاتان الجمعيتان ١٥٢٩ جنيها كاغاثة وتبرعت بسخاء للمؤسسات الخيرية المحلية » .

استطاعت الجمعيات التعاونية تعليم الناس التوفير بالغائها للائتمان ، وحولت كثيرين من فقراء الى أغنياء ، لكن لهذا الوضع جانب آخر ، ففى أحوال كثيرة أفسدت الجمعيات بعض الأفراد النافعين ، لأنها أذاقت طائفة لم تكن تملك شيئا ولم تكن تنتظر أن تملك شيئا طعم الادخار واقتناء

الأملاك ، فهجر الكثيرون بتأثيرها روح الايثار والولاء للجمعيات الى السعى للربح ، وأعرف شخصيا تعاونيين وميثاقيين علا صوتهم بالمطالبة بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ثم أصبحوا الآن لا يهتمون بالاصلاح أكثر من اهتمام حكومة المحافظين به ، وصاروا يرفضون حضور الاجتماعات العامة فى الأمسيات ذات الجو الجميل ، بينما يزحفون كالحية فى جنة عدن like a serpent in Eden ولا يبالون أن يخرجوا فى زحفهم فى الليالى العاصفة ولو من خلال مزراب أو بالوعة gutter بحثا عن ربح جيد ، لقد ذاقوا طعم الأرض ودخل الحصى gravel الى صميم أرواحهم ·

لكن الجمعيات علمت الكثيرين الادخار الحسن الصحيح الذى لم يكونوا ليعرفوه أبدا لولاها ، وبفضلها استطاع كثير من الأبناء المخلصين النشطين أن يأخذوا آباءهم الشيوخ الفقراء معهم الى البيت بدلا من تركهم يعانون خوف انتظار الموت فى الملاجىء ، وجلس الأب فى ضوء الشمس يدخن غليونه فى حديقة يملكها ابنه ويملك معها المنزل ·

ولا ينبغى أن نسمح لهذه الأمثلة الرائعة أن تطمسها أمثلة الأنانية التى تحدث دائما فى فترات انتقال الناس من الزمن السىء الى الأحوال الحسنة ، وكما يقول تاكيتوس Tacitus « يوجد من الأرقاء المحبون للرق والذين يصنعون الطغاة أكثر مما يوجد من الطغاة الذين يصنعون أرقاء مغلوبين على الرق » ، ونجد دائما أناسا ولدوا حقراء ويحبون أن يزحفوا على الأرض ويركلوا بالأقدام ، وعندما يجد أمثال هؤلاء مالا يتحولون الى سفهاء لا يعرفون حدودا ينتهون اليها ، لكن هذه الفئة من الناس هم صنيعة الطمع فى المقام الأول · وهو طمع لا ينتهى عند حد ، ويرونه دائما ماثلا فيمن حولهم من الطبقات التى تعلوهم ، وانه لفضل عظيم يذكر لأى طائفة من الناس أن تختار لنفسها مثالا أفضل مما تجده محيطا بها ·

وفى آخر خطاب جاءنى من مستر كوبر انتقد ملاحظة فى كتاب « تاريخ التعاون فى هاليفاكس » من أن جمعية بريجهاوس Brighouse لا يلتحق بعضويتها كثير من العمال الأذكياء ، فقال مستر كوبر « إذا كان ذلك صحيحا فإنى استنتج منه أن جمعية بريجهاوس مثل بعض الجمعيات الأخرى قد أخطأت ، إذ من الواجب أن يكون الأمر على العكس تماما وهو ما يحدث فعلا

فى الجمعيات الجيدة ، **فحيث لا توجد قاعات أنباء ولا مكتبات ولا اهداف تثقيفية تتصل بالحانوت التعاونى فلابد ان يذهب اذكياء العمال الى مكان آخر مادامت الجمعية التعاونية لا تفى بحاجاته ، اما الجمعيات الحكيمة التى تقدم قاعات الأنباء فلابد أن تجتذب اولئك الذين يبحثون عن غذاء للفهم والعقل ، وتجتذب المكتبات وقاعات الأنباء فى روتشديل واولدهام وبيرى وغيرها من الجمعيات فئة من الأعضاء لا تجتذبها الأرباح النقدية وحدها »** ٠

ويشير مستر كوبر فى الخطاب نفسه الى خطاب آخر نشرته له قبلا يحبذ الاستمرار فى فتح قاعة الأنباء بروتشديل أيام الآحاد ، وقد قدم عضو اقتراحا « بابلاغى أنا (وليم كوبر) بوجوب الاعتذار لبضعة من أعضاء الجمعية الذين قدموا اقتراحا منذ ستة أشهر باغلاق قاعات أنباء الجمعية يوم الأحد ، لكن الاجتماع لم يوافق على الاقتراح بأن اعتذر ، ولما كان الأعضاء لا يحبون أن تكم أفواههم فقد سمحوا لى بأن أتكلم واكتب ، وأعتقد أن هؤلاء الذين يريدون أن يغلقوا قاعات أنباء الجمعية مضللين ومضللين يريدون أن يفرضوا رقابة فى الجمعيات التعاونية لحظر حرية الكلام والقلم » ٠

ويقول مستر بامفورد ردا على استفسارات وجهتها إليه : « تطلب منى أن اكتب لك وكأنك غريب لا تعرف ولا تفهم شيئا وتريد أن تعرف كل شىء وترى كل شىء كما يراه الذين فى موقع الأحداث ، وسأحاول أن أفعل ذلك ، **يحس فريق اصبح الآن كبيرا فى الجمعية بخوف طبيعى لئلا ينسب فضل كبير الى افراد قلائل فى جعل النظام التعاونى بالصورة التى عليها فى روتشديل ، ويميل الذين دخلوا الحركة التعاونية بعد أن تم العمل الشاق واكتمل والذين اصبحوا بموجب عددهم الكبير ذوى وزن فيها الى المطالبة بأن ينسب لهم فضل فى نجاحها اكبر مما يستحقونه فعلا** ٠

« ولا شك أن دراسة سجل المحاضر فى المرحلة المبكرة من امتع الدراسات التى تعطى الدارس فكرة عن نوعية القوم الذين عبروا بالحركة مراحل كفاحها الأولى ، لقد احاطت بهم روح من الاخلاص الحقيقى التى وجدت تعبيرا صادقا ومبينا عنها فى سجلات مختصرة ، فنجد مثلا فى أحد المحاضر قرارا يقول : « يعفى كوبر الصراف من طحن البن » فأى جمع غريب من الواجبات هذا ؟ وكيف يغن به الآن ؟ ، وتصور الصراف الذكى

فى أحد حوانيتها الكبيرة وهو يأخذ دوره فى طحن البن ! ، لكن يبدو أن هؤلاء الرجال كان عليهم أن يؤدوا مهمة الكاتب وعضو اللجنة وطاحن البن والبائع فى الحانوت معا ... وإنى أتساءل هل إذا تطلبت الظروف أنجد الجيل الجديد من التعاونيين مساويا لهؤلاء ؟ » .

والآن بعد مرور عشرين عاما على إنشاء الحانوت ظهر على المسرح فئة أخرى جديدة من الرجال ، وتظهر فى السجلات قيود أخرى تختلف كما جرت العادة على قيدها بالسجلات من قبل ، لقد مضت العاصفة وانقشع غبار المعركة ، واستقرت واستمرت المكاسب التى كافح من أجلها الرواد ، وما على الجيل الجديد سوى استثمار التركة التى بين أيديهم ، ودفن الرواد القدامى ، وقبل أن نغادر الميدان علينا أن نلقى نظرة أخيرة على جداول المياه التى جاءت بالرى والخصب .

وقدم لى باحث ماهر هو مستر ستانلى Stanley مساعدة قيمة فى سرد هذا القسم الختامى فقد قادنى الى المحفوظات الأولى للحانوت فى روتشديل ، ويمكن ربط المحاضر بالروافد التى صنعت نهر التعاون العظيم ، فقد عثر على نهير صغير ، ففى ٤ أبريل ١٨٦١ أصدر مجلس الإدارة قرارا بأن « يمنح وليم كوبر مهلة شهر لترك منصبه » .

لكنه أعيد للعمل فى الجلسة التالية ، وجاء فى الأوراق التالية التفسير الكافى لهذا الحدث ، ففى الاجتماع ربع السنوى الذى عقد فى ٧ أكتوبر ١٨٦١ صدر قرار نصه « يطلب من رئيس الجمعية أن ينفى نفيا باتا البيان الذى ظهر فى عدد سبتمبر ١٨٦١ من جريدة « كونسلور Counsellor » وقيل أن مصدره مستر كوبر سكرتير الجمعية » وأعد رئيس الجمعية (مستر هوارد هذا النفى ووافق عليه مجلس الإدارة وعرض فى اجتماع شهرى ثم فى الاجتماع الربع سنوى التالى وسجل فى سجل المحاضر بناء على قرار خاص ، وكان كما يلى :

سيدى العزيز - اسمحوا لى بأن استرعى انتباهكم الى مقال ظهر فى عدد سبتمبر من جريدة كونسلور عنوانه « الطوائف بين التعاونيين » يتضمن أقوالا (يقال عنها حقائق) تجعل القراء يعتقدون أن بعض النفوذ الطائفى سمح له بالتأثير على مناقشة مسالة معينة (مسألة العمال) التى كانت

منذ فترة وجيزة مطروحة للنظر فى البلدة ، تحذر الهيئات التعاونية الجديدة من قبول أعضاء لهم علاقة بطوائف دينية معينة ذكر اسمها فى المقال (بينما لم يصدر مثل هذا التحذير) وقد قوبل هذا المقال بالأسف والشجب الى درجة انه عندما عرض فى اجتماعنا مساء الاثنين ٧ الجارى صدر قرار بان « يطلب من رئيس الجمعية ان ينفى نفيا باتا البيان الذى قيل ان مصدره كاتب الجمعية الحالى مستر وليم كوبر والذى ظهر فى الجريدة المسماه كونسلور عدد سبتمبر ١٨٦١ ، إذ ان هذا البيان يعتبر ضارا بمصالح تلك الجمعية كما انه يطلب الى شعب هذه البلاد عند تشكيل جمعيات تعاونية جديدة ان السعى لتكوينها من اعضاء من جميع الطبقات والأشكال ، وأرجو أن احيط قراءكم علما بان مبادىءتعاونيى روتشديل هى :

اولا : عدم البحث فى الآراء الدينية لأولئك الذين يقدمون طلبات للانضمام الى جمعيتنا او الى اى من مختلف الجمعيات التعاونية فى بلدتنا ٠

ثانيا : ان تنوع الفروق السياسية والدينية فيمابين الأعضاء الذين يشكلون جمعياتنا ينبغى ان يمنعنا من ان نسمح بحدوث اى شىء فى مجالسنا او ممارساتنا من شانه تاويله لصالح اى شخص او طائفة او رأى ٠

وكانت نتيجة هذه المبادىء انه عند مناقشة أو إقرار أى من المسائل الكبيرة التى قد تدعو الى الانقسام بيننا نجد فى كلا الجانبين رجالا من مختلف العقائد والآراء ٠

واثباتا لأن جمعيتنا كانت دائما على هذا النمط لا احتاج سوى لأن أورد مقالا جاء فى تقويم جمعية الرواد العدول لعام ١٨٦٠ ، وكاتبه هو الآن الناطق بلسان الجمعية ، فقد قال : « لا تنوى الحركة التعاونية الحالية التدخل فى أنواع الخلافات الدينية والسياسية الموجودة الآنفى المجتمع ، لكنها تربط برباط مشـــترك من المصلحة الذاتيـة طاقات ومذاهب وموارد الجميع من أجل الصالح المشترك لكل فرد ، ولا يبغى التعاونى فرض أو تنفيذ اية مبادىء معينة لأى فرد معين » ونعتقد أن كل هذه البيانات والتوصيات (ولم يدل مستر كوبر باى منها) التى جاءت فى مقالكم لشهر سبتمبر لها آثار ضارة ويجب الا يبديها اولئك الذين يقولون عن انفسهم انهم من أصدق أصدقاء مبادئنا الناجحة حتى الآن ، وأوصى باسم الرواد والتعاونيين فى

روتشديل جميع الجمعيات الجديدة الا تتحرى ابدا عن سياسة او دين الأشخاص المتقدمين لعضويتها ، بل تضم اليها كل من هم على استعداد للأخذ بالقواعد وانى اقدم يا سيدى العزيز نيابة عن الجمعية فائق الاحترام ٠

ابراهام هوارد ــ الرئيس

وقد نشرت خطاب مستر هوارد وكنت محرر جريدة كونسلور وهى جريدة هادئة تصدر فى حجم الكوارتو وتفتح صفحاتها للكتاب العلمانيين والتعاونيين والسياسيين والدينيين الذين يريدون أن يقدموا النصح للعمال فى ميدان الشئون العامة دون إملاء او سلطة تحكمية أو تظاهر واستعلاء او قدح فى احد ، وكان المفهوم أن من يقدمون النصح أو المقترحات على صفحاتها يبحثون جانبى القضية التى يناقشونها ، وكتب مستر كوبر بناء على طلب منى بحثا عن الجمعية الصناعية فى روتشديل وكانت عندئذ شركة تعاونية وظلت ثلاث سنوات موضع الرضا والفخر بصفتها هذه ، ثم جاء بعض المساهمين يعتقدون أن العمال يجب الا ينالوا سوى الأجور فقط دون غيرها ويأخذ رأس المال كل الأرباح ، وقسم مستر كوبر الرأسماليين الى طبقتين : الرأسماليين المحتكرين والرأسماليين المشاركين ، وكان يخشى أن تتغلب أصوات المحتكرين وهو ما حدث فعلا بعد ذلك ، وطلبت اليه أن يكتب عن طوائف التعاونيين فى روتشديل ، أى أن مستر كوبر لم يتطوع بالكتابة بل طلبت انا منه ذلك ٠ ولم أحاول إخفاء المصـدر لأنى أوضحت اسـمه فى الجريدة ، ولم يكن أى منا من دعاة التهييج السرى بل كنا نعمل فى الضوء ، فقد أردت أن أعرف الطبقات المسيحية المختلفة فى روتشديل التى تؤيد المشاركة فى الصناعة ، إذ حين يعرف التكوين الدينى لجمعية أو مجتمع يعرف بالتالى مستقبل الاعتراف بحقوق العمال فى الصناعة ، وأعطانى مستر كوبر المعلومات المطلوبة موضحا الطوائف التى تؤيد المبدأ والطوائف التى تعارضه ٠

تلك هى البيانات التى صوب اليها مستر هوارد سهام خطابه الرسمى المتجهم ، ويقول جورج جيكوب هولى أوك أنه كتب تعليقا عليه قال فيه : « اختتم الخطاب بمشاعر أوافق عليها قلبيا ولم أهاجمها أبدا » ، وخلا كل ما نشرته من أى كلمة فيها نقد أو هجوم على أى مبدأ طائفى ، وكل ما ابتغيته عمل تقدير لميول الطوائف نحو المشاركات الصناعية كما يقوم الكيمائى

بتقدير الوزن النوعى لمختلف السوائل بقصد تحديد قيمتها فى التجارب المختلفة(١) ، وطالما نصحت التعاونيين بالتسامح ازاء آراء كل منهم « وأن يتذكروا قول بولس أن عمل الخير أفضل من الإيمان أو الأمل »

To remember with Paul, that charity was greater than faith or hope.

وقد افتتح منذ مدة قصيرة مقهى جديد بقرب كنيسة سانت مارى فى ستراند أقامه اثنان من السويسريين المجتهدين ، وأغلب الظن ، أنهما أنفقا عليه وعلى إعداده نحو ألف جنيه ، حتى جاء أحسن وأكمل مقهى فى لندن ، ويبدو داخله منتميا الى بلد آخر ومع ذلك يوجد فيه غير محبرة واحدة ثمنها بنس واحد وقلم واحد ثمنه نصف بنس وإذا أراد أحد الرواد استخدامها فعليه أن ينتظر ريثما يفرغ صاحب المقهى من كتابة خطاب الى جدته ، ولاشك أن السيدة العجوز تستحق أن يكتب اليها حفيدها ، لكنها مضيعة لوقت رواد المقهى أن ينتظروا ، **وقفز الى ذهنى كم من الأفكار الجميلة يشوهها إهمال صغير ، وينطبق ذلك على المتاجر التعاونية التى لا تملك إدارة للدعوة ، وما كانت روتشديل لتصل الى الشهرة التى نالتها ، وما كان التعاون ليصبح ما هو عليه لولا أن الرواد الأوائل اتخذوا بحكمة الوسائل التى تكفل الدعوة الى مبادئهم ونشرها ٠**

وفى مكان مفتوح على الشاطىء الأيسر لنهر روتش Roche وفى قلب البلدة المزدحم أقامت جمعية روتشديل نافورة ماء للشرب وقدمتها لسلطات البلدة فى ١٩ أبريل ١٨٥٥ بالكلمات الآتية : « **الى عمدة روتشديل وكبارها ومواطنيها : نيابة عن أعضاء جمعية رواد روتشديل العدول نرجو أن نقدم لكم نافورة ماء الشرب البرونزية والمصباح المقامة فى نهاية شارع دريك Drake مقابل فندق ولنجتون Wellington ليستخدمها سكان روتشديل والغرباء الذين يزورونها ، ونامل أن تتقبلوها بنفس الروح التى قدمت بها ،**

---

(١) قال مستر كوبر عن الذين صوتوا الى جانب مشاركة العمال فى الأرباح « صوت العلمانيون كرجل واحد وتلاهم الموحدون ثم رجال الكنيسة وصوت ضد المبدأ حزب موحد من كنيسة ميلتون (مستقلون) ثم الميثوديست وعدد من الطوائف الأخرى » جريدة كونسلور سبتمبر ١٨٦١ ، وقلت أن الجمعيات الجديدة التى تنشد أعضاء يصوتون الى جانب العمال تعرف الآن لأى الطوائف تتجه ٠

ونرجو أن تظل طويلا منفعة وحلية للبلدة وهى الرغبة الأكيدة من جانب من يقدمون لكم فائق الاحترام ونيابة عن جمعية رواد روتشديل العدول ٠

جون كوكروفت ــ الرئيس
روبرت بريجس ــ السكرتير

وتقبلت البلدة الهدية ، وهى قائمة فى المكان المختار لها ، وعندما يأتى مسافر شرقى من مصر أو الهند لزيارة مشرق التعاون الأول ويدخل روتشديل يمر بنافورة الرواد وطفىء ظمأه منها قبل أن يرى عجائب الحانوت العظيم ٠

الفصل الخامس والعشرون

المتوفون من الــرواد

DEAD PIONEERS



قد يبدو للتعاونيين المعاصرين الذين يعرفون كم تدين الحركة فى تطورها ورخاءها الحالى للجيل الجديد من المؤيدين ، أن الجيل السابق يعطى أكثر مما يستحق من الفضل ، لكن هذا الجيل الســابق هو الذى حركها ورسم الخطوط التى سارت عليها وما هذه الصفحات إلا تاريخ واقعى غير متحيز كما يرى القارىء ، ولم يكن الرسل الأوائل هم الذين جعلوا المسيحية على ما هى عليه الآن ، ولم يتصور جورج ستيفنسون شكل نظام السكة الحديدية الذى نعرفه الآن ، ولكن لو لم يوجد الرسل الأوائل المتحمسين الذين سافروا فى زمن السوء ووعظوا واستشهدوا لما وجدت المسيحية ، ولو لم يجاهد ستيفنسون ويفـكر ويكد ويدبر من أجل السكة الحديدية وسط رأسماليين جاهلين وجمهور غير صديق لـكنا ننظـــر الى السكة الحديدية اليـــوم باعتبارها جنون ميكانيكى لا غير ، واذا لم نـكرم هؤلاء الأوائـــل الذين بدأوا الحركة لكان ذلك ظلم عظيم ، واذا لم نعترف بمزايا خلفـــائهم لـكان هذا ضلالا ، وقد حدث أن كان هذا الأمـــر مسألة حقيقية تاريخية وهى أن التعاون انبثق من نظريات اجتماعية شهيرة نشأت فى أوائل هذا القرن وجاء التعاونيون الشجعان العمليون فوضعوا النظام موضع التنفيذ ورسموا طريقهم وكيفية عملهم وعملوا من أجل التعاون ووقفوا بجانبـه ودافعوا عنه ضد عالم من العداء حتى أخذ الآخرون يتقبلونه بل ويعتنقونه٠ وكانوا فى كل ذلك يستلهمون أفـكار المنظرين العـــظام الذين سبقوهم ، فأنا لم أخترع هؤلاء الرواد بل وجدتهم فى الحقيقة والواقع ولم أستق أسماءهم من الأقاويل بل عرفتهم شخصيا ، وكانوا من جميع الفئـــات الدينية والسياسية والاجتماعية ، لـكنهم جميعا وقفوا الى جانب الاشتراكية التى تنشد الاصلاح الاجتماعى بخلق نظم انتـــاج وتوزيع جديدة واتباع الأمانة فى التجارة والعدالة فى توزيع الربح ٠

ومات مستر تشارلز هوارث فى آخر يوم من يونيو عام ١٨٦٨ ودفن فى مقابر هايوود Heywood Cemetery ووافته المنية فى ٢٨ ويلتون ستيت Wilton Street ، هايوود ، وحضر جنازته جمع من أصدقائه معظمهم تعاونيون ، ومثل جمعية رواد روتشديل رئيسهـــا وعضوان من

أعضاء لجنتها الى جانب عشرين تعاونيا من روتشديل ، وأقام صــلاة الدفن نيافة مستر فوكس (من هايوود) وأعلن بعدها مستر سميثز (من روتشديل) قبل أن يتفرق الأقرباء والأصدقاء أن مستر وليم كوبر سيقول كلمة بناء على رغبة مستر هوارث ، ثم قال مستر كوبر : « عرفنا جميعا واحترمنا صديقنا الذى دفن هنا الآن ونشعر بالأسى لأنه لم يعيش بيننا سنوات أطول مما عاش وسط أولئك الذين يكنون له أعظم التقدير ، وتميز زميلنا الذى يرقد هنا بحكم صائب وبآراء تقدمية وجاهد باخلاص مستمر فى سبيل قضايا كثيرة من أجل حرية ومصلحة الناس وهو فيهم ، وعرفته على مدى ثلاثين عاما ، وكان متصلا أول الأمر بالحركة الراديكالية التى هدفت الى استخلاص الحقوق السياسية لشعب بريطانيا العظمى وأيرلندا ، وعاش ليرى الأفـكار التى أيدها طويلا ، عندما كان يعارضها السياسيون المحافظون والأحرار على السواء ، وقد أصبحت قانونا من قوانين البلاد • وصار كل عضو فى أسرة على الأقل مواطنا ، لـكن حق الانتخاب الذى طالب به أيضا لم يتحقق حتى الآن • وقد يعيش بعضنا ليرى تحقيقه وليتحرر من القسر والاضطهاد من جانب طبقات الرأسماليين وأصحاب العــمل ، ولننظر الى ما فعل بصفته مصلحا اجتماعيا ، فبحكم نظرته الحكيمة ورغبته القوية فى تحسين أحوال الطبقة العاملة عمل دائما لوضع خططه ومبادئه فى صيغة عملية رعاية لمصلحة تلك الطبقة ، وصار من تلاميذ روبرت أوين وعضوا نشطا فى الهيئة الاشتراكية وساعد فى انشاء مجتمعات المنفعــة الموحدة أو العالم الخلقى الجديد حيث يعمل كل فرد لمصلحــة المجموع وحيث تسود المعرفة والوفرة ويختفى الجهل والاحتياج ، لـكن هذه الأهداف النبيلة لم يكتب لها النجاح لأنها كانت تسبق الشعب ، لـكنها تذكر الذين هم بيننا الآن والذين اشتركوا معه عندئذ وجعلوا من هذه الأهداف قضيتهم المشتركة ، بالهدوء والاعتدال والحكم الصائب من جانبه فى كل تصرفاته والمثابرة المستمرة الوقورة كى يجعل من الايمان الذى يحس به بين جوانحه عملا ينبض بالحياة وواقعا ملموسا ، كانت حرفته نساجا فى مصنع فرأى المتاعب وسوء الصحة بسبب نظام العمل الطويلة فى جو ملوث ، وكان له دورا بارز فى حركة المطالبة بقانون العمل عشر ساعات ، وألقى كثيرا من الخطب فى الاجتماعات العامة وجمع الاكتتابات لهذا الغرض ، وكان جهاده جله بين مواطنى روتشديل ، وأوفد الى لندن كمندوب ليتحادث مع أعضــاء

البرلمان ويراقب مشروع القانون أثناء مناقشته امام مجلس العموم ، وكان أصحاب العمل ضد هــذا القانون لأنه تدخل تشريعى فيما بينهم وبــين عمالهم ، وفى إحــدى المناسبات استدعاه أصحاب العمــل الى مكتبهم واقترحوا أن يستدعوا العمال واحدا واحدا بينما هو فى المـكتب ويسألوا كل واحد منهم عما اذا كان يوافق على تخفيض ساعات العمل الى عشر ساعات مع تخفيض الأجـر بما يوافق ذلك ، وبهذه الطريقة يمكن التأكد مما اذا كانت أغلبية عمالهم تؤيد القانون المقترح ، ووافق مستر هوارث بشرط أن يسمح له بالاجتماع بالعمال فى إحدى قاعات المصنع ليشرح لهم الأمر ، ولم يوافق أصحاب العمل ، وهكذا لم يقع اجتمــاع وبالتالى لم يحدث استدعاء للعمال الى المـكتب ، ورأى صديقنــا شرورا كثيرة فى المجتمع وأخذ يبحث عن علاج لها كمصلح ماهر ٠

فـكان الوسطاء يستولون على جزء كبير من كسب النــاس الذين كانوا مدينين أيضا لأصحاب الحوانيت ، ومن ناحية أخرى كانت تفرض عليهم أغذية مغشوسة ضارة بصحتهم ، وللتغلب على هذه الشرور رأى مستر هوارث أن الطبقات العاملة يجب أن تصبح مالـكة للمتاجر التى تشترى منها وموردة لنفسها ، وقام بنفسه بوضع معظم قواعد جمعيــة الرواد ، وهو الذى اقترح مبدأ توزيع الأرباح بنسبة معاملات كل عضو ، كما أن القواعد التى وضعها للجمعية تنص على أن تدار الجمعية بمعرفة أعضائها عن طريق لجنة منتخبة من الأعضاء ، وساعد مستر هوارث أيضــا فى وضع دستور جمعية مطحن القمح بمقاطعة روتشديل ، كما ساعد فيمــا بعد فى إنشاء الجمعية التعاونية للجملة بشمال انجلترا بمانشستر ، وكان واحدا من أوائل أعضاء مجلس الادارة ، وظل حتى وفاته عضوا بمجلس ادارة شركة التأمين التعاونية ، وكان فى الحياة العامة مواطنا نافعــا ، وفى الدين مفكرا حــرا وفى السياسة والاجتماع تقدميا ومصلحا وكان زوجا صالحا ووالدا صالحا وصديقا مخلصا ٠

ولم يمض طويل وقت حتى احتاج مستر كوبر الى صديق يتحــدث على قبره هو وكان واحدا من « الثمانية والعشرين » ، ونشرت صحــف روتشديل تقارير مطولة عن الاحتفال بدفنه ، لـكن أكثرها دقــة وأكملها ما ظهر فى جريدة سوشيال إكونومست **Social Economist** اللندنية

وكان محررها فى ذلك الوقت مستر ۰۱ و۰ جرينـــج (وقد توقفت عن الصدور بناء على ترتيبات بموجبهـــا تصبح جريدة الأنبـــاء التعاونية Co-operative News الجريدة الناطقة باسم التعاون رسميا)

ومات مستر كوبر فى شهر اكتوبر التالى لوفاة مستر هوارث ، وكان مستر كوبر اول صراف لحانوت تود لين ، وكان يحمل النقود الى البنـك عندما كانت قليلة وخفيفة الوزن حتى ليستطيع أرنب حملها ، وكان يحملها وهى كثيرة وثقيلة على جسم حاملها وهو ما حدث لمستر كـوبر ، وكان يقال فى القصص ان رياضيا قديما كان يدرب نفسه بأن يحمل عجلا صغيرا كل يوم وهو ينمو فاصبح قادرا بعد ذلك على أن يحمل بقرة ، لـكن مستر كوبر لم يكن حسن الحظ كهذا الرياضى فلم تزد قوته مثله ، وقد مات بحمى التيفوس ، وكان قد فقد ابنا له مات بها ، وأصيبت بها مربيتـــه (وهى قريبة لمستر كوبر) ثم زوجته لـكنها شفيت ، ثم أصيب مستر كوبر وشفى ثم انتـكس لمبادرته بالحركة قبل أن يشفى تماما ثم مات فى ۳۱ أكتوبر ۱۸٦۸ فى مسكنه بشارع أولدهام بروتشديل ۰

وقالت روتشديل أوبزرفر « فاجأت وفاته البلدة » ومعنى ذلك أن كل البلدة تعرفه وهذا صحيح ، ودفن فى مقبرة روتشديل ونظمت الجمعية له جنازة عامة ، وكان الجو سيئا والمطر ينهمر قويا بلا رحمة ، وســـار موكب الجنازة واجتمع الناس لمشاهدته فى نواصى الشوارع وأغلقت المنشآت التعاونية ونـكس العلم فى أعلا بناية الحانوت المركزى فى تود لين ۰ وكان موكب الجنازة كالآتى : مستر ج۰ ج۰ هولى أوك ، مستر لويد جونز ، مستر جيمس سميثز ، مستر أبراهام جرينوود ، مسز كوبر والأسرة ، الـكتبة ، رئيس وأعضاء لجنة جمعية الرواد ، لجنة المـكتبة ، لجنـــة مصانع ميتشل هاى ، لجنة جمعية المطحن ، مستر وين ناتال وآخرين ، مديرو الأقسام المختلفة ، والعمال التعاونيون ۰

ورغبت مسز كوبر الى جـــورج جيكوب هولى أوك كصديق قريب لمستر كوبر أن يتـكلم على قبره ، لـكن لغزارة الأمطار ألقى الخطاب فى كنيسة المقابر ، وجاء فى الخطاب الذى ألقاه من على المنبر ما يأتى :

« نخرج اليوم عن الاحتفالات المعتادة فى مثل هذه المناسبات تفضيلا لغيرها ، حيث نراها نحن الذين ننتمى الى مدرسة الفكر التى ينتمى اليها مستر كوبر اكثر بساطه وصدقا ، ولم أحضر منذ سنوات كثيرة دفن اى انسان ولو كان من اقربائى الذين احسست فى موتهم أسفا أعمق أو اكثر حدة مما شعرت به إزاء موت مستر كوبر ، وفى هذا الجمع كثيرون سيصيرون أسماء كريمة فى تاريخ التعاون ، لكن أعتقد أننى أستطيع القول بلا خطأ أن لا أحد سيكتسب هذه الكرامة بصبر أعظم ولا تضحية أكبر ولا جهد مستمر أدوم مما فعل مستر كوبر ، وقد اعتدت أن أنظر اليه كخادم للتعاون لا يكل عن أشق العمل ، وعندما كان يأتى الى لندن زوار من الخارج ويطلبون منى معلومات عنه أو خطاب تعريف اليه كنت دائما على ثقة من أنه سيكون فى خدمتهم بكل اخلاص ، وكان بواعث ارتياحى وفخرى بروتشديل أن بها أفرادا أكثر من أى بلدة أخرى يهتمون بالمبادىء التى اختاروا مناصرتها بل ويتحملون صعوبات جمة لنشرها ، ولم يكن كوبر خادم التعاون فحسب بل كان رجل الاعلام فيه مستعدا لتقديم كل خدمة على أى وجه ، وطالما تعجبت من طريقته وجهده الذى لا يكل فى كتابة الخطابات وكأنها المهمة التى فرضها على نفسه ، فقد كان له غرام بكتابة الخطابات وهى إحدى مميزاته ، فكل من يريد المعلومات يستطيع أن يجدها عند كوبر الذى لم يوفر على نفسه أى جهد ولا تعب بل كرس كل أوقات راحته وفراغه صباحا وظهرا ومساءا وفى نهاية الأسبوع ليرسل الردود بلا استياء ولا شكوى الى اى شخص مهما كان لا يعرفه ومهما كان بعيدا وفى أى ركن من أركان هذه البلاد أو فى أى ناحية من العالم مادام يكتب اليه طالبا انباء عن التعاون ، فهذا العمل الذى قد لا يلاحظه أحد ، وهذا الجهد الذى لا يفكر فى بذله سوى القليل من الناس ولا يؤديه غير اقل من هؤلاء ، ولا يقدره الا اقل القليل ، كان يبهج كوبر ويملأه فخرا وهو يسبغ عليه الكثير من الفضل بلا شك ، واهتم بنشر المعرفة عن عدالة التعاون على أوسع نطاق لأنه رأى أن العدالة هى روح التعاون ويريدها أن تسود ، وكان يقدر أعظم التقدير الفوائد التى تجنى من المبادىء التعاونية فى المجال المعنوى والأخلاقى أكثر من مجرد الفوائد المالية التى يحققها ، ومن يصنع الآن ما صنعه طوال كل هذا الوقت وصنعه جيدا ؟ وكانت خطاباته بالضرورة مكررة ومعادة لكنها مباشرة وفى الموضوع

وبها معلومات مكتوبة لقصد وغرض ويمكن الوثوق بهـــا والاعتماد عليها دائما ، ويستحق مستر كوبر منا تقديرا آخــر للخدمات التى كانت من مصادر ارتياحه فى سنواته الأخيرة ، **فعندما كانت قضية حرية الرقيـــق فى الميزان وتوقفت على ما يمكن أن تفعله الطبقات العاملة فى هذا الجزء من انجلترا اظهر من الحماس ما يثير اعجاب اى امريكى من انصار إلغاء الرق ، وعمل على توجيه الرأى العام الوجهة الصحيحة فى هذا الشأن برغم انه لم يشاهد أبدا ملايين التعساء من النـــاس الراسخين فى الرق والذين قد يقعوا فيه لولا الموقف الذى تتخذه هذه البلاد والشعور الذى تشعر به ، وكان حماسه وعطفه شخصيا ومستمرا ، وبعد أن اختار مبادئه قدمها للناس ، ولابد أن ما فعله ملأه ارتياحا وهو يواجـــه الموت ، فلا أعلم صحائف أعمال يمكن أن يقدمها انسان فى الحياه الآخرة اصدق من حياة من العمل الصادق المخلص المقصود به نفع الناس** ، وشهدنا عندما قدمنا هذه البلدة ان أعدادا من الناس تجمعوا برغم اكفهرار اليوم وعدم ملائمته للخروج ليروا جثمانه محمولا الى مثواه تعبيرا عن الاحترام والتقدير الذى يكنهما له اهل بلدته ، وسيشعر التعاونيون فى كل مدن بريطانيا العظمى والمانيا وفرنسا وأمريكا وفى كل مراكز التعاون الناهضة بأسف شـــديد لموته ، وسيلقى من كانوا قريبين اليه واعزاء عليه شيئا من العـــزاء لأن خدماته التى اداها بكرم كانت نافعة على نطاق واسع وعرفت على نطاق واسع ولقيت التقدير على نطاق واسع » ٠

واقتبس محرر جريدة التعاونى فى اعلانه عن وفاة مســـتر كوبر الأبيات التالية :

« لا موت هنـــاك ، وما يبـــدو كذلك هو انتقال
فهذه الحيـــاة من انفـــاس المـــوت
ليســـت الا من ارباض حيـــاة الفردوس
التى تســـمى بابهـــا مـــوتا »

"There is no death : what seems so is transition ;
This life of mortal breath
Is but the suburb to the life Elysian,
Whose portal we call death.

ولنتأمل ان يكون ذلك صحيحا ، لأن التعاونى الجاد المتحمس مثـل كوبر يستحق دخول الفردوس وهنــــاك لو ان بجانبه مكتب بريد فسوف يسعده ان يقدم لـكل واحد على سطح هذا الـكوكب ما يريد من بيانات عن التعاون ٠

وجاءتنى الأخبار بموت صمويل آشورث فى خطاب أرسله مســـتر ناتال ، واثبته فيما يلى لأنه يحتوى حقائق تشرف مستر آشورث غـــير مذكورة فى أى مكان آخر :

« مات صمويل آشورث ، اصغر « الثمانية والعشرين » فى روتشديل سنا ، فلم يتم سوى ٤٦ عاما ، وظل مندوب مبيعات جمعية رواد روتشديل ومديرها لمدة عشرين عاما ثم ترك هذا المنصب ليتولى آخر من ارفع المناصب فى دنيا التعاون ، اى منصب مدير الجمعية التعاونية للجملة بشمال انجلترا واحتفظ بهذا المنصب الى وفاته ، وفى كلا المنصبين اكتسب اصدقاء كثيرين واشك فى انه اصطنع اى عدو ، وعندما ترك جمعية روتشديل (عام ١٨٦٦) كانت بياناتها كالتالى : عدد الأعضاء ٦٢٤٦ عضوا ، رأس المال ٩٩٩٨٩ جنيها ، الحركة السنوية ٢٤٩١١٢ جنيها ، الربح ٣١٩٣١ جنيها ، وفى عام ١٨٧٠ أى بعد أربع سنوات حدث التراجع التالى : عدد الأعضاء ٥٥٦٠ عضوا ، رأس المال ٨٠٢٩١ جنيها ، الحركة السنوية ٢٢٣٠٢١ جنيها ، الربح ٢٥٢٠٩ جنيها ، وستشعر جمعية الجملة بخسارة فادحة لموت آشورث فقد كان موضع ثقة من الجميع المشترين والرؤساء والمرؤوسين ، وكانت نصيحته موثوق بها ومحترمة وقلما اخطات ، وعندما تولى الشراء لجمعية الجملة كانت حركتها السنوية فى حدود ١٨٠٠٠٠ جنيه وبلغت عند وفاته ٨٠٠٠٠٠ جنيه ، ورغم انه لم يشارك فى إنشاء الحركة إلا انه حين تولى منصبا يمكنه من خدمتها بخبرته العملية وامانته وسلامة حكمه وحزمه بلا اساءة استطاع أن يؤدى تلك الخدمة على اكمل وجه ، وقد تربى فى عالم السوق ولم يكن رجل نظريات لكنه كان نصيرا نافعا لأصحاب النظريات ومعينا لهم فى وضع نظرياتهم وانضاجها ، وكان يكره التغيير ودعاة التغيير ، وكانت له معتقدات قوية وثابتة كثيرا ما اتعبت خير اصدقائه ، ولم يكن على ظهر الدنيا اخلص منه عاملا ، ومات صباح أمس وترك تســـعة من « الثمانية

والعشرين ، الذين يعرفهم الناس بأنهم حركوا العالم ، وفى غضون ثلاث سنوات ارتحل منا :

تشــــارلز هورث	٥٠ عاما
وليم كوبـــــر	٤٦ عاما
جيمس سميثز	٥٠ عـامـا
ميلز آشورث (الأب)	٧٦ عاما
صمويل آشورث (الأبن)	٤٦ عاما

كانت لمستر ناتال موهبة الأرقام ، فأوضح مزايا مستر آشورث بعرض من الحقائق المالية ، مبينا ما طرأ على الجمعية التى تركها من انكماش وعلى التى التحق بها من نمو ، ولو كان مستر ناتال رسولا لجارى المسيحية بعدد معجزاتها ، لكنه يقدم بياناته بصورة يسهل علينا جميعا فهمها ، ويقول : **إن موت مستر آشــورث فتح ثغرة أخرى فى صف التعاونيين المشــهورين بروتشديل ، ويموت كثير من الناس فلا يحدث موتهم أثر ما ، لكن عندما يموت رجل مثل آشورث فالأمر جلل ، فالناس يفتقدونه وعندما يفتقد الناس أحدا فمعنى ذلك انه متميز وجدير بالمديح ٠**

ورحل أيضا جيمس سميثز الذى يمكن أن نقول عنه انه رئيس الرواد المحاربين ، ففى سنتى ١٨٥٦/٥٥ كان هناك صراع دائم ضد فرض ضريبة الدخل ، وكان مستر سميثز يختار دائما ليخوض المعركة فى المحاكم وأمام مفوضى الضرائب ، ويبدو أن اللجنة تعبت من كل الأوراق التى قدمتها بلا نتيجة ولا ثمرة فأصدرت القرار التالى : « عدم دفع ضريبة الدخل إلا إذا الزمنا بذلك » وبعد ذلك بأسبوع صدر قرار أقل حدة : « ليأخذ مفوض ضريبة الدخل طريقه » وفعل المفوض ذلك ثم كف عن هذا العمل المتعب ، لأنه تلقى ٦٠٠٠ خطاب كطلب رد قيمة الضريبة ، وبحثها ورد المبلغ المحصل بغير وجه حق ليس بالمهمة المريحة(١) ٠

---

(١) ماذا تكون الحالة فيما يتعلق بروتشديل حيث ٦٠٠٠ تعاونى إذا فرضت ضريبة على المعاملات مع الجمعيات ؟ سيقوم مديرو الجمعيات باخطار الاعضاء وبعضهم لا يخضعون للضريبة لصغر دخلهم بأن يطلبوا استردادها لأنها دفعت على نصيبهم من الربح ، ورأى رجال الضرائب أن فرض هذه الضريبة سوف يسبب لهم متاعب تفوق قيمتها ولذا فكروا بحكمة وقرروا تحصيلها ممن يخضعون لها فرديا بدلا من تحصيلها من الجمعية ــ خطاب أ٠ د٠ جريننج أمام جمعية الفنون بلندن ٠

وكان جيمس سميثز الوحيد الثمين الى « الثمانية والعشرين » الذي نال تكريما من البلدية فكان في سنواته الأخيرة عضوا في مجلس البلدية ، وكان أعظم الرواد من بعض النواحي ، فلولا هو لضاعت جهود مستر موارث في صياغة المبادىء سدى ، وبدونه لما وجد مستر كوبر مجالا للدعاية والإعلام ، ولولاه لاضطر مستر جرينوود أن يجاهد مدة أطول حتي يتمكن من اقامة جمعية الجملة ودفعها في مسيرتها ، فقد استطاع بروحه المتفائلة أن يحافظ على التعاون في الزمان السيء ، وجعل الجمعية تبقى بمرحه وبث الشجاعة في الخائفين والمرح في العابسين وحفظ الجمعية وحدة واحدة دون تمزق بفضل طبيعته المرحة والمتفائلة وتسامحه في حكمة ، وصبره بلا حدود إزاء الغباء والجهل والاستياء مما اكسبه نفوذا عظيما أبقى على الجمعية ٠

وكان أول صديق لى من الرواد ، وفى بيته كان لى مأوى في السنوات الأولى المبكرة حين كنت محاضرا متجولا في روتشديل ، وإليه يرجع إيماني بنظرية أن الناس في روتشديل يختلفون عن غيرهم في أنحاء انجلترا الأخرى من حيث طبيعتهم الإنسانية ، والواقع أن سميثز هو الذي صنع هذا الفرق ، فأي مرح احسسناه ونحن في سلام بجانب الموقد ! وأي أسى شعرت به حين نظرت الى عينيه اللامعتين وهو على فراش الموت ، فلم تستطع سكرات الموت أن تطفىء هذا البريق ولا أن تمحو الأمل ولا نكهة النبل في حديثة عندما أفضى بآخر وصية الى صديق قائلا « الزم تود لين » ٠٠٠ أى وعى وأى حماس ، وأى همة ، وأى عمل شاق مستمر ، وأى خدمات دائمة وأى صدق مشع أبداه ! وكم كان كريما منكرا للذات غير ناظر لنفسه ! وإذا أريد رسم صورة أو نحت تمثال نصفي للرواد القدامى فلاشك أن سميثز هو المثال الأول الذي ينقل الفنان عنه ، وآمل أن يكون عزاء عظيم لمسز سميثز علمها بأن ولاء زوجها وتكريس حياته للتعاون وضيافتها الكريمة لأصدقاء زوجها كل ذلك لم يذهب أدراج النسيان ٠

وينبغي أن نقول شيئا عن مستر الدرمان ليفسى وهو واحد من أصدقاء الرواد في الحقل العام منذ بدايتهم المبكرة ووضع نفسه في خدمتهم طوال أيام حياته ووالاهم بالنصح ودافع عنهم ، وأرى أن اضمن هذا التاريخ تسجيلا لبعض الخطاب الذي ألقي في قاعة البلدة بعد الاحتفال بدفنه وذلك بناء على طلب الرواد كتعبير منهم عن تقديرهم واحترامهم له ، خاصة وإن

هذا الخطاب فيه لمحات من حياته بالبلدة ويلاحظ فيها ملامح نبيلة الى جانب تاييده للتعاون(١) :

ولد مستر الدرمان ليفسى فى ١٧ يونيو ١٨١٥ سنة السلام ومات فى ٢٥ يناير ١٨٦٤ قبل وفاته بزمن قصير كانت تجتاح البلدة رغبة قوية فى انتخابه عمدة لها ، ولولا تداعى صحته لنال هذا الشرف ، وطلب اعيان البلدة فى اجتماع عام أن يعرض مجلس المدينة هذا المنصب عليه ، واتحد المحافظون ضد هذا الاقتراح واستطاعوا قلب الموازين لغير صالحه فلم يكن ليفسى ممن يؤيدونه ، وعقد اجتماع كبير بقاعة البلدة فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٣ لتكريمه وتحدث مستر برايت معترفا بجهوده على مدى ثلاثين عاما ومسجلا هذه الجهود نيابة عن البلدة والطبقات التى لم تنل حق الانتخاب ومات ليفسى بعد شهرين من هذا الاجتماع فاحست البلدة بحزن عميق ، وحتى الحزب المعارض له سياسيا اسف لخسارة هذا الرجل الذى اتصف بشخصية لبقة وشجاعة واصيلة كسب لروتشديل الانتباه والاحترام لأنه اعتبر ممثلا للبلدة وشخصية ممثلة لسكانها .

وكتب العمدة مستر صمويل سكوت خطابا رسميا الى مسز ليفسى وابنتها يعرب على التعزية والأسف لوفاة مستر ليفسى ، ولولا أن مستر برايت قد عاقته واجبات سياسية فى برمنجهام لكان قد حضر الجنازة ، لكنه كتب يقول أنه « يريد المشاركة فى جمع مبلغ من المال لإقامة نصب تذكارى متواضع فوق قبر رجل كان نافعا لبلدته ووطنه واضاف قائلا : كان توم ليفسى ماسة ولو أنها غيـر مصقولة جدا » ، وكتب مسـتر كوبدن من ميد هرست كلمات قيمة فى تأبينه فقال : « ليس من المبالغة القول بأنه أثناء ربع القرن الأخير لم يكن هناك عمال فى روتشديل لم يتوجهوا غريزيا الى مستر ليفسى إذا اصابهم ظلم من اية سلطة طالبين النصح والعون ، وإذا كانت شكواهم عادلة فقد وجدوه صديقا وحاميا نصيحا ومنكرا للذات » .

وكان مسـتر كوبدن برلمانيـا يهتم بكل فـرد وكل طبقة فى دائرته الانتخابية ، ويقول مستر الدرمان ج. ل. آشورث الذى ألقى خطابا فى

---

(١) نشرت مس م. ر. لاهى Miss M.R. Lahee سجلا ممتعا لحياة وزمن الدرمان ليفسى ، عن دار أبل هايوود Abel Heywood and Son, Manchester مانشستر ١٨٦٦ .

افتتاح الحانوت الرئيسى انه اصطحب مســتر كويدن ليرى المكتبة وقاعة الأنباء التابعة للرواد فقال : « هؤلاء التعاونيون لديهم من المزايا مالا يتوافر ولا يفوقهم فيه اى من نوادى لندن » ٠

وفى خطاب وجهته منذ مدة الى الجمعيات التعاونية قلت اننى فكرت فى وقت من الأوقات فى الإقامة فى روتشديل ، وفى الفقرة التالية من حياة ليفسى تفســير لهذا الاختيار ، فقد كان ليفسى يكره كل الكراهيــة قانون الفقراء لأنه يخضع المواطنين الشرفاء لمعاملة عقابية وقاوم بشدة محاولات إقامة بيت للفقراء فى روتشديل أو ما كان يسميه « باستيل » واصر مســتر ماين دارنج مفتش قانون الفقراء عندئذ على إقامة هذا « الباستيل » ، وكان مستر ليفسى ندا لحفنة من المفتشين لكنه نفد صبره ولم يرد اضاعة اسابيع فى المراسلات مع الروتينيين فقرر أن يتصل بقيصر نفسه فذهب الى لندن فى شتاء عام ١٨٥٨ ، وقدمه مستر برايت عضو البرلمان وسير ٠١ رامسى عضو البرلمان الى مســتر ســوذرن ــ اسكورت وكان رئيســا لمجلس قانون الفقراء ، والى هذه المقابلة اشار مستر ليفسى فى فخر واعتزاز عندما كرمه وجهاء البلدة فى قاعتها وقالت جريدة روتشديل اوبزرفر : « ليس افضل من أن نروى الحديث بكلمات مستر ليفسى ذاتها : « قال لنا مستر سوذرن اسكورت : « آه ، لكن البيوت التى لديكم ليست بيوت عمل بل بيوت خيرية فأجبت : « نعم هذه هى الكلمة بالضبط انها بيوت خيرية ولا يقصد منها أن تكون بيوت عمل بالمعنى الذى تقصده بكلمتك ، بل المقصود بها أن تكون بيوتا لمن ليس لهم بيوت من الفقراء » وكانت لحظة من أمتع اللحظات التى أتذكرها حين سمعت مستر اسكورت يعترف بأن بيوت العمل عندنا ليست سوى بيوت خيرية » ٠

وفى يوم الجنازة كانت كل البلدة فى الشوارع تعبر عن تكريمها لذكرى ليفسى ، واجتمع جمع كبير بعد ذلك فى قاعة البلدة وراس هذا الاجتماع مستر الدرمان جورج هيلى وهو زميل كريم لمستر ليفسى فتحدث عن سيرته كشخصية عامة وخدماته فى سبيل الاصلاح الاجتماعى والسياسى ، وفيما يلى خلاصة ما نشر فى الصحف الصادرة يومئذ والتى يبدو انها ذهبت ادراج النسيان اذ ليس من السهل الحصول عليها ٠

« أحب صديقنا مستر الدرمان ليفسى الحياة العامة ، ولم يكن أسعد منه بجوار حياته المنزلية ، غير وقوفه على المنبر العام وعلى رصيف الشارع حيث اعتاد الناس مقابلته ، ولذا فمن المناسب أن نجتمع فى هذه القاعة التى كرمناه فيها أثناء حياته مؤخرا لنثبت أن الكلمات التى قيلت عندئذ لم تكن مجرد مديح سياسى وقتى بل صدى مشاعر حقيقية يدفعها الاخلاص الذى دام حتى بعد أن سكن مقره الأخير ، ونراه دينا فى أعناقنا أن نعبر عن هذه المشاعر ، خاصة ونحن لن نسمع مرة أخرى ذلك الصوت الصادق ونفتقد التعاون القلبى والولاء الذى لا يكل من أجل خير الآخرين ، وكلها صفات نعلمها فيـه جيـدا ٠

« ولم يحدث أن ملأت الشوارع جموع غفيرة فى جنازة أحد سوى فى لندن عندما توارى أحد الرؤوس الملكية مثواها الأخير ، وحمل توم ليفسى — إذا استخدمنا اسم الاعزاز الذى قاله مستر برايت — الى مثواه فى تكريم وتشريف لأنه عاش بين الناس كرجل وحارب من أجلهم كبطل ، ولذا دفنوه كملك ٠

واحسسنا جميعا بالاخلاص والتكريم الذى يشع من الخطابات التى القاها فى المقابر كل من نيافة مستر لويس ونيافة مستر بيرتشل ، ولا نستطيع أن نمر مرورا غافلا عن الشعور المسيحى السمح من جانب نيافة الأسقف دكتور مولز ورث عندما زار مستر ليفسى مرارا فى مرضه ، وأطلق أجراس الكنيسة تدق عند وفاته ، وهى أعمال تساوى أثر عدة عظات ٠ وأكبر مميزات مستر ليفسى لا أنه ينوى فقط أن يصنع خيرا وقد فعل ، بل أن لديه القدرة على أن يكون نافعا الى جانب النية الحسنة ، فلم يكن مصلحا معتكفا الى جوار المدفأة بل ضحى براحته وبوقته وموارده لينجز ما رآه من مصلحة أهل بلدته وأهل وطنه ، وتكلف كثيرا من المتاعب فى سبيل خدمة الناس ، وقد يعتقد كثيرون أنهم يصنعون شيئا عظيما حين يقرأون ورقة تطلعهم على بعض الشئون العامة ، لكن ليفسى كان يضع هذه الشئون ، وتكفل بعمل شاق لا يمكن أن يتم بدونه أى شأن عام يستحق أن يسمى بهذا الأسم ، وكان لا يشعر أبدا بالراحة وهو يعلم أن إنسانا ما يعانى من ظلم يستطيع هو فى ظنه أن يزيله أو يقصر من زمنه ؛ فقد كان له قلب رجولى كريم ٠

وانى اقدر خدمات البلدية اعظم تقدير ، واريد ان اعلى من شانها كثيرا ، فالجماعة هى اصح واغلى جزء من حياتنا فى بلدتنا لانها تسمو بالروح فوق المادة وتجعل الأفراد يبدون اهتماما بالحياة العامة وتحول الحرفى والصانع والتاجر الى مواطن ، ولذا أرى من المديح القول بأن مستر ليفسى يستحق كثيرا من العناية به وبأعماله لأنه كان إنسانا يحافظ على مبادئه ويجعلها تبلغ فى سموها مستواه ، ووقف دائما الى جانب « الميثاق القديم » الشريف وأحب الناس الذين كانوا يريدون شيئا ما ، وأعلم أنه عندما احتاج بعض المنفيين العظام ، وعندما احتاج مازينى أو كوسوت أو غاريبالدى أو لوى بلان الى عون من الرأى العام البريطانى ليرفعوا الأغلال عن أمة مضطهدة ، كان ليفسى ممن يعتمد عليهم فى هذا العون الى جانب بعض الناس فى هذه البلاد ، وكان فى مقدمة من ربطوا بين الحياة العامة فى انجلترا والحياة العامة فى العـالم برابطة حية من التعاوف السياسى ، واستطاعت الطبقات العاملة فى روتشديل أن تجعل من هذه البلدة مكانا مرموقا ، وقد كتبت بنفسى خطابات تقديم لزوار من الأساتذة وعلماء الاقتصاد السياسى من فرنسا وأسبانيا وألمانيا وإيطاليا وروسـيا والهند ، وعندما كان التعاون يدرج فى طفولته هنا كان توماس ليفسى أول رجل من طبقة أصحاب العمل يبذل له تشجيعه وتأييده ، وكان حتى آخر حياته يمثل بحق حكمته ومثابرته واخلاصه كما كان يمثل فى مجتمعه وموقعه أحسن فضائل الذكاء والمعرفة والاخلاص والأمانة التى تمتاز بها بلدته .

ومن بين منجزات حياته العملية يستحق اثنان أن نذكرهما بصـفة خاصة الأول سعيه لإصدار قانون العمل عشر ساعات ، والثانى جهده لتنسيق انتخابات البلدية بطريقة تضمن الديمقراطية ، وكان قانون العمل عشر ساعات من أبرز علامات الإنسانية المحلية لانه أيضا جعل إصدار قانون لتحديد ساعات عمل الأطفال غير ذى موضوع فلم يعد يوجد والد لديه شىء من فهم وحسن إدراك يسمح بأن يعمل طفله ساعات طويلة ، لكن مادام عمل الأطفال حقيقة واقعة فإنه يحسن تقنينه ، وهكذا بذل مستر ليفسى سنوات من الجهد فى سبيل ذلك فصان صحة وحياة هذا الجيل ..

ولا يستطيع غير ديموقراطى يقدر المبادىء التى يعتنقها أن يحارب معركة « الأحيـاء الثلاثة » فى هذه البلدة التى كانت نتيجتها إمتـداد حق

الانتخاب البلدى الى ادنى مما فى اى بلدة اخرى بالمملكة ، واستطاع مستر ليفسى بهذا الإجراء توسيع نطاق الحرية فى البلاد ، وتعنى الديموقراطية احترام حرية الاخرين على قدم المساواة ، وروحها الثقة فى حسن الإدراك واحترام النفس وغريزة النظام بين المواطنين ، وكلما دخل فى حظيرة الدستور مزيد من الناس كلما كان ذلك افضل ، فمن لا تعترف به الدولة لا يكون مسئولا امامها ، فمن الجريمة الإمتناع عن التصويت ومن الجريمة عدم الرغبة فى منح هذا الحق ، وحكم الحزب الواحد يفرض العبودية ، ومن ذا الذى يقول عن عمال انجلترا انهم غير مؤتمنين على حق الانتخاب ؟ فالحكومة تاخذ هذا او ذاك من غمار الناس من الشوارع وفى الأيام المدلهمة ياخذ مكانه فى الصف ليحمى انجلترا بسيفه ٠

وفى سهول هندستان المحرقة ومستنقعات الصين وفى اى موقع بعيد او موحش نجد الانجليزى العادى مستعدا اتم استعداد ليبذل دمه فى شجاعة وبطولة كاى سيد نبيل ، فشجاعته لا تقل عن هذا الأخير وإيمانه لا يتزعزع مثله ، ولا يؤثر فيه الإهمال ولا يعوقه تربص الموت ، اليس الرجال من هذا النوع هم الذين تنحت سيوفهم اسم وشهرة بلادنا وشعبنا ويصفون تاريخنا ، ويحافظون على امبراطوريتنا جديرون بأن يصوتوا على قبـــول او رفض المشعوذ الذى سيجلس فى مقعد مجلس العموم ليفرض علينا الضرائب او يلغيها او يدفعنا الى حرب جديدة ؟ لقد واجه الدرمان ليفسى باستياء هذه التفرقة الكريمة التى تقضى باستبعاد هؤلاء وكانت له « تلك العظمة التى تنتمى الى حياة مبذولة للكفاح ضد باطل قوى »(١) ، وكانت له طبيعة محاربة ويرى الظلم سيئا وكريها يستأصل من يخضعون له ، فكافح وتآمر ضده فى إصرار وارادة ، والصلاة والدعاء يدلان على حسن النية ، والتعزية رحمة ، لكن انبل منهما عمل ياتى بالخلاص ويجعل الحزن امرا لا لزوم له ولا وجود ، واسقاط بناء من الظلم والغطرسة ، واقامة شىء من الحسنى كريم يجلب الراحة عند الموت وحسن الذكر ، ولرب تحسين واحد فى الظروف المادية لإقامة الإنسانية الجديدة بهذا الاســم يعـدل آلاف من الصلوات والدعوات معا ٠

---

(١) جورج اليوت ٠

• وينبغى الا ننسى أن هناك اسهاما واحدا يمكن للجميع أن يؤدوه بدرجات متفاوتة ولو اهملناه لأصبح لا جدوى من اى مديح فى اى شكل ، وهذا الاسهام هو الاستمرار فى العمل الذى بدأه ليفسى بكل قلبه ، واحسن التصفيق لرجل عمل أن نقلده فى عمله •

ونحن نعيش اساسا تحت حكومة رشيدة وعاقلة قد لا تكون بالغة الحد فى ذلك لكن هذا هو الواقع ، ولا نريد شجب الأشخاص بل شجب المظالم والأخطاء ، وليس المطالبون الشرفاء غوغاء بل مدافعون وانصار الحق وهم قلة ويريدهم الناس ، ولا لزوم للثورة الآن فى ميدان السياسة البريطانية ، ولدينا من اجدادنا كثيرون من ذوى الحكمة لا يعلم عنهم الراديكاليون فى مختلف المدن شيئا أو لا يعلمون عنهم سوى القليل ، وقد ارسى هؤلاء اساسا عريضة للحرية فيما بيننا ، ولا نحتاج سوى لإقامة البناء على هذا الأساس ، ولسوف تلبى الطبقات المتعلمة التى تعودت السير على هدى السوابق هذا النداء باستعداد طيب ، كان ليفسى لديه المعرفة ، وبرغم اندفاعه فى الكلام احيانا كان يحترم آراء الآخرين بغريزة السيد المهذب ، ولم اشهد ابدا مثالا على ذلك أوضح مما حدث عندما وقف لآخر مرة فى هذه القاعدة ، **ورايت كيف وقف بسماحة الرجولة وبغير شكوى يذكر هزيمته فى معركة الانتخاب لمنصب العمدة وكيف قبل الهزيمة دون تبرم ورفض ان يجعلها سببا للانقسام فى حزب الأحرار الذى يحتاج الى الاتحاد وضم الصفوف فرايت رجلا ذا طبيعة سامية لا يتوانى عن أن يضع نفسه ومصلحته الشخصية فى موضع أدنى من مصلحة القضية التى يشتغل بها •**

وماذا يمكن ان يدل على الصفات العملية العالية للمصلح اكثر من جهوده الناجحة فى تحويل شركة الغاز من أيدى الأفراد الى يد المجتمع ؟ وفرت هذه الخطوة الناجحة التى تطلب انجازها ثلاث سنوات من الجهد الشاق على البلدة ٣٠٫٠٠٠ جنيه بناء على الحساب الذى قام به مستر الدرمان هيلى فى مناسبة تالية ، وجعلت فى الإمكان ادخال تحسينات قيمة دون حاجة الى فرض ضرائب لهذا الغرض ، ولم يحدث لهذا مثيل فى اى بلدة اخرى بانجلترا وعلى نفس هذا المدى ، ويقدم لنا هذا المثال قيمة أعلى من مجرد التوفير ولو كان مبلغا كبيرا من المال لانه يثبت أن الرديكالية فى اليد الأمينة الحكيمة تصبح عملية ، وأن اكثر المجتمعات ديمقراطية فى

انجلترا هو اعطتها قدرة على الحكم الذاتي ، ويقوى الحجة من اجل الثقة فى الشعب ، ويسرنى أن روتشديل تسبغ التكريم على ذكرى مثل هذا الابن من ابنائها الذى فقدته ، ولو لم يكن الشعور الطيب هو الباعث لكان من حسن السياسة فى هذه الأيام الا ندع القيم الفردية الشخصية تمضى الى القبر دون اعتراف بها ، ومن افضل الأعمال جهد أولئك الذين يريدون الا يضمحل المصلحون ، وفى تجوالى بمدن الأمبراطورية وبلدانها كثيرا ما الاحظ أن الأبناء ليسوا على مستوى الآباء ، ونجد الأسر التى اشتهر بعض أفرادها من الجيل السابق ليس لها نصيب من الشهرة فى جيلها اللاحق ، نعم مازال السباق قائما لكن الروح تذوى ، ومن الضرورى تثقيف الشباب فى النواحى العامة لتكون المثل أمامها ، كما فى مثال مستر ليفسى الذى أكسب روتشديل احتراما كلما عمل باسمها ، واستفاد أهل البلدة أعلاهم وأدناهم من جهوده وستبقى أعماله من بعده ويظل أسمه جزء من أغلى تراث بلدته وثروتها ٠

ولا اتحدث عنه بما تحدثت لأنه كان يشاركنى نفس الآراء التى أعربت عنها احيانا ، لم نتكلم ابدا فى الموضوعات الدينية لكننا التقينا دائما فى ميادين الأهداف المشتركة والخير العام فكانت تلك عقيدتنا الوحيدة ، واعتبرته دائما مسيحيا امينا وسيدا مهذبا يرى فى المسيح خادم الفقراء وفى المسيحية تكريس لمشاعر العطف عمليا من أجل المضطهدين والمعذبين القريبين والبعيدين على السواء مهما كان لونهم او جنسهم ، وعرفته إنسانا كل إيمانه الحق وكل عبادته العمل ، وكل شرفه فعل الخير ، لقد عشت طويلا بما يكفى لادرك أن التعصب وعدم التسامح عرض خارجى لضيق أفق داخلى وعدم ثقة بالنفس ، وعلامة انذار بأن هؤلاء قوم ليس من اللائق معرفتهم ، وكان مستر ليفسى ككل ذوى الذكاء والأمانة يحترم من يتصف بهذه الصفات ٠

« لا يعلمون شيئا يخشونه

ولا يخشون شيئا أن يعلموه »

ونحن الذين قدمنا من مكان بعيد عرفناه كأحد قوى الرأى فى هذه الأنحاء ، واستطاع مستر ليفسى مواطنكم ، الذى اشتهر ببلاغته فأضفى على اللغة الانجليزية جزالة جديدة ، أن يضع كلمات متينة راسخة فى المواضع القلقة ليساعد البلاد على العبور الى أغراضها والى سياسة محددة للحرية ، وعندما كان الموقف يستلزم رجلا واضح الهدف كنتم تتلفتون حولكم

فتجدوا مستر ليفسى دائما فى المقدمة ، وكان كل من يقصدون عمل حسن يعتمدون على تعاونه ، وكان كل من يقصدون الشر يخشون معارضته ، وكثير من الناس من لهم ضمير لكنه يتعثر فى خطواته وكثير لهم إرادة عادلة لكنها ضعيفة ،ويمتلىء العالم بأناس ليسوا ذوى قصد سىء فى الواقع ، لكن الخطأ فيهم انهم لا يقصدون شيئا بالذات وعندما يعملون ـ أن عملوا ـ يعملون لأنفسهم فحسب ، فإن رأوا إنسانا فى الماء يمدون إليه يد المساعدة لكن بشرط الا يتكلفوا تعبا كثيرا ، ولا يرون لماذا ينبغى عليهم بذل المساعدة ، قد يشعرون بالأسى لهذا المخلوق لكنهم لا يخاطرون أدنى مخاطرة لانقاذه ، ويرون الناس يصارعون الفاقة بلا خلاص ، ويركعون فى جهل لا يؤذن بنهايته ، ويعيشون فى ظروف غير صحية يجب أن تتحسن فورا ويعانون تحت ضغط قوانين لا تتسم بالمساواة اناخت على آبائهم وسـيرزح تحتها أبناؤهم لكن هؤلاء الناس لا يبذلون عناية ولا مالا ولا وقتا ولا جهدا لتفيد كل ذلك ، وطالما هم فى بحبوحة ورخاء فليتركوا الأمور تتغير كما يحلو لها ، وليتعذب من يتعذب وليقدم المساعدة من يريد ، ولا علاقة لهم أبدا بالاجتماعات المجهدة ، ولا المطالبات والمثابرة عليها ولا الجهود الشاقة المكلفة التى بها تتحسن الأوضاع الاجتماعية ، وإذا أردت أن تعرف ما عدد هؤلاء أنظر الى أى قضية وحاول أحصاء عدد من لا يساعدونها أو أذهب الى أى اجتماع عام له غرض نبيل وقم باحصاء من تعلم أنهم غائبون عنه وستدرك عندئذ أى صنف من الناس بلا قلوب انت تعيش بينهم ، صنف لا تدين لأحد منهم بخير ولا تشعر نحوهم بأى حب ، وإذا ماتوا لا نفتقدهم ولا نحزن عليهم ولا يعنى أحد بهم ولا يبحث أين دفنوا ، ولا تثير قبورهم عاطفة ولا تدفعنا لنعرف عنهم شيئا ٠

وفى خضم الظلام ما يكاد إنسان يحمل دوافع نبيلة يظهر حتى يعرفه الناس من النور المعنوى الذى يشعه ، بل ان طريقه يضىء من أثر خطواته ، ويتحول كل مكان يعرفه الى موضع سار من جراء أهدافه التى لا تعرف الأنانية وعنايته بخير الآخرين ، وتعمل كلمات العطف التلقائية التى ينطبق بها على وقف الجريمة لدى الجاهل ومنع اليأس لدى المتعلم ، وتصبح جهوده اليومية فى خدمة الآخرين ـ برغم التعب والانكار والألم والخسارة ـ عبادة وترانيم وصلوات ويصير قبره مقدسا ، ويحس زائره أنه يطأ ترابا شريفا لرجل شريف ، وتصبح تلك البقعة موضع الهام لمسـتقبل أفضـل ، ونتذكر

مثل هؤلاء الناس فى أوقات الاحباط والحزن التى تطرأ على حياتنا ، نتذكرهم باحساس الخلاص من كل ذلك ، ونتوجه اليهم باحترام وتقدير لهؤلاء الموتى الكرام »(١) ٠

وإذا تحدثت عن نفسى مرة فى هذه القصة فإنى أريد أن أقص مناسبة أتذكرها بفخر ، فعندما قابلت مستر كويدن بعد ذلك فى مجلس العموم حدثنى عن ليفسى باحترام شديد ، وقال انه قرأ هذا الخطاب وأثنى عليه بطريقة سرتنى جدا ، وظل يولينى صداقته حتى نهاية حياته ، وآخر كلمة أذكرها عنه كانت فى اجتماع بقاعة المطحن بروتشديل حيث خطب لآخر مرة قبل وفاته ، وأذكر أنه قال لى فى ذلك المساء « تعال معى واسمح بأن أقدمك الى شاب ينتظر منه خير كثير فيما اعتقد » وكان هذا الشاب مستر هنرى فاوسيت الذى عرفه الجمهور منذ ذلك الحين بأسم بروفيسور فاوسيت عضو البرلمان ٠

---

(١) فايس ـ الى تيودور باركر ٠

الفصل السادس والعشرون

مؤتمر روتشديل عــام ١٨٩٢

THE ROCHDALE CONGRESS OF 1892

كنت أحد المتحدثين فى العيد الرابع والأربعين لجمعية روتشديل ، وإصدر الاجتماع الكبير قرارا بناء على اقتراح من توماس تشيتهام وأبرام جرينوود بارسال رسالة ودية الى مستر برايت :

« يود هذا الاجتماع الذى يحتفل بالعيد الرابع والأربعين لجمعية رواد روتشديل العدول أن يرسل الى مستر برايت كلمة تبجيل على صداقته وحسن جواره ونصيحته للرواد الأوائل ومساعدته لهم فى البرلمان من أجل الحصول على حماية قانونية لجمعيات المساعدة الذاتية فى أيامها التى افتقدت فيها الأصدقاء ، ويرسل اليه أعضاء جمعية روتشـديل تمنياتهم مع الاعتراف بالجميل ويعلمون انه يستند الى إيمان نبيل وضمير تثريه الاف من الخدمات التى قدمهـا لمن يقيمون فى بلدتنـا أو يعملون بها ، وينبغى أن تطول أيام من يمنح قواه لمنفعة الناس فى هذا البلد ، ويسر من يرسلون إليه هذه الرسالة ان يعتقدوا أن أيامه سوف تمتد طويلا » .

وكانت تلك الرسالة الوحيدة لمستر برايت فى مرضه الأخير ، وقد سر حين تلقى رسالة الرواد ، وعندما زرت روتشديل قبيل ذلك رأيت مستر برايت لآخر مرة وأطلعنى على الهدايا التى تلقاها من أمريكا وحدثنى عن ويندل فيليبس وغيره ممن سبق لى زيارتهم فى أمريكا ، وأشار الى صور أعضاء أسرته الذين أعرفهم وهى معلقة على الجدار ، وفى يوم تلك الرسالة ذهبت الى منزله وأوقفت العربة بعيدا لأننى علمت انه سيسمع عجلاتها على الأرض وسيسأل عن ذلك بينما الراحة خير له ، وأردت أن يعلم بزيارتى عرضا .

وفى عام ١٨٩٢ بعد ٤٤ عاما من إنشاء الحانوت عام ١٨٤٨ ، جاء المؤتمر التعاونى الذى كان يعقد جلساته متنقلا فى أنحاء المملكة المتحدة الى روتشديل لأول مرة لينعقد هناك .

زيارة لقبر مســـتر برايت

قالت جريدة روتشديل أوبزيرفر أنه بعد افتتاح معرض المؤتمر يوم السبت ٤ يونيــو ذهبت جماعة عــددها نحو ٣٠ شخصــا من التعاونيين المخلصين ومن الراديكاليين على رأسهم مستر ومسز هولى أوك ومس أ٠ ١٠ هولى أوك لزيارة قبر مستر جون برايت فى مقابر « الأصدقاء » فى مكان هادىء ومنعزل وغير مظهرى بالقرب من مبنى الاجتماعات فى شارع جورج ، ووقفوا عند قبر مستر برايت وألقى مستر هولى أوك الكلمة التالية :

« ها هو قبر الرجل العظيم ، وقد وقفت مرة معه على قبر أخته ووجدته كما نعرفه جميعا بسيطا بلا ادعاء ، ويجب على التعاونيين أن يزوروا هذا القبر لسبب واضح هو أن مستر برايت كان المدافع الفعال عن التعاون فى البرلمان وأول من رفع صوته هناك نيابة عن النظام التعاونى ، وكان يؤمن بمبدأ المنافسة ويرى انه يؤدى للعدالة ، لكن إذا تحققت العدالة بوسيلة أخرى فلا بأس ، **وكان يعنى اشد العناية برخاء العامة كما هو مسجل على النصب التذكارى المقام له فى الميدان الذى مررنا به توا ، ولم يتكلم عن الأغنياء بل عن الفقراء الذين لن يمكنهم أن يعطوه مقابل جهده من أجلهم ، ويقول كارليل « لا يمكن للمرء أن يكون قديسا وهو نائم » لأن خدمة الوطن كما خدمه باريت أمر غيــر مســتطاع إلا إذا قام بــه قديس مســـتيقظ ،** وأراد من التعاون أن تعقب الكلمات الطيبة أعمال مثلها ، وكان مستر برايت من الأشخاص القلائل فى البرلمان الذين يمكن القول عنهم بأنهم ذوى ضمير ، ومن هذه الطبقة كان هو وجلادستون وكويدن وستانسفيلد وتريفيليان ولا أقول بأنه لا يوجد غيرهم من ذوى الضمائر ، لكن لو كانوا كذلك فأنهم لم يبدوها واضحة فى ميدان االأعمال العامة بحيث نعرف عنهم هذه الحقيقة ، وكان مستر برايت موضع الثقة لأن ضميره كان ظاهرا فى الخدمة العامة ، وعلى الذى يبغى الإلهام بحثا عن المبادىء أن يأتى الى هذا القبر ، وكان مستر برايت الشخص الرئيسى الذى تتجه إليه الهجمات سواء فى المعارك العاصفة ضد الرق أو من أجل حقوق الانتخاب ، ورأيت طوال السنتين الأخيرتين المحافظين والأحرار ذوى الميول المحافظة يهاجمون مستر برايت بشدة فى مجلس العموم حتى ليبدو أن من الكارثة على أى قضية عامة أن يقف بجانبها ، لكن خصومه كانوا دائما مقتنعين برأيه ومع ذلك يصرخون عاليا ليداروا

تلك الحقيقة ، وما اقل الذين يتحملون المتاعب ليحققوا مزايا لا يحتاجون إليها هم انفسهم ، ومنهم مستر برايت ، وهل اكثر نبلا من صاحب مصنع مثله ينشد ان يعيد للعمال حق المشاركة فى الربح الذى حرموا منه فى مصنع ميتشل هاى ؟ ولو استقر هذا المبدا عمليـا لرايناه يدخله فى مصـانعه الخاصة فى كونكى شو كما فعل ابن صديقه العظيم توماسون فى مصانع بولتون ، وخير ما نفعل على الصعيد الشخصى والصعيد العام أن تأتى لهذا القبر لنقر باحترامنا ، وقد كان ذوقه الكريم يدفعه للإقامة بين قومه وطبقا لرغبته دفن أيضا بينهم ، وأسبغ على روتشديل من شهرته وعلى وطنه من خدماته » ٠

قبـــور قدامى الـــــرواد

وفى القداس الذى اقيم فى اليوم التالى فى كنيسة الابرشية تفضل نيافة الأسقف ويلسون بأن أعلن فى نهاية القداس أن مستر هولى أوك ينوى زيارة قبور قدامى الرواد ويدعو من هم على مثل رأيه أن يقابلوه على أبواب الكنيسة ٠

وعند وصول المجموعة الى المقابر اتجهوا الى قبر وليم كوبر أول صراف للجمعية ، وقال مستر هولى أوك أنه دعا أمس المنـدوبين الذين حضروا المؤتمر ممن يقدرون مستر برايت من صميم قلوبهم لمرافقته فى زيارة قبر هذا الرجل العظيم الذى جعل للسياسة ضميرا ٠ أما كوبر وسميثز الذى سيزورون قبره بعد ذلك فقد وضعوا « الضمير فى التعاون فى دائرتهم » ٠

جعلوا المبدأ أولا ، ولم يعنوا بأجور العمل فحسب بل عنوا بتحرير اليد العاملة ، وواجه كوبر المخاطر فى تلك الأيام اكثر من أى إنسان آخر واهتم بالجمهور اكثر من اهتمامه بنفسه أو بصداقاته ، وكان دائما على استعداد لحضور الاجتماعات والخطابة فيها والتحدث والكتابة دفاعا عن ليبرالية التعاون والعمل ، ومنذ عشرين عاما أو اكثر جاء عدد كبير من الناس الى هذا المكان عنـد وفاته ليكرموا ذكـراه ، واهتموا به لأنه كان مخلصا كل الاخلاص ولأن مبدأ التعاون الذى يعتنقه يعنى المساواة لا فى المتجر فحسب بل وفى المصنع ٠

« يا كوبر ! إذا لم تستطع أن تسمع أصواتنا فوق قبرك فقد أتينا لنخبرك أن مطالبتك بالعدالة للعامل المظلوم لم تمت وأن ذكرى حماسك النبيل مازالت تعيش فى قلوبنا وكما ظلت نيران مونتزوما(1) Montezuma مشتعلة لثلاثة قرون فى معبد أتباعه ، فمازال ضوء مثالك منيرا فى معابد العمل المتجهمة والخالية من الزينة لكنها ليست أقل قدسية » كما قال سيد هذا الوادى العظيم للإغريق :

« عندكم رقصة الحرب ما تزال

فاين ذهبت فيالق الحرب ؟ »

ولا تقل معارك العمل عن معارك الحرب نبلا وان كانت أقل كلاسيكية ، ونحن نطلب من مواطنيك يا كوبر ونحن قيام على قبرك وهم الذين ينتفعون الآن من جهودك المنكرة للذات :

« عندكم حانوت تود لين مايزال

فاين ذهبت ورشة تود لين ؟

لماذا تنسون من هذين الدرسين

انبلهما واكثرهما رجولة ؟ »

"You have the Toad Lane Stores as yet,
Where is the Toad Lane workshop gone ?

Of two such lessons why forget
The nobler and the manlier one ?"

« ولنأمل من التعاونيين فى روتشديل الذين علموا الناس درسا نبيلا فى الماضى الا ينسوا « الأكثر رجولة » فى المستقبل » .

وتقول جريدة أوبزيرفر أن بالقرب من مدخل الكنيسة يوجد قبر جيمس سميثز وإليه ذهب الجميع بناء على طلب مستر هولى أوك فلما وصلوا عنده قال مستر هولى أوك :

---

(1) مونتيزوما : امبراطور المكسيك المتحضر الذى عاش فيما بين ١٤٦٦ ـ ١٥٢٠ ، وحكم المكسيك فيما بين ١٥٠٢ ـ ١٥٢٠ . وأثناء حكمه حدث الغزو الأسبانى للمكسيك عام ١٥١٩ بقيادة كورتيز ، وتسبب هذا الغزو فى قتل مونتيزوما أثناء الحرب .

« قال أحدهم منذ أيام أن سميثز ألقى بنفسه فى الحركة ، لكنه فى الواقع فعل أكثر من ذلك لأنه صنع الحركة ، فلم تكن توجد حركة ما يلقى الإنسان بنفسه فيها أيام سميثز وكوبر ، **وكان سميثز زعيم الرواد المحاربين سواء على المنابر أو فى المناقشات أو فى قاعات الاجتماعات بمصـانع ميتشـل هاى ، فحيثما تحتاج المبادىء لمن يساندها أو يوجد عدو يجابه ، يوجد سميثز ، وكان يقول فى حيوية أن سميثز أوجد التعاون بجديته وابتساماته ، وكان من تلاميذ روبرت أوين وتعلم أن أخطاء الناس وعداواتهم تنشأ عن حاجتهم الى الذين من العلم أكثر من أن تنشأ عن شرور الذهن** ، وفهم أن البشرية تشكلت بقدر سبقها وأن الرجل الحكيم يجب أن ينظر الى أخوانه من الناس بعين محايدة متسائلا أى مظاهر من الذوق والانكار والسلوك يبدونها ، **وهكذا هو يرى أن الخلق الكريه ليس سوى سوء حظ لصاحبه ويجب ألا يقابل بالغضب بل بالعطف ، فكان يقابل الخطأ بالتعليم لا بالإنكار . ولذا كان دائما مرحا وأهلا للثقة** ، وعندما جاء المساهمون من البلدة الى مصنع ميتشل هاى يجتذبهم أن الفوائد ستدفع لهم مضاعفة وأعانهم قلة من التعاونيين المزيفين فاستولوا على كل أرباح العمال كان سميثز الزعيم الذى تصدى لهم لا فى الاجتماعات فحسب بل فى البلدة ، وكان مثل كوبر يشغل أيامه بحقوق عمال الصناعة ومثله قضى نحبه قبل الأوان ، وانظروا من فوق هذا التل الى أحياء البلدة التى يتصاعد الدخان من مصانعها كما من الحفرة التى لا قرار لها ، وتأملوا فى الكهوف الجهنمية والغبار والشحم والهواء المسمم حيث يقضى العمال سحابة نهارهم ، وتأملوا الشوارع والحوارى المتجهمة الكريهة اليائسة حيث يعيش أسر العمال ، كان سيمثز يهتم بهؤلاء ويرعاهم ويكرس كل طاقاته التى لا تكل من أجل حصولهم على حقهم فى الأرباح الناتجة عن عملهم ، وفى سبيل رفع مستواهم وتحسين أوضاعهم كطبقة نزل سميثز الى قبره قبل الأوان ، ولذا نكرم ذكراه ، ولهذا أتينا الى هنا لنقول له أن أسماء « التعاون » و « المثابرة » التى أطلقها على محركات مصنع ميتشل هاى قبل أن ينقلب على أعقابه ليصبح شركة مساهمة تعبر عن مبادىء فى قلوبنا نساندها كأحسن مساهمة منا فى تكريم الراحلين ، وقد يتساءل سميثز لماذا ينفق النـاس حيـاتهم غيـر البهيجة ليحققوا الأرباح لسواهم دون أن ينالوا هم منها شيئا ؟ ونجيب بأنهم لم يحصلوا عليها بعد ، فلا يوجد فى روتشديل كلها مصنع أو ورشة يشترك العمال فى أرباحها ،

لكن المبدأ لن يموت ، ويبهجه أن كان يسمعنا أن يحس بصوت المساواة والعدالة للعمال يرفع على قبره ، ولا يعتقدن أحد من المجتمعين هنا أن مبدأ ما يمكن أن يحيا ويستمر بلا مساندة ، **ولا تصدقوا أن العدالة ترتفع دائما ، انها لا ترتفع إلا إذا سادت بالجهاد في سبيلها ، وكان الرواد القدامى يعلمون ذلك ، وقد قلت لسميث أنهم لو ثبتوا فلابد أن أجعل قصتهم معروفة للعالم ما استطعت ، وهى الآن قد نشرت بست لغات أوروبية ، فقد كانت بطولتهم التى لم يعيرها أحد التفاتا فى أيامهم هى التى جعلت من روتشديل بلدة يعرفها كل عمال العالم ، ورغم مضى سنوات طويلة على رحيلهم فها نحن نأتى الى قبورهم تكريما واجلالا »** .

وعندما غادر الجمع المقابر مروا فى طريقهم بالنصب التذكارى لتوماس ليفسى فوقفوا عنده بالقرب من المدخل وهناك ألقى مستر هولى أوك آخر خطاب فى هذه المناسبة « **هنا يرقد توم ليفسى المسكين** » كما يدعوه مستر برايت حبا وتدليلا **وقال عنه كوبدن « كان جوهرة غير مصقولة » ، وكان فى الحقيقة كذلك ، ففيه نار ونور لا يمكن لأية ظروف أن تقلل من وهجهما** ، جاء الى لندن عندما عقدت اجتماعات المقاومة لمشروع قانون التآمر الذى قدمه لورد بالمرستون ، ولم يلق أحد خطبا أكثر جرأة وأسلم لغة وأكثر الهاما ، ألم تعرفوه جميعا كصديق للميثاقيين فى البلدة عندما أعوزهم الأصدقاء ممن يشغلون المناصب الرسمية ؟ وكان صديقا للاشتراكيين الذين سبقوا التعاونيين ثم كان الصديق الشخصى للرواد ، كان من أصدقاء الشعب الذين يدافعون عن مصالحه وينسون مصالحهم شأنه فى ذلك شأن مواطنكم مستر برايت ومستر كوبدن العظيم ، وامتاز ليفسى بحبه العميق للمسائل العامة ، ولذا نوجه الى ذكراه تحية مقرونة بالاعتراف بالجميل ، ونترك الآن الرواد الراحلين وصديقهم الكريم :

« ذهب الأفراد المقدســـون
الذين وطئوا معى هذا الوادى الحبيب
الرفاق الأقوياء المنيرين كالنجوم
صاروا صامتين خافضين ممتقعين

"They are gone, — the holy ones
Who trod with me this lovely vale ;
The strong, star-bright companions
Are silent, low, and pale."

خطاب فى قاعـــة الحـــانوت

وفى آخـر مسـاء للمؤتمر عهد الى بالقاء آخــر الكلمات فى قاعـة الاجتماعات الكبرى فى الحانوت المركزى فقلت : « تمنيت أن أعيش حتى أرى مؤتمرنا يعقد فى روتشديل حيث بدأ التعاون كما نعلم ، واستطاع الرواد بوسائلهم أن يسبغوا على الحركة حيوية تجارية لم تعرفها مطلقا من قبل ، بل فعلوا أكثر من ذلك إذ أدخلوا الضمير فى التعاون وهو إن كان أبطأ نموا من الربح فهو أكثر نبلا وأدوم بقاء ، وكان من السهل فى أيامهم إضافة الضمير فى التعاون ومشكلتنا الآن ابقاء الضمير حيث هو (تصفيق) ، وكان من أفضال الرواد أنهم لم يحاولوا زيادة أجور العمال فحسب بل هدفوا الى تحريرهم ، وبذلوا وسعهم لإقامة الصناعة التعاونية فى روتشديل وبرغم هزيمتهم بقى المبدأ ولم يمت وها هو ماثل الآن فى هبدن بريدج Hebden Bridge ، واستقر أيضا فى هدرزفيلد بفضل مستر رسكن ومستر جورج تومسون ، ونراه فى كوفنترى فى مصانع الجوارب و « ايجل براند » فى ليستر ، وفى كترنج وأماكن أخرى كثيرة ، وكسب فى اسكتلندا اعترافا رسميا واضحا فهناك يتبنى قادة التعاون مبادىء يراها البعض فى انجلترا « مشاعر غير عملية » لكن مشاعر تحرير اليد العاملة حقيقة وجزء من التعاون ذاته ، والواقع أن مبدأ مشاركة العمال فى الأرباح يرجع الى هذه الحركة فى هذه البلدة ، ومصيره الى أن ينفذ على يد هذه الحركة ، لقد بذلنا الكثير لنقر الأمانة والشرف فى التجارة ، وعلينا أن ندخلهما أيضا فى الصناعة ، ذلك لأن الغش والمبالغة فى الثمن فيما يتعلق بالمؤن ليسا شيئا يذكر بالمقارنة بالصناعة والغش فى المصنعية وخفض الأجور ، وعلينا نحن الذين صنعنا الكثير للقضاء على العبث بالأسواق أن نوقف العبث فى المصانع ، لأن الغش فى التجارة يمكن أن يكتشفه المشترى الذكى ، لكن لا يمكن لإنسان أن ينجو من الغش الموجه الى اليد العاملة لأن أجر العامل يتحدد فى غيابه وبغير إرادته ، ولأن العامل الأجير لا مناص له من أن يغش فى الصنعة لو أمره بذلك صاحب العمل ، ولأنه يخضع دائما لجاسوسية صاحب العمل ، وقد أوضح مستر شلوس Schloss فى كتابه عن « مكافأة العمل » وقال ان التنافس الصناعى مؤامرة يومية من جانب صاحب العمل ليحصل من العامل على أقصى قدر من العمل مقابل أقل أجر ، فهل سنقوم بحركة من أجل المستهلك وحده تاركين العامل لا نصنع له شيئا ؟ الى جانبا يرقد

مستر برايت الذى كان له نصيب الأسد فى تدمير احتكار القمح ، لكن احتكار القمح لا يحدث نصف ما يحدثه احتكار رأس المال للربح من كوارث للعامل لأن احتـكار القمح يؤدى الى غـلاء ثمن الخبـز لكن احتـكار رأس المـــال للربح يخفض الأجور ويجعلها هكذا مخفضة فى كل مصنع وورشة فى البلاد ، وهذا نعرفه جيدا لأن كل انسان له دخل أكبر مما يستطيع كسبه من عمله لاشك أنه يستمده من تخفيض أجور الآخرين ، والمقصود من التعاون أن يضع ثمرة العمل فى أيدى العمال ، ويحقق ما قاله مازينى للعمال الإيطاليين من ان التعاون يستطيع « توحيد رأس المال والعمل فى نفس اليد » ، وتحدث مازينى الى العمال فقال : « كنتم فى وقت من الأوقات عبيــدا ثم أرقاء للأرض ثم أجراء ، والعلاج هو اتحاد اليد العاملة وتقسيم ثمرات العمل بين المنتجين بنسبة مقدار وقيمة عمل كل منهم » فما الذى يعوق تعميم هذا التقسيم الآن ؟ فنحن الآن بالنسبة للعمل فى نفس الموقف الذى كان فيه الأمريكان بالنسبة للرق ، فدستوره يعلن أن جميع الناس أحرار متساوون لكنهم رسموا حد اللون ففسروا الحرية على أنها تنطبق على الرجل الأبيض فحسب واستلزم الأمر شن حرب أهلية لتصحيح هذا التفسير الخاطىء ، والأمر كذلك بالنسبة لنا فتقول مبادىء التعاون أن تقسيم الأرباح لا ينطبق على المشترين فقط بل وعلى المنتجين ، لكننا نرى خطا رسميا يفصل العمل فى حركتنا ، ويتطلب الأمر جهدا طويل الأمد لمحو هذا الخط لكنه سيمحى ولاشك واستطاع رجلان هما وندل فيليبس Wendell Philips ولويد جاريسون Lloyd Garrison أن يمحوا الخط المرسوم ضد اللون وحرية الأرقاء الملونين ، وكذلك سيمحو التعاون باسم المساواة الخط الذى رسمته الرأسمالية ضد الأرقاء البيض فى بلادنا ، ويقدم معارضو المشاركة فى الربح نفس الحجج وبنفس اللغة كما قدمها معارضو تحرير الأرقاء فى أمريكا الذين دافعوا عن إخضاع الرقيق بقانون اقتصـــــادى مزعوم هـــــو قانـــون « التبعية الاقتصـــــادية economic subordination » الذى اخترعه فلاسفة الرق ، ورأينا فى حركتنا كيف يدافعون عن مبدأ الرأسمالية والجشع بأسم « علم الاقتصاد » وضد ذلك قام هوارث وسميثز وكوبر وكرشو ، وطالما خطبوا وسافروا

ليحققوا للعمال مستقبلا أفضل مما عرفوه فى أيامهم ، وبدأوا الحركة التى نحتفل بها الآن ، وقال لورد ينيسون :

« نظمنا ستعيش يومهـــا

ستعيش يومها ثم تموت »

"Our little systems have their day ;
They have their day, and cease to be.

« لكن لا ! انها لن تموت مادامت ضرورية وعادلة ، ونظام التعاون الذى أنشأته روتشديل كان أقل النظم قدرا وأكثرها غموضا وأقلها أملا فى النجاح من أى نظام آخر وضعه البشر ، **لكنه لم يمت بل على العكس واصل النمو وأصبح أكثر انتعاشا من كل النظم التى وضعت لتحسين أحوال عمال انجلترا ، فكيف حقق الرواد ذلك ؟ ومن أين استمدوا الالهام ؟ لم يتعلموا فى المدارس لكن كانت لهم عبقرية فى التسـلل الى القلوب خاصـة قلوب الشرفاء ، وعرفوا كما عرف الأسقف هواتلى أن الفرق كل الفرق فيما إذا كنت تجعل الحق أولا أم ثانيا ، فوضعوا الحق أولا والربح ثانيا مؤمنين بأن المبدأ أساس كل ربح شريف ومصدره النبيل الوحيد ولم يتلقوا الالهام من حب الربح فقط لانهم لم يروا هذا الربح مطلقا قبل ذلك وكرهوا المنافسة التى رأوا الآخرين يحققون الربح منها ، وانطلقوا مثل ديوجينيس يبحثون عن الربح الشريف بنور المبدأ فوجدوه فى التعاون ، وعلينا أن نواصل السير على منوالهم وسنرى اليوم الذى تمنوا رؤيته حين يسود المبدأ فى هذه الحركة ويتوقف اذلال الإجراء ، ويشارك العامل كالمشترى فى الربح الذى يحققه وينتهى شقاء الكثرة ويصبح تحقيق القلة لثروات فاحشة امرا مستحيلا بفضل القانون التعاونى المحقق للمصلحة المشتركة الذى توصى به النوايا الطيبة وتحكمه المساواة .**

بعض المراجـــع الهامة :

للباحثين والمهتمين بالدراسات التعاونية وتحليل نشأة التعاون وتطوره فى ضوء الظروف المحيطة ، نوصى بقراءة المراجع الآتية للمؤرخ التعاونى المعاصر لرواد روتشديل « جورج جيكوب هولى أوك » :

THE HISTORY OF CO-OPERATION IN ENGLAND :

Its Literature and its Advocates. In Two Volumes.

"Self-Help a Hundred Years Ago is the most complete account in existence of the origin of full of charm, and there falls at moments from his pen now most amusing anecdotes, and now phrases worthy of his foe. Lord Beacousfield" — Athenaum.

SELF-HELP A HUNDRED YEARS AGO. In the "Social Science Series."

"Self-Help a Hundred Years Ago' is the most complete account in existence of the origin of the co-operative movement. The new volume contains much that will be entirely fresh even to those who have made a study of the subject. ... The author must have reached an advanced age, but his style is as bright and vigorous as ever." — Manchester Examiner.

THE CO-OPERATIVE MOVEMENT TO-DAY.

"Mr. Holyoake's bright, crisp style and thorough knowledge of the more obvious features of co-operation render this book very attractive." — Glasgou Herald.

SIXTY YEARS OF AN AGITATORS LIFE. In Two Volumes.

"This book is full of varied inerest, and reveals a character of great force, of study independence, of real elevation and of genuine generosity. It is in many respects a valuable contribution to the political, social, intellectual, and even revolutionary history of our time." — Times.

"This is a book which veteran reformers will read with great interest, and from which the Liberals of the younger generation may derive much profit and instruction" — Daily News.

للباحث

- تنظيم وادارة الجمعيات التعاونية للاستهلاك . — مكتبة عين شمس ١٩٥٩
- تطور التعاون وفلسفته فى ضوء الاشتراكية العربية . — الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٢
- دور المؤسسات العامة التعاونية فى الاقتصاد القومى . — مكتب السيد رئيس الجمهورية للبحوث الاقتصادية ١٩٦٣
- التعاون فى المملكة المتحدة . — مكتب السيد رئيس الجمهورية للبحوث الاقتصادية ١٩٦٣
- التعاون الاستهلاكى (تاريخه ونظمه ومشكلاته) . — مكتبة عين شمس ١٩٦٤
- نحو حركة تعاونية نظيفة . — الاهرام الاقتصادى ١٩٦٥
- نحو بنيان تعاونى سليم . — الاهرام الاقتصادى ١٩٦٦
- تطور مفهوم ديمقراطية الادارة فى التنظيمات التعاونية . — جامعة الدول العربية — مكتبة عين شمس ١٩٦٧
- اصول التنظيم والادارة فى المؤسسات والتعاونيات . — مكتبة عين شمس ١٩٦٨
- التنظيم التعاونى . — مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- نشاة الفكر التعاونى وتطوره . — مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- التطبيق التعاونى فى بريطانيا . — مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- التطبيق التعاونى فى بعض الدول الاشتراكية والاسكندنافية . — مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- نحو بنيان تعاونى جديد . — مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- التعليم التعاونى . — المجلة العلمية لكلية التجارة وجامعة الدول العربية ١٩٧٠
- التطبيق التعاونى الاشتراكى . — مكتبة عين شمس ١٩٧٢
- التطور التعاونى الاشتراكى فى مصر وتشيكوسلوفاكيا — مكتبة عين شمس ١٩٧٣
- اصول الادارة العلمية . — مكتبة عين شمس ١٩٧٤
- دراسات فى التسويق التعاونى . — مكتبة عين شمس ١٩٧٤
- الثورة الادارية ومشكلات التعاون . — مكتبة عين شمس ١٩٧٥
- الادارة بين النظرية والتطبيق . — مكتبة عين شمس ١٩٧٦
- التعاون — تاريخه — فلسفته — اهدافه — مكتبة عين شمس ١٩٧٦
- التسويق التعاونى — مبادئه ومشكلاته — مكتبة عين شمس ١٩٧٧
- تطور التنظيم التعاونى — مكتبة عين شمس ١٩٧٩
- التخطيط التعاونى والنشاط التسويقى — مكتبة عين شمس ١٩٨٠
- التعاون بين التشريع والتطبيق — مكتبة عين شمس ١٩٨٢
- بحوث ودراسات فى التعاون — مكتبة عين شمس ١٩٨٣
- تنظيم الملكية الزراعية واستغلالها — مكتبة عين شمس ١٩٨٤
- روبرت أوين — مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- دكتور وليم كنج — مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- فردريش فلهلم رايفيزن — مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- تاريخ رواد روتشديل — مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- فلسفة رواد التعاون ومبادىء التعاون الدولية — مكتبة عين شمس ١٩٨٥

- Statement on Co-Operative Structure
- Egyptian Cooperative Structure
- The Higher Institute of Cooperative and Managerial Studies .

Published by : Egyptian Society For Cooperative Studies 1976 .

تعــريف ببعض أوجه نشــاط الباحث

- عضــو هيئة التدريس فى كلية التجارة جامعــة عين شمس منذ ١٩٤٨ وتدرج فى مناصب هيئــة التدريس الى الاستاذية ، ومازال أستاذا بها حتى الآن .
- كاتب بصحف دار التعاون للطبع والنشر وله مقال اسبوعى منذ عام ١٩٥٩ حتى الآن .
- تولى أمانة ثم عمادة المعهــد العالى للدراســات التعاونيــــة والادارية منذ انشــائه عــام ١٩٦٠ حتى الآن .
- رئيس مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراســات التعاونية التى تملك المعهد العالى للدراسات التعاونية والادارية ، والمجلة المصرية للدراســات التعاونية ومركز البحوث التعاونية ، ومركز تنمية العلاقات التعاونية الدولية ، ومركز التدريب التعاونى .
- رئيس تحرير المجلة المصرية للدراسات التعاونية منذ صــدورها فى عام ١٩٦٨ وصــدر قرار من مصــلحة الاســتعلامات بذلك ، وعضــو نقابة الصــحفيين .
- نائب رئيس اللجنــة الزراعية للحلف التعاونى الدولى منذ عام ١٩٧٦ واعيد انتخابه فى اكتوبر عام ١٩٨٠ لمدة تالية حتى عام ١٩٨٤ .
- عضــو اللجنة المركزية للحلف التعاونى الدولى ، ولجنة الصــحافة التعاونية ، وعديد من لجان الحلف النوعيـــة .
- مستشارا لجامعة الدول العربية فى الشــئون الاجتماعيــة والتعاونية والادارية .
- عضــو مجالس ادارة الاتحادات التعاونيــة المركزية للتعــاون الاســـتهلاكى ، والانتاجى ، والاســكانى والزراعى .
- تحت رعاية رياســة الجمهــورية تولى الأمانة العامة للمؤتمـــر التعــاونى الاســــتهلاكى الأول عـــام ١٩٨٠ .
- عضــو فى المجالس القومية المتخصصة (المجلس القومى للتنمية الاجتماعية والخدمات وعضــو شعبتى الحكم المحلى والتنمية الادارية) .
- عضــو المجلس الاعلى لقطــاع التمــوين ، وعضــو الجمعيــة العموميــة للعديد من شركات وزارة التمــوين .
- عضــو مجلس ادارة اكاديمية السادات للعلوم الادارية .
- عضــو الشــعبة المصرية للمعهد الدولى للعلــوم الادارية .
- راس المؤتمر الدولى الثالث للتجارة التعاونيــة الدولية بالقاهرة الذى نظمــه الحلف التعاونى الدولى ســـنة ١٩٨٢ .
- راس مؤتمر الاصــلاح الزراعى بصــوفيا الذى نظمه الحلف التعاونى الدولى بالتنســيق مع الاتحاد التعاونى فى بلغاريا ســنة ١٩٨٣ .
- اختير خبيرا بالهيئــة الاســتشارية التعاونية الكندية التى تضــم ابرز علماء وخبراء الحــركة التعاونية فى العالم ١٩٨٤ .
- راس النــدوة الدولية لادارة التنظيمات التعاونية فى الدول العربية التى نظمها المعهــد العالى للدراسات التعاونية والادارية سنة ١٩٨٥ بالتنسيق مع اتحاد رايفيزن العالمى .
- عضــو مجلس ادارة صــندوق تمــويل المســاكن ـ وزارة التعمير والمجتمعــات الجــديدة واســتصــلاح الأراضى ســنة ١٩٨٥ .
- رئيس اللجنــة الاستشارية الدائمــة للأمانة العامة للاتحاد التعاونى العربى سنة ١٩٨٥ .

بعــده ... ←

تابـــع : تعريف ببعض أوجــه نشاط الباحث

- اسـهم فى العمل السياسى ، حيث اختير عضـوا فى المؤتمر القـومى للقـوى الشـعبية .
- وامينا للمكتب التنفيذى بكلية التجارة جامعـة عين شمس .
- وعضـوا منتخبا بلجنـة المائة التى اختيرت على مسـتوى الجمهورية لوضع اسس الاصـلاح الاجتمـاعى والاقتصـادى .
- عضـوا منتخبا باللجنة المركزية للاتحاد الاشـتراكى العـربى .
- تحت رعاية السـيد رئيس الجمهورية سـلمه السيد رئيس الوزراء تمثال الامتياز الادارى كاحد رواد الادارة فى مصر فى عيـد الادارة الثالث الذى نظمتـه أكاديميـة ادارة الأعمـال واتحاد الجمعيات العلمية العاملة فى مجال الادارة ١٩٨١ .
- تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية سلمه رئيس الوزراء درع العيد الخمسـينى للبنك الرئيسى للتنمية والائتمان الزراعى (١٩٣١ — ١٩٨١) للدور البارز الذى قام به فى اعـداد التعاونيين وخـدمة الاقتصـاد القـومى .
- منحه السـيد رئيس الجمهورية وسـام الجمهـورية من الطبقة الثانية تقديرا لحميد صـفاته وجليل خدماته ... عام ١٩٨٣ .
- تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية سـلمه السيد رئيس الوزراء ميدالية وشـهادة تقـدير فى العيد الماسى للحركة التعاونية المصرية ١٩٠٨ — ١٩٨٣ .



ABUL KHEIR, Kamal Hamdy, born in Cairo, U.A.R., on 16 December 1922. Profession: University Dean and Professor. Married one child: Education: B.Com., Faculty of Commerce, Ain Shams University, 1943–47; Postgraduate Diploma in Organization and Management, ibid., 1952–53, in Marketing, 1953–54, in Stock-Exchange Studies in Cotton, 1954–55; Ph.D., Organization and Management of Cooperatives, 1960.

Appointments held: Member of Staff, Faculty of Commerce, Ain Shams University, 1948; currently Professor, Business Administration Department, ibid.; Consultant, Presidential Bureau for Economic Research, 1961; Dean, Higher Institute of Cooperative and Managerial Studies, 1961; Member, Supreme Council for Reorganization of the Cooperative Movement, 1968; Consultant to the Cooperative Committee, Central Committee of the Arab Socialist Union; Member, Higher Cooperative Supreme Councils of Agriculture, Consumer, and Producer. Books published: (university textbooks) Principals of Organization and Management, 1961; The Development of the Cooperative Movement in the U.A.R., 1962; Consumers Cooperation, 1964; Comparative Cooperative Systems in Many Lands, 1967; Cooperative Organization, 1969; Towards New Cooperative Structure, 1970; The Development of Cooperative Thought, 1970; Cooperative Application in Great Britain, 1970; (published by Al-Ahram Economic Review) Towards a Clean Cooperative Movement, 1964; Towards Sound Cooperative Movement, 1966 (issued by the President's Office for Economic Research) The Cooperative Movement in the United Kingdom, 1962; The Role of Cooperative Organization in the National Economy (U.A.R.), 1962. Contributor to professional journals and newspapers.

Professional affiliations: Egyptian Society for Cooperative Studies (Vice-Chairman, 1962); Congress of the Arab Socialist Union. Address: Higher Institute of Cooperative and Managerial Studies, El-Monira, Cairo, U.A.R.

بالرجوع الى القاموس الدولى بعنوان « أبرز ٢٠٠٠ من علماء العالم Two Thousand Men of Achievement الصادر فى عام ١٩٧١ ، تقول مقدمته :

أن أسماء العلماء الذين تضمنهم هذا القاموس هم الصفوة الممتازة من أبرز علماء العالم تقدما وعطاءا ... وأن اسماءهم تعتبر أكثر أسماء علماء العالم دورانا على ألسنة الناس والمجتمعات ، على الصعيد المحلى والدولى ، وأن الوثائق تتضمن نشاطهم وجهدهم ستظل محفوظة على مر العصور فى أرشيف « ميلروز Melrose بلندن ودارتماوث Dartmouth وهو الثغر الذى هاجر منه الآباء والأجداد الانجليز فى عام ١٦٢٠ من انجلترا الى العالم الجديد .

عنوان المراسلات مع القاموس الدولى :

All communications to : Two Thousand Men of Achievement, Artillery Mansions, Victoria Street, London S.W.I., England

ورد اسم الدكتور كمال حمدى ابو الخير فى هذا القاموس فى الصفحة رقم (٢)

تم بحمد الله تعالى

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٩٣ / ٨٥

المطبعة العالمية

١٦ / ١٧ شارع ضريح سعد القاهرة ت ٥٤٩٣١٧